الرقُّ الثقافيّ

يحتوي عُنصرين:

أولًا: الدِّين.

وقع عليه الرقّ، ويشمل: الدعوة إلى الله، والجهاد، والحجّ.

ثانيًا: الإعلام.

وقع به الرقّ، ويشمل: الوطنية، والتحضُّر، والأصولية، والإرهاب، والحرية.

obeikandl.com

obeikandl.com

الرقّ الثقافيّ

من العدل أن نعترِف بأنّ ما نسمِّيه الآن (الثقافة العالمية المعاصرة) هو في الحقيقةِ «الثقافة الغربية»، أو بعبارةٍ أخرى «الثقافة الأورو أمريكية»، هذه الثقافةُ قاهرةٌ غلّابة، طرَدت الثقافاتِ المحلية، أو أضعفَتْها، أو عدَّلَتْ فيها، لقد غيَّرتْ مظاهرَ الحياة وطريقةَ العيش، وكانت في ذلك شاملةً وعامة، فالتوسُّعُ في اقتناء الآلاتِ والمعدَّات واستخدامِها، وتطبيقُ التقنياتِ الحديثة في التنظيم والإنتاج، وطُقوس الاحتفالات، وإجراءاتُ البروتوكولات الدبلوماسية، وقواعدُ الإتيكيت الاجتماعيّ، كلُّها أمثلةٌ لهذه المظاهر.

واضحٌ أنّ بعضَ هذه المظاهر يَقتضيها الاختيارُ العقلانيّ والفائدةُ العمَلية، ولكنّ بعضَها كان مجرَّدَ تقليدٍ للثقافة الغربية المستجيبة للذوق الغربيّ أو الـ Culture المحض، على سبيل المثال سيادةُ موضات الشباب والنساء، وطرازُ الملابس، ومظاهرُ تزيين الجسم، وقد ترى الرجُلَ العربيَّ يحرِصُ على الاحتفاظ بهُوِيَّته العربيةِ والاعتزازِ بها؛ فيحتفِظُ بغطاء الرأس (الغترة والعقال)، ولكنّه في الوقت نفسِه يحتفِظُ باللباس الغربيّ، بما فيه ربطةُ العُنُق التي لا يَبدُو لها وظيفةٌ عمليةٌ في حياة العربيّ، أو على الأقلِّ لا يبدُو لها وظيفةٌ تُقابِلُ ما يُنفقُه العربيُّ عليها من عمَلٍ ووقتٍ ومال[٣٧].

وليس أدلَّ على طُغيان سُلطان الثقافة الغربية على عَقْل المسلم من أنّه حتى المدافعون عن الإسلام من الكُتّاب الإسلاميين لم يَستطيعوا التخلُّصَ من هذا الطُّغيان، فنَجِدُهم يُدافعون عن نظامِ تعدُّدِ الزّوجات بصفةٍ اعتذارية[٢٢].

والحضارةُ الغربية بامتلاكها للتقنية العالية ومُنتَجاتها من مَظاهرِ القوة، والمستوى الخُلُقيّ الاجتماعيّ الذي تتمَتّعُ به المجتمعاتُ الغربية، ومظاهرِ ذلك من احترامِ حرّية الإنسانِ وكرامتِه، وتسليمٍ للروح الديمقراطيّ، والمساواةِ أمامَ القانون، وضماناتِ العدالة لأفرادِ المجتمع، ولا سيَّما مع موازنةِ ذلك بالتخلُّفِ الذي يُشكِّل الصفةَ

السائدةَ لبُلدان العالم الإسلاميّ، وبالمستوى الخُلقيّ الهابطِ في مجتمعاته؛ حيثُ يسودُ في كثيرٍ من الحالات القهرُ والتسلُّط، وانتهاكُ حقوق الإنسان، كلُّ ذلك – مع الجهلِ بالإسلام وتشوُّهِ صورتِه بالبدَعِ والخُرافات والتفسيرات الخاطئة التي لحقَتْ به على مرِّ العصور – أَوجَد شُعورًا بالنقص بين المسلمين تُجاهَ الغرب والحضارة الغربية، وتعرَّضَ المسلمون بذلك لفتنةٍ ربما لم يتعرَّضُوا لمثلِها في تاريخ الإسلام كلِّه)[٦].

إنّ الثروة المعرفية المتعاظمةَ لدى الإنسان في عالم الثقافة الغربية، والتقدُّمَ المذهِلَ في تكنولوجيا الإنتاجِ والتنظيم وإنجازاتِ الابتكار والاختراع، ومظاهرَ القوّةِ السياسية والعسكرية والاقتصادية، وليس أقلَّ من ذلك الشّعاراتُ الإنسانية والأخلاقية للاعتراف بحقُوق الإنسان، وضمانُ تكافؤ الفُرَص، والمساواةُ أمامَ القانون، وصلاحُ الحكم والإدارة (باستثناء عهود الحكم الفاشي والشيوعي)، وفي مقابل ذلك حالةُ التخلُّفِ والفساد: في الحكم، والإدارة، ومجالاتِ المعرفة، لدى الشعوب في العالم الإسلاميّ، كلُّ ذلك أنتج نتيجتين:

أ. غلوَّ المسلم في الثقة بالثقافة الغربية بوصفِها منهجًا للحياة وطريقةً للعيش، والتطرُّفَ في الغفلةِ عن الجوانب السَّلبية المتأصِّلة في هذه الثقافة.

ب. ضعْفَ ثقةِ المسلم بالإسلام بوصفه منهجًا للحياة وطريقةً للعيش، وترتَّبَ على ذلك عدمُ الوعْيِ بإمكانات الإسلام، فضلًا على الإرادةِ في الانتفاع بها[٣٦].

وفي العصرِ الحاضر يُخشَى – بسبَبِ التأثير الطاغي للثقافةِ الغربية الذي يُسنِدُه الانبهارُ بالتقدُّم المادّيِّ والتكنولوجيِّ والمعرفيِّ للغَرْب، وسُلطانُ الإعلام المسيطِر – أن يُصابَ الضميرُ الخُلُقيُّ الجَمْعيّ للأمة بتشوُّهاتٍ غيرِ إسلامية، إنّ تسرَّبَ بعضِ اتِّجاهاتِ الثقافةِ الغربية إلى مُجتمعاتِ المسلمين – مثلِ النسبيّةِ الأخلاقية، والميكافيليّة، والأنانيّة، والتسليم بفِكْرةِ الصّراعِ والمغالبة حتى في أوساطِ بعض العامِلِين للإسلام – يدعُو إلى تلك الخشية.

إن الثقافةَ الأمريكية كغيرِها من الثقافات البشرية تحتَوِي على كنـزٍ ثريٍّ من القِيَم الإنسانية والحضارية، كما تحتوي على مكوِّناتٍ أُخرَى هي مزيجٌ من التاريخ والموروثات الثقافية والغرائزِ البشرية.

والتسليمُ بالقيم الإنسانية في هذه الثقافة لا يَرتفع دائمًا إلى المستوَى الأيديولوجيّ (الاعتقادي)، وإنما يَبقَى في المستوى النفعيّ ووَفْقَ مُقتضى اعتبارِ الذات، وأعنى بالأمرِ الأخير أنّ الغربَ يُسرف في التمدُّحِ بالتحضُّر ورعايةِ القيم الإنسانية وادِّعاءِ تميُّزِه في ذلك عن بقية الشعوب، ويَصِمُ الآخَر بالتخلُّفِ والهمَجية، وغيابِ أو قصورِ الحرية والعدل والمساواة وحقوقِ الإنسان في المجتمعات الأخرى، وخلَقَ هذا الجوُّ الفكريُّ ضغطًا على الإنسان الغربيّ يَحمِلُه على الالتزامِ بتطبيقِ تلك القيمِ في مجتمعاتِه المحلية، وفي ظلِّ ظروف معينة.

هذه الثقافة نفسُها هي التي سمحَتْ للرجل العسكريّ الأمريكيّ أن يُلقِيَ على أفغانستان في المرحلةِ الأولى من الحرب سبعينَ مليون كيلوجرام من القنابل العُنقودية التي ستظَلُّ لأجيالٍ تَقتُلُ أبرياء، أو أن يَقصِفَ حفْلَ عُرسٍ بناءً على خبرٍ – ظهَر كذِبُه فيما بعدُ – يُفيد أنّ أحدَ أو بعضَ المحاربين من العدُوّ الأفغانيّ سوف يَحضر العُرس!.

إنّ الغربيين حينما يُصوِّرون الإسلامَ على أنه يَحمِلُ في جوهرِه بُذورَ التعصُّبِ والعدوانية والعنف، يَعنُون ضمنًا وبمفهوم المخالفة أنّ الثقافةَ الغربية أبعَدُ – على الأقل – من الإسلام عن العُدوانية والعنف والتطرُّف.

ولكنْ هل يشهَدُ الواقعُ على ذلك؟

خِلالَ القرونِ الأخيرة لم يحدُثْ أن غزَتْ دولةٌ مسلمةٌ دولةً غربية، وبالعكس يشهَدُ تاريخُ الاستعمار أنّ العالَم القديم والعالم الجديد كانا دائمًا هدفَ الغزوِ من قِبَلِ الغرب[٩].

فخِلالَ المائةِ سنة الماضية كان العالم الإسلاميُّ في مواجهة الغرب هو المغزُوَّ لا الغازي؛ فلم يكن المغربُ هو الذي غزا أسبانيا، ولم يكن المغربُ أو تونسُ أو الجزائرُ أو سوريا أو لبنانُ أو مالي أو السنغال هي التي غزَتْ فرنسا، ولم تكن ليبيا أو الصومالُ هي التي غزت إيطاليا، ولم تكن مصرُ أو السودانُ أو فلسطينُ أو العراقُ أو اليمنُ أو الإماراتُ الإسلامية الهندية هي التي غزت بريطانيا، كما لم تكن إندونيسيا هي التي غزت هولندا[٢٩].

مرَّ الاستعمارُ العسكريّ، ولكن بَقِي الاستعمارُ الاقتصاديُّ والاستعمارُ الثقافيّ[٢٤].

وقد لاحظ برتراند رسل(*) أنّ الغربَ أهدى للشرق مساوِئَهُ: القلقَ، وعدَمَ الرضى، والروحَ العسكرية، والإيمانَ الغالي بالآلة، ولكنَّ الدُّولَ القوية في الغرب تحاوِلُ دائمًا صرْفَ الشرقِ عن أفضلِ ما لدى الغرب، روحِ البحْث الحرّ، والتعرفِ إلى الظروف التي تُؤدِّي إلى الرفاهية التامة، والتحرّرِ من الخُرافة[٣].

وصدَرَ عن قادة الحربَيْن على أفغانستانَ والعراقِ - من مُستوى رؤساءِ الدُّوَل والحكومات فما دون - الإعلانُ عن أنَّ الحربَ أيدولوجية، وأنها الحربُ الأيدولوجية للقرن الواحد والعشرين، وأنّ الهدفَ منها ليس الاستيلاءَ على الأرض وإنما الاستيلاءُ على القلوب والعقول[٣٨].

كلُّ ما سبَق حرِيٌّ بأن يَلفِتَ نظَرَ الجهاتِ المسؤولة عن التربية في المجتمعات الإسلامية إلى ضرورةِ توعية النَّشْءِ بالتصوُّر الإسلاميّ[٩].

ويكون هذا الأمرُ ممكنًا إذا ما وُضِع مِعيارٌ دقيقٌ تُوزَنُ به التصوُّرات، ويُحكَم عليها وَفْقَه، ويمكن أن نُلخِّصَ هذا المعيارَ بأن يكون التصوُّرُ مُوافقًا للمنطق والعقل، وأن تكون نتائجُه النفْعَ للجماعة الإنسانية.

(*) هو برتراند أرثر ويليام رسل (١٨٧٢-١٩٧٠م) فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني.

ولتطبيق هذا المعيارِ لا بدّ أن نعترف أنّ كلَّ تناقُضٍ في الفكرة والتصور – بأن يُحكَم على تصوُّرَين متماثلَيْن بحُكْمين مختلِفَيْن، أو أن يُحكَم على تصوُّرَين مختلِفَيْن بحُكْم واحد – لا يَسمَحُ بادِّعاء انسجامِها مع المنطق والعقل، ولتطبيقِ هذا المعيار نُورد بعضَ الأمثلة:

١– لو أنّ قاطعَ الطريق في الصحراء أو الغابة اعتَرض سيارةً تحمل عائلةً، فقتل الركّابَ لَسُمِّي مُجرِمًا، ولَوُصِفَ بأنه متوحِّشٌ وهمَجيّ ولا إنساني، ومتخلِّف أخلاقيًّا، فإذا قصَفَ جيشٌ في ليلةٍ واحدة مدينةً مثل (هيروشيما)، وقَتَل مائةَ ألف شخص من النساء والأطفال وغير المقاتلين، – وبعد أن تقرَّر وعُرف مسيرُ الحرب –، فوَفْقَ التصوُّر الغربي لا أحَدَ يحكُم على الفاعلِ في هذه الحالة بأنه متوحِّشٌ أو همَجيّ، أو غيرُ إنساني، أو متخلِّفٌ أخلاقيًّا، مع أنه لا فرق في الحالتين في نوعيّةِ العمل، إنّما الفرقُ في حجم العمل.

٢– أسوأُ أنواعِ الوحشية وضعُ إنسانٍ تحت أشدِّ أنواع التعذيبِ لانتزاع اعترافٍ منه، عن نفسِه أو على غيره، ومع ذلك لا نرَى وصفَ الدولة التي تختَطِفُ الناس، وتُرسلُهم في شَحناتٍ بالطائرات إلى أسوإِ مراكز التعذيب في العالم، وتتضامَنُ معها دوَلٌ أخرى بالإمداد اللوجستيّ، أو على الأقلِّ تغُضّ النظر، ومع ذلك لا نرى أحدًا يصف الفاعلَ بأنه متوحِّشٌ، وهمجيّ، وغيرُ أخلاقي، ولا عقلانيّ، والفارقُ العجيبُ في مثل هذه الحالةِ أنّ الفاعلَ يُوصَف بالتقدُّم والتحضُّر والمدنية[٣٧].

إنّ المنهجَ الصحيح في الحكم على القضايا أو الأشخاصِ يجبُ أن يتوفَّرَ له شرطان:

١ / العلم: وذلك بسَعْي الإنسان الجادّ للوصول إلى الحقيقةِ بالوسائل الصحيحة، وليس منها الظنُّ، أو الإشاعة، أو مجرَّدُ شُيوع الفكرةِ عند الناس، أو الانطباعُ الشخصيّ، أو التّسليمُ المطلقُ للشعارات.

٢/ الموضوعيةُ وعدَمُ التحيُّز، ويعبِّرُ عنه القرآنُ بالعدل.

نرَى أنّ هذا المنهجَ والعنايةَ به وإشاعتَهُ بين الناس وتربيةَ النَّشْءِ عليه كفيلٌ بالوقاية والعلاج[1].

obeikandl.com

الدِّين

الإسلامُ ليس مجرَّدَ دينٍ بالمعنى الذي يَفهمُه غيرُ المسلمين لكلمة دين Religion وإنما هو منهاجٌ شامل للحياة[٣٨].

القوانينُ الطبيعية تدلُّ على أنّ وراءَ خلْقِ الكون (واحدًا) له العلمُ المطلَقُ، والحكمةُ المطلَقة.

والقوانينُ الشرعية تدلُّ على أنّ مصدَرها العليمُ الخبيرُ العزيزُ الحكيم.

وجهُ دلالةِ القوانين الطبيعيّة على أنّ مصدرَها واحدٌ له العلمُ المطلقُ والحكمةُ المطلقةُ أنّها لا تتخلَّفُ ولا تختلِف ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، أي إنها على تمام الدِّقة والانسجام.

ووجهُ دلالة القوانين الشرعية على أنّ مَصدرَها الله العليمُ الحكيمُ أنها على كمالِ الانسجام والإتقانِ والتكاملِ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

عدمُ «التفاوت» في الكونِ مثلُ عدمِ «الاختلاف» في الشرع، في الدّلالة على وَحْدة المصدر.

كما ترى ليس التشابهُ بين القوانينِ الطبيعية والقوانين الشرعية (الإسلامية) فقط في التسمية، ولا في الطبيعة المميِّزة لكلٍّ منهما – وهي الانسجامُ والتكامل – بل في وجهِ دلالةِ النوعَيْن من القوانينِ على أنّ مصدرهما (الله)[٣٩].

والمسلمُ حينما يَنتفعُ بهداية القرآن، فيستَشعرُ رِفقتَهُ لعناصرِ الطبيعة في التسبيح لله، ويَستشعرُ أنّ عناصر الطبيعة مسخّرةٌ لانتفاعه فإنّ من الطبيعيِّ أن تكون علاقتُه بالطبيعة علاقةَ إلْف وصداقة، وهذا يُفسِّرُ أنه لم تكن تُوجَدُ في لغات المسلمين مثلُ ألفاظ: الصراع مع الطبيعة، وقَهْر الطبيعة، وغَزْو الفضاء، لقد دخلَتْ هذه العباراتُ أخيرًا في لغات المسلمين تقليدًا للعباراتِ الشائعة في الثقافة الأوروأمريكية، وجهْلُ

المسلمين المعاصرين بالإسلام وبنصوص مراجِعِه الأساسية (القرآن والحديث الصحيح) جعلَهُم يَبتعدون عن التصوُّرِ الإسلاميّ لعلاقة الإنسان بأخِيه الإنسان وعلاقتِه ببيئته[٤٠].

وعندما يتعامل معها الإنسانُ بعقلٍ وانسجام فإنه يَبني السعادةَ على الأرض؛ فإنّ المسلم الواعيَ عندما يقرأُ أو يَسمع القرآن، ويُسبِّحُ الله كما أمره فإنّ من الطبيعيِّ أن يُدرِك أنه عُضوٌ في «كورس» التسبيح الكونيّ، وهذا كافٍ لإشعارِه بانسجامه مع الكون وعناصرِه، وأنه ليس مع الطبيعةِ في حال تنافُرٍ وصراع[٩].

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي إنهم ليسُوا ثخناءَ الجلودِ قلوبُهم في غُلْف، يتملّكُهم الاستكبارُ العقلانيّ كما حدثَ للمعتزلةِ السابقين ومعتزلةِ هذا الزمان الذين يَرَوْن في التسليم للوحي وللنصِّ المقدَّس مذهبَ السّفهاء والشُّذَّج ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣][١٠].

* * * * * *

يرى ألبرت أينشتاين[*] أنّ المخرَجَ هو في الإيمانِ بالقيم الإنسانية، أو بالعودةِ إلى نوعٍ من الدِّين، ويقول: (إنّ الشخصَ المستنير من الناحية الدينية يبدُو لي كأنه رجُلٌ حرَّر نفسه – على قدر ما يستطيع – من قُيود أنانيته ورغباتِه الفردية، وشَغل نفسَهُ بالأفكار والمشاعر والآمالِ التي يتعلَّق بها لقيمتها التي تسمُو على ذاته)[٣].

وكتب المؤرخ الروائي الإنجليزي المشهور H. G. Wells[**] في كتابه Outlines of The History (1920. p 326): (إنّ أعظمَ ما اجتذَب قلوبَ غالبيةِ الناس عندما جاء محمدٌ

(*) ألبرت أينشتاين (١٨٧٩–١٩٥٥م) ألماني سويسري أمريكي الجنسية، يهودي الديانة، أحد أهم العلماء في الفيزياء.

(**) هو هربرت جورج ويلز (١٨٦٦–١٩٤٦م) أديب ومفكر وصحفي وعالم اجتماع ومؤرخ إنجليزي، ويُعدّ من مؤسسي الخيال العلمي.

بدين الإسلام هو فكرةُ الإله (الله)، الذي يُعنَى بالوعي الذي فُطرت عليه قلوبُهم، وبقبولهم المخلِص للإسلام ومنهاجه انفتَح أمامَهم- في عالمٍ كان مملوءًا بعدم اليقينِ والزَّيْف والانقسامات المتعصّبة - بابٌ واسعٌ للأخوّة البشرية العظيمة، والمتناميةِ وإلى فردوس لا يحتَلُّ فيه القديسون والقساوسةُ والملوكُ المكانَ الأعلى، وإنما تتحقق فيه المساواةُ بين أتْباع الدين، دون رمزية غامضة، أو طقوسٍ ظلامية، أو ترانيم قسِّيسين، قدَّمَ محمدٌ تلك النظُمَ الأخلاقيةَ إلى قلوب البشرية، الإسلامُ أوجد مجتمعًا تحرَّر من القسوةِ والاضطهادِ الاجتماعيّ إلى درجةٍ لم يبلُغْها أيُّ مجتمع من قبل).

ويقول: (إنّ الإسلام انتشر وسادَ لأنه قدَّم للإنسان أفضلَ نظامٍ سياسيّ واجتماعيّ يمكن أن يمنحَهُ الزمان، هذا النظامُ الذي يمثل أوسعَ وأنقى وأنظفَ فكرةٍ سياسيةٍ أمكن حتى الآنَ أن تُطبَّق عملًا على الأرض)[٤١].

ويقولُ محمد أسد: (إنّ الإسلام - بوصفه دينًا - لا يقوم على عقيدةٍ تصوُّفية، ولكنه يتقبلُ دائمًا البحثَ الانتقاديَّ العاقل، إنّ الإسلام يحمِلُ الإنسانَ على توحيد جميعِ نواحي الحياة، وبما أنّ هذا الدينَ واسطةٌ لهذه الغاية فإنه يمثِّلُ في نفسه مجموعةَ مُدرَكاتٍ لا يجوز أن يُضاف إليها شيء، ولا أن يُنقَص منها شيء، كما أنه ليس في الإسلام مجالٌ للخِيَرة، فإذا قَبِلْنا بتعاليمه كما بسطها القرآنُ الكريم أو كما أوردها الرسولُ ﷺ فيَجبُ علينا أن نقبَلَها كاملةً وإلا خسِرَت قيمتَها، ومن سُوءِ الفهم الأساس للإسلام أن نظُنّه يُخضِع تعاليمَهُ للاختيار الشخصيّ بين العقل والفلسفة العقلية كما يَفهمُها عادةً بعضُهم اليوم، إنّ لعملِ العقلِ فيما يتعلق بالتعاليم الدينية صفةَ الوازع، وواجبُه أن يَرى أنه لا يُفرَض على العقل إلا ما يحتمِله العقلُ بسهولةٍ ومن غيرِ لجوء إلى الخُدَع الفلسفية، أما فيما يتعلق بالدِّين الإسلاميّ فإن العقلَ البعيد عن الهوى قد وَثِقَ به مرّةً بعدَ مرّةٍ ثقةً مطلقةً من كلّ قيد، إلى هُنا كان عملُ العقل في الأمور الدينية - كما رأَيْنا - عملًا من الرقابة السلبية، ولكنْ ليس الأمرُ كذلك فيما يُسمُّونه الفلسفةَ العقلية، إنها لا تكتفي بالتسجيل والمراقبة،

وإنما تَقفز إلى التفكيرِ السَّلْبي، إنها ليست متفهِّمة ولا مستقلَّةً كالعقل المطلق، ولكنّها ذاتيةٌ مِزاجيّة إلى الحدِّ الأقصى، إنّ العقلَ يعرِفُ حدودَهُ الخاصة، ولكنّ الفلسفةَ العقليةَ تتخطَّى المعقولَ في ادِّعائها حصرَ العالَم بجميع خفاياه في نطاقِها الفرديّ الضيِّق، وهي لا تكاد تُسلّم في الأمور الدينية بأنه من الممكن وجودُ أشياءَ لا يُطيقها الفهمُ الإنسانيّ في زمَنٍ مّا، أو في كلّ زمن، مع أنها في الوقت نفسِه تخالف المنطقَ إلى حدِّ أنها تُسلّم بهذا الإمكان للعلم).

ويقول: (نحن نَعُدّ الإسلامَ أسمى من سائر النظُم المدنية؛ لأنه يشمل الحياةَ بأسرها، إنه يهتمُّ اهتمامًا واحدًا بالدنيا والآخرة، بالروحِ والجسد، بالفرد والمجتمع، إنه لا يَهتمّ فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وُجوهِ السُّمُوّ بل يهتَمّ أيضًا لما فيها من قُيودٍ طبيعية، إنه لا يحمِلُنا على طلَبِ المحال، ولكنه يَهدينا إلى أن نستفيدَ أحسنَ الاستفادةِ - بما فينا من استعداد - إلى أن نصِلَ إلى مستوًى أسمى من الحقيقة، حيثُ لا شقاق ولا عِداءَ بين الرأي والعمل، إنه ليس سبيلًا من السبُل ولكنه السبيل، وإنّ الرجل الذي جاء بتعاليمه ليس هاديًا من الهداة، ولكنه الهادي).

ويقول: (وعبادةُ الله في أوسعِ معانيها تؤلِّف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية، هذا الإدراكُ وحده يُرينا إمكانَ بلوغ الإنسان الكمالَ (البشَريّ) في إطار حياته الدنيوية الفردية، ومن بين سائر النظُم الدينية نَرى الإسلام وحدَهُ يُعلن أنّ الكمال الفرديَّ (البشَريّ) ممكنٌ في الحياة الدنيا، إنّ الإسلام لا يؤجِّلُ هذا الكمالَ إلى إماتة الشهوات (الجسدية) كما في النصرانية، ولا هو يَعِدُنا بسلسلةٍ متلاحقةِ الحلقات من تناسُخ الأرواح على مراتبَ متدرِّجةٍ كما هو الحال في الهندوكية، ولا هو يوافقُ البوذيّةَ التي تقول بأنّ الكمال والنجاةَ لا يَتمّان إلا بعد انعدامِ النفس الجزئية وانفصامِ علاقاتها الشعورية من العالم، كلا، إنّ الإسلامَ يؤكد في إعلانه أنّ الإنسان يستطيع بلوغَ الكمال في حياته الدنيا الفردية، وذلك بأن يستفيد استفادةً كاملةً من وجوه الإمكان الدنيويِّ في حياته هو)[٩].

الإسلامُ لديه من الإمكانيات ما يمكِنُ أن يغيِّرَ حياتَنا، ويصنعُ لنا التقدُّم، المشكلةُ أننا غيرُ واعين لهذه الإمكانيات، وهذه الإمكانياتُ ليست فقط لصُنع ووجودِ تقدُّمِنا، بل هو تقدُّمُ البشرية[٤٢].

يقول محمد أسد: (إنّ الإسلام - قبْلَ أيِّ شيء - مفهومٌ عقلانيّ، لا عاطفيٌّ ولا انفعالي، والانفعالاتُ مهما تكن جيّاشةً فهي معرَّضةٌ للاختلاف والتباين؛ باختلاف رغَباتِ الأفراد وتبايُنِ مخاوفِهم، بعكس السببيّة العقلية، كما أنّ الانفعالاتِ غيرُ مضمونةٍ بأيّةِ حال)[٩].

ويقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب - ترجمة عادل زعتر (ص ٦٠٥): (الحقُّ أنّ الأمم لم تعرِف فاتحين متسامحين مثلَ العرب، ولا دينًا مثلَ دينهم، وما جهِلَهُ المؤرِّخون من حلْمِ العرب الفاتحين وتسامُحِهم كان من الأسباب في سُهولةِ اعتناق كثيرٍ من الأمم لدينهم ونظُمِهم ولُغتهم التي رسخَتْ، وقاومت جميعَ الغارات، وبقيَتْ قائمةً حتى بعد أن تولّى سلطانُ العرب عن مسرَحِ العالم)[١].

في خلال ٢٥ سنة امتدَّ سلطانُهم، فهَزَموا الإمبراطوريةَ البيزنطية، وهَزَموا الإمبراطورية الفارسية، وامتدَّ سلطانُهم من القفقاس(*) - من أرمينيا - إلى أقصى المغرب، وإلى حُدود الصين، في حادثٍ لا يزال المؤرخون لا يعرفون متحيِّرين كيفَ حصل هذا؟، يعني شيءٌ يُشبه أن يكون مما وراءَ الطبيعة، مما فوقَ تفكيرِ البشر، في هذه المدّةِ القصيرة كيف يمكن هذا الإنجازُ الهائل؟.

لكنّ هناك إنجازًا أعجبَ منه! وهو أنّ هذه الشعوبَ الممتدة على هذه الرقعة والمختلفة فُسيفساء(**) من الأديان وفُسيفساء من المذاهب، حيثُ كانت الإمبراطورية

(*) منطقة جغرافية سياسية تقع عند حدود أوروبا وآسيا، وهي موطن جبال القوقاز.

(**) الفسيفساء قطع صغار ملونة من الرخام أو الحصباء أو الخرز أو نحوها، يُضم بعضها إلى بعض، فيكوَّن منها صور ورسوم.

الهيلينية(*)، ثم الرومانية، وغيرُهما من الإمبراطوريات التي حكَمتْ ولم تستطعْ أن تغيِّر أيّ شيء في هذا.

أما الإسلامُ لما جاء وانتشر - خِلالَ هذه المدةِ القصيرة - انطبعت هذه الشعوبُ كلُّها بطابع الثقافة الجديدة، واعتنقتِ الإسلام، وغيَّرَتْ طريقةَ حياتها، في الأكل، وفي الشرب، وفي اللِّباس، وفي العادات، وفي اللّغة(٤٢).

* * * * * *

اتّخَذ الاستعمارُ في سعيه لإضعاف القوّة المعنوية للعالم الإسلامي نشْرَ فوضى فكرية للتشويش على التصوُّرات والقيم الإسلامية، وتشجيعِ الدعوة الدينية المضادة (التنصير)، فكان من الملاحَظ أنّ الفرنسيين الذين يُعارِضون اليسوعيِّين(**) في فرنسا يُشجِّعون نشاطَهُم في بلدانِ العالم الإسلاميِّ الواقعةِ تحت سلطانهم، وكان من الملاحَظ أنّ سِفاراتِ البلدان الغربية - المتنافسةِ والمتضادّةِ المصالح - تجتمعُ على تشجيع وسائل الغزْو الفكريّ(٢).

يقول محمد أسد: (بعد قرونٍ من البغضاء وترسُّخِ الصوَر الزائفة عن الإسلام ليس غريبًا أن يَجِدَ مُعظَم الغربيين صُعوبةً بالغة في تحريرِ أنفُسهم مما نشؤُوا عليه من تصوُّرات زائفة، وأن ينظروا إلى الإسلام بجدِّيّةٍ وعقلانية يستحقُّها كدين.

إنّ كثيرًا من خِبرات الحضارة الغربية التاريخية موسومٌ بعداء عميقٍ للإسلام، وإلى حدٍّ مّا فإنّ ذلك موروثٌ من التراث الأوروبيّ.

(*) الهيلينية مصطلح يستخدمه المؤرخون للإشارة إلى التقاليد الحضارية السائدة في تلك المقاطعات التي كانت تتحدث اليونانية في الإمبراطوريات (السلوقية والبطلمية) وفي الإمبراطورية الرومانية.

(**) اليسوعيون أو الرهبنة اليسوعية واحدة من أهم الرهبنيات الفاعلة في الكنيسة الكاثوليكية، وقد أُسست على يد القديس إغناطيوس دي لويولا في القرن السادس عشر.

الغربيون يعتقدون أنّ تفوُّقَهم العرقيَّ حقيقةٌ واقعة، وكان احتقارُهم لغيرِ الأوروبيين أحـدَ المظاهر البارزة للحضـارة الغربية، وهذا وحْدَه على كلِّ حـالٍ ليس كافيًا لبيان شعورِهم تجاهَ الإسلام.

فهنا – وهنا فقط – يَظهرُ أنّ الموقف الغربيَّ تجاهَ الإسـلام ليس مجرَّدَ كُرهٍ أو عدم اهتمام – كما هو الحالُ بالنسـبة للأديان والثقافات الأخرى – بل هو في الغالب كُرهٌ عميقٌ في الجذور، يصـدُر عن تعصُّب شـديد، وهو ليس فكريًّا فحسب بل هو يحمِلُ صـبغةً عاطفية حادّة، قد لا يقبَلُ الغرب تعاليمَ بُوذا(*) أو الفلسـفةَ الهندوسـية(**)، لكنـه يُحافظ دائمًا على موقف عقليّ متَّزِن تجاهَ هذيـن النظامين، ولكنْ حالما يَلتفتُ للإسلام فإنّ التوازن يضطربُ، ويتسَلّلُ محَلَّهُ التحيُّز الطائفيّ.

كانت الحملاتُ الصليبية ضدَّ العالم الإسلاميّ أنتجَتْ أعمقَ وأدْومَ الانطباعاتِ على النفس العامة الأوروبية.

الشـرُّ الذي أحدثتْهُ الحملاتُ الصليبية(***) كان أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ شرًّا ثقافيّا، وقد نشأ تسمُّمُ العقل الأوروبيّ ضدَّ العالم الإسلامي عامّةً من خلال تضليلٍ متعمَّد من الكنيسة ضدَّ تعاليم الإسلام.

مع أنّ الشـعورَ الدينيَّ الـذي كان من جذورِ العِداء الأوروبيّ للإسـلام قد تَركَ مكانَـهُ – بوجهـةِ نظرٍ أكثرَ ماديةً للحياة – فإنّ هذا العداء القديم لا يزال باقيًا بصـفتِه عاملًا لا شـعوريًّا في عقل الرجل الغربـيّ، وبالطبع فإنّ درجةَ هذا العداء تختلفُ من فردٍ إلى فرد، ولكنّ وجودَهُ لا يمكن إنكارُه.

وروحُ الحملات الصـليبية بشـكْلٍ مصغَّر – على كلّ حال – لا تزال تتسكَّعُ فوقَ الغرب، وتؤثِّرُ في نظرته إلى العالم المسلم وكلّ ما يتعلق بالإسلام)[١١].

(*) هو جوتاما بوذا (٥٦٣-٤٨٣ ق. م) مؤسس ديانة أو فلسفة البوذية.

(**) الهندوسية ويطلق عليها أيضًا البراهمية هي الديانة السائدة في الهند ونيبال.

(***) الحمـلات الصليبية أو الحروب الصليبية اسـم يطلق على مجموعـة من الحملات والحروب التي قام بها أوروبيون ما بين القرن الحادي عشر إلى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (١٠٩٦-١٢٩١م).

قبل انهيار الاتحاد السوفيتي وخلالَ مائة سنة سابقة كانت الأقلياتُ الإسلامية في العالم الحرّ تتمتّعُ بالحرية، وبقدرٍ كبير من الأمان، وبنظرةٍ مطمئنة إلى المستقبل، ولم تكن المجتمعاتُ المضيفة تشعُر نحوَ هذه الأقليات بمشاعرِ القلق أو الخوف أو العدائية، ربما كانت تشعُرُ تجاهها بالتعالي الذي قد يُبرِّره الواقع، كما كانت الصورةُ النمَطية للمسلم في نظر الأوروبيّ والأمريكيّ غيرَ مشرقة، ربما بسبب الرواسب الثقافية التي كان يُغذِّيها الإعلام، على سبيل المثال: في الاستطلاع الذي أُجري عن هذه الصورة النمَطية في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٠م كانت نتيجةُ الاستطلاع أنّ مَن أجابوا عنه يَرَوْن أنَّ المسلم أو العربيّ بربريٌّ وقاسٍ ٤٤٪، خدّاعٌ ولا يوثَق به ٤٩٪، متعطِّشٌ للدم ٥٠٪، مضطهد للمرأة ٥١٪، مُعادٍ للمسيحية ٥٠٪[١].

وقبل ظهور كتابةِ هنتنجتون (صراع الحضارات) والجدلِ الذي أثارتْهُ هذه الكتابة كان الرئيسُ الأمريكيّ نيكسون بعد ترْكِه كرسيَّ الحكم زار الاتحادَ السوفييتي، حين كانت الشيوعيةُ لا تزال في عُنفُوانها، وظهر من تصريحاته محاولةُ إقناع أقطابِ الشيوعية بأنه يمكن التعايُش بين نظامَي الحضارة الغربية: الشيوعية(*) والرأسمالية(**)، وأنه يمكن تجاوُز ظروف العداء بينهما بناءً على حقيقة أنّ النظامين نِتاجُ حضارة واحدةٍ وثقافة واحدة، وأنّ العداء الحقيقيَّ بين الحضارة الغربية والإسلام، وكشفت تصريحاتٌ لمسؤولين في قسم الاستخبارات في حِلْف الأطلسي أنّ افتراضَ عداوةِ الإسلام كانت دائمًا عُنصرًا غيرَ غائبٍ في إستراتيجية الحلف[٢٩].

وفَوْرَ غيابِ «الشيوعية» عدوّ الرأسمالية «الأحمر»، رشَّح الغربُ «الإسلام» عدوًّا بديلًا وسماه «العدوَّ الأخضر»، (كان أولُ تصريح مُعلَن بذلك الترشيح قد صدر عن الأمين العامّ لحِلْفِ الأطلسي)، ومنذُ ذلك الوقتِ بدأتِ التهيئةُ لحربٍ باردةٍ بديلة، «الرأسماليةُ الغربية» في مواجهة «الإسلام»[٢].

(*) الشيوعية مصطلح يشير إلى مجموعة أفكار في التنظيم السياسي والمجتمعي مبنية على الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج في الاقتصاد، وقد نشأت بوصفها نظرية سياسية في نهايات القرن الثامن عشر ضمن الفكر الاشتراكي.

(**) الرأسمالية نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية تقوم على أساس تنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعًا في مفهوم الحرية.

وكان العداءُ للإسلام المحورَ الرئيس فيما أُدخل من تعديلاتٍ على المهامّ الأمنية لحلْف شمال الأطلسيّ منذ قِمّة بروكسل عام ١٩٩٣م، وجَرى تثبيتُه في قِمّة واشنطن عام ١٩٩٩م، ورافَق ذلك تعديلٌ كامل لصياغةِ المهامّ الأمنية على مستوى الجيوش الوطنية في الدُّوَل الأعضاء.

وجاء في مجلة ألمانية متخصصة في الدراسات الإستراتيجية:

«في الحقيقة، تبديلُ العدوِّ بعدو آخر فكرة تبلْوَرت في أشهُرٍ معدودة، إنّ الزحف العراقي على الكويت عجَّل في هذا الأمر، ولكنّ ذلك ليس هو السببَ الأصل، فمع سقوط الدول الشيوعية بدَأ حلْفُ الناتو(*) في البحث عن إستراتيجية جديدة المسار (الاتجاه)، كان هنري كيسنجر(**) خلالَ هذه الأزمة هو المتسلِّطَ الشرِس، فأعلن في الربيع (ربيع عام ١٩٩٠م) في مؤتمر غُرف التجارة الدَّوْلية: «أنّ الإسلام العربي هو العدوُّ الجديد أو العدوُّ القادم»!، البعضُ خفَّفَ اللّهجة لكنّ التوافُقَ على ذلك حاصل».

والجنرال جون كاليفان John Galvin الذي شَغل مَنصِبَ القائد الأعلى لقوات حلف الأطلسي NATO,s Supreme Allied Commander منذ يناير ١٩٨٧م حتى يونيو ١٩٩٢م جاء في بعض تصريحاتٍ له عن الآفاق المستقبلية للحلف: «لقد رَبحنا الحربَ الباردة، وها نحنُ نعود إلى الصِّراع القديم، إنه صراع المجابهة الكبيرة مع الإسلام».

ونقل الدكتور محمد السماك: «أنه في منتدى الشؤون الأمنية الدَّوْلية في ميونخ عام ١٩٩١م رَفَع ديك تشيني(***) وزيرُ الحرب الأمريكيّ في عهد بوش الأب شعار «الإسلامُ العدوُّ البديل».

(*) هو منظمة حلف شمال الأطلسي، وهو منظمة أُسست عام ١٩٤٩م بناء على معاهدة شمال الأطلسي التي تم التوقيع عليها في واشنطن في ٤ إبريل سنة ١٩٤٩م، ومقر قيادة الحلف في بروكسيل عاصمة بلجيكا.

(**) هو هنري ألفريد كيسنجر (١٩٢٧-) باحث سياسي أمريكي الجنسية وألماني النشأة ويهودي الديانة.

(***) هو ريتشارد بروس تشيني المعروف بديك تشيني (١٩٤١-) سياسي أمريكي ونائب الرئيس الأمريكي من ٢٠ يناير ٢٠٠١ إلى ٢٠ يناير ٢٠٠٩م في حكم الرئيس جورج بوش.

وأنـه في عـام ١٩٩٣م دعـا رئيسُ مجلِس النـواب الأمريكـيّ آن ذاك نيوت جينجريتش(*) المجلسَ إلى وضع إستراتيجية كاملة لمحاربة «التوليتارية الإسلامية».

وبدَأ إعـلانُ هذه الحرب (الحرب الأيديولوجية) التي سُـمّيت فيما بعدُ (الحرب على الإرهاب)، وظهرت في صـورتها الباردة والساخنة بتصريحاتٍ واضحةٍ لا تَحتمل التأويلَ مِن قِبَلِ عَددٍ من السياسـيين، والعسكريين، ورجال الفِكْر الغربيين، وبعضِ اللِّجان الرسميّة.

ومن البداية تم الربط بين الإسلام والإرهاب، ثم ذلك على أصعدة مختلفة مدعومة بزخم إعلامي هائل.

ومما يُعضّد ما ذُكر الاقتباساتُ الصريحة الآتية:

«أَكّدت لجنةُ الحادي عشر من سبتمبر أنّ مصطلَح (الحرب على الإرهاب) مصطلحٌ مضلِّل، وأوصَتْ بإعادةِ تسميته ليحويَ تأكيدًا أيديولوجيا أكبر ضدّ الإسلام».

The September 11 Commission stressed that the term war on terrorism was misleading and recommended that it should be renamed to place greater ideological emphasis against Islam.

وقـال الجنرال ويسـلي كلارك: إنّ حرب الولايات المتحدة ضـدّ الإرهاب كانت «حربًا على الإسلام».

General Wesley Clark said that the US war against terrorism «was a war over Islam»(٤٣).

وبرَزَ من وقتٍ مبكّرٍ من مظاهر هذه الحربِ قرنُ الإسلام بـ«الأصولية» و«العنف»؛ ففي النصـف الأوّل من العَقْدِ الأخير للقرن المنصـرم كانت أوروبا كلُّها تشاهدُ فيلم «الإرهاب في سبيل الله»، وكانت أمريكا تشاهدُ الفيلم الوثائقي «الجهاد في أمريكا»(٢).

(*) هـو نيـوت جينجريتـش (١٩٤٣-) سـياسي ومؤلف ومعلم تاريخ أمريكي، وشـغل منصب رئيس مجلس النواب الـ ٥٨ لمجلس النواب الأمريكي (١٩٩٥-١٩٩٩م).

بَعد هـذا كلِّه غريبٌ أن يظَلَّ كثـيرون من بيننا يردِّدُون ببلاهةٍ مصـطلح «الحرب العالمية ضـدَّ الإرهاب» أو «الحرب ضدّ الإرهاب العالميّ»!، وهو اصطلاحٌ يعني الربطَ بين الإسلام والإرهاب[٤٣].

* * * * * *

مـن المحتمـل في الغالب أنّ الحجّة التي يُسـتنَد إليها في الإلحـاح على الأقليات المسـلمة في أوروبا وأمريكا الشـمالية بالتخلِّي عن خصائصِهم الثقافية، وعلى العمل علـى اندماجِهم في المجتمع، والأخذِ بطريقة الحياة الأوروبية أو الأمريكية، هذه الحجّةُ مجرَّدُ تبريرٍ سياسـيّ يُسـتعمَل لإخفاءِ التناقضـ بين قِيَم الحرية والمسـاواة وحقوق الإنسـان وبيْنَ ما يُتّخَذ من إجراءاتٍ قانونية أو بوليسية ضدَّ الأقليات المسلمة، ويُؤيِّد هذا الاحتمالَ أنّ التناقُضَ بين التصوُّر الإسلاميّ للكون والحياة والتصوُّرِ الغربيّ ربما لا يَفُوق التناقُضَ فيما يتعلَّقُ بهذا التصوُّر بين الأيدولوجية الاشتراكية والأيدولوجية الرأسمالية، أو بين الأصولية الأمريكية والليبرالية الأمريكية، أو التناقُضَ بين اليهودية والمسـيحية!، ومع ذلـك أمكن – فـي الغـرب – التعايـشُ بـين هـذه الثقافـات المختلفـة، أما فيما يتعلَّقُ بالإسلام فالأمرُ مختلف[٩].

قال الأسـتاذ لوبون في كتاب «حضـارة العرب» عندما كان يناقش تأثيرَ الحضارة الإسـلامية على الحضـارة الأوروبية قال: (وقد يَسـأل القارئ: لمَ يُنكِر تأثيرَ العَرَبِ علماءُ الوقت الحاضـر الذين يُقيمون مبدأَ حرية الفكرِ فوقَ كلِّ اعتبارٍ دينيّ؟ لا أرَى غيرَ جواب واحد عن هذا السـؤال الذي أسـألُ أنا نفسي به أيضًا، وهو أنّ استقلالنا الفكريَّ لم يكن في غيرِ الظواهر في الحقيقة، وأننا لسـنا أحرارًا في بعض الموضـوعات كما نريد؛ فالمرءُ عندنا ذو شخصـيتين: الشخصـيةِ العصـرية التي كوَّنتها الدراساتُ الخاصـة والبيئـة الخلقية والثقافية، والشخصـيةِ القديمة غيرِ الشـاعرة التي جمَدتْ، وتحجَّرتْ بفعل الأجداد، وكانت خُلاصةَ ماضٍ طويل.

والشخصيةُ غيرُ الشاعرة وحدَها فقط هي التي تتكلَّمُ عند أكثر الناس، وتُمسك فيهم المعتقداتِ نفسَها مُسمّاةً بأسماءٍ مختلفة، وتملي عليهم آراءَهم، فيلوحُ ما تملي عليهم من الآراء حُرًّا في الظاهر، فيحترم.

تراكمَتْ كثيرٌ من آرائنا المبتَسرة الموروثة ضدّ الإسلام والمسلمين في قرونٍ كثيرة، وصارت جزءًا من مِزاجنا، وأضحت طبيعةً متأصِّلة فينا تأصُّلَ حقدِ اليهود على النصارى الخفيّ أحيانًا والعميق دائمًا)[١١].

وقال محمد أسد: (ترى التفكيرَ الأوروبي الحديث بينما هو يتسامحُ بالدين - وأحيانًا يؤكِّدُ أنه عُرْف اجتماعيّ - يترك على العموم الأخلاقَ المطلقة خارِجَ نطاق الاعتبارات العملية، إنّ المدنية الغربية لا تجحَدُ الله البتة، ولكنها لا ترى مَجالًا ولا فائدةً لله في نطاقها الفكريّ الحالي، لقد اصطنعتْ فضيلة العجز الفكريّ في الإنسان - أي من عجْزِه عن الإحاطة بمجموع الحياة - وهكذا يميل الأوروبي الحديثُ إلى أن يَنسُب الأهميةَ العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية، أو تلك التي يَنتظِر منها على الأقلّ أن تؤثِّر في صِلات الإنسان الاجتماعية بطريقةٍ ملموسة، وبما أن قضية وجودِ الله لا تقع تحت هذا الوجهِ ولا ذاك فإنّ العقل الأوروبي يميلُ بَداءةً إلى إسقاط «الله» من دائرة الاعتبارات العملية)[٩].

سواءٌ في الغرب أو في داخلِ العالم الإسلامي إذا كانت العلمانيةُ لا تستطيع أن تستجيب لحاجات الروح، وسوف يَبقى الإنسانُ دائمًا على شعورٍ بالحاجة الملحّة للإشباع الروحي، وكانت لذلك لا تستطيعُ منافسة ومغالبةَ الإسلام الذي يستجيب لحاجات الروح، وفي الوقت نفسِه يستجيب لحاجات الجسد، فهل تستطيعُ الأديانُ الموجودة في العصر الحاضر منافسةَ أو مغالبةَ الإسلام؟[٣٩].

يقول محمد أسد: «الإنسانُ الغربي أسلمَ نفسَه لعبادة المادة، لقد فَقَدَ منذ وقتٍ طويل براءتَه، فَقَدَ كلَّ تماسُكٍ داخليّ مع الطبيعة، لقد أصبحت الحياةُ في نظره لُغزًا، إنه مرتابٌ شكوك، لذلك فهو منفصلٌ عن أخيه الإنسان، منفردٌ بنفسه، ولكي لا

يَهلِـكَ في وَحْدتِه وفرديّته هذه فإنّ عليه أن يُسـيطر على الحياة بالوسـائل الخارجية، وحقيقـةُ كونِه على قيد الحياة لم تَعُد وحدَها قادرةً على أن تُشـعِرَه بالأمن الداخليّ، ولذا فإنّ عليه أن يكافحَ دائمًا وبألم في سـبيل هذا الأمن، وبسـبب أنه قرّر الاستغناءَ عن كلِّ توجيهٍ دينيّ فإنّ عليه أن يخترِعَ لنفسـه وباسـتمرارٍ حلفاءَ ميكانيكيين، من هنا نما عنده الميلُ المحموم إلى التقنيةِ والتمكُّنِ من قوانينها ووسـائلِها، إنه يخترِعُ كلَّ يـوم آلاتٍ جديدة، ويعطي كلًّا منها بعضَ روحه لكي تُدافع عنه في سـبيل وجودِه، وهي تفعلُ ذلك حقًّا، ولكنّها في الوقت نفسـه تخلُـق له حاجاتٍ جديدة، ومخاوفَ جديدة، وظمأً لا يَروَى إلى حلفاءَ جُددٍ أكثرَ اصـطناعية، وتَضـيعُ روحُه في ضوضـاءِ الآلة الخانقة، التي تَزدادُ مع الأيام قوّةً وغرابة، وتَفقِدُ الآلةُ غرَضَـها الأصـليّ، وهو أن تَصُـون وتُغني الحياةَ الإنسـانية، وتتطوَّرُ إلى صنمٍ بذاته، صـنمٍ من فُولاذ، ويبدو أنّ كهنةَ هذا المعبود ومبشِّـريه غيرُ مدرِكين أنّ سـرعةَ التقدم التقنيّ الحديث هي نتيجةٌ ليس لنمُوِّ المعرفةِ الإيجابيّ فحسبُ بل لليأس الرُّوحيّ أيضًا، وأنّ الانتصاراتِ الماديةَ العظمى التي يُعلن الإنسـان الغربيُّ أنّه بها يَسـتحقُّ السيادةَ على الطبيعة هي – في صـميمها – ذاتُ صـفةٍ دفاعية، فخَلْفَ واجِهَتِها البراقةِ يكمُن الخوفُ من الغيب، إنّ الحضارةَ الغربية لا تسـتطيعُ حتى الآن أن تُقيم توازُنًا بين حاجاتِ الإنسان الجسمية والاجتماعيـة وبين أشـواقِه الروحية، لقد تخلَّتْ عن آداب دياناتها السـابقة دون أن تتمكَّن أن تُخرِجَ من نفسـها أيَّ نظامٍ أخلاقيّ آخر – مهْما كان نظريًّا – يُخضِـع نفسَهُ للعقـل، بالرغم من كلِّ ما حقَّقتْهُ من تقدُّم ثقافيّ فإنها لم تسـتطع حتى الآن التغلُّبَ على استعداد الإنسان الأحمقِ للسقوط فريسةً لأيِّ هُتافٍ عِدائيّ أو نِداءٍ للحرب – مهْما كان سخيفًا ظاهرَ البطلان – يخترِعُه الحاذقون من الزُّعماء.

الأممُ الغربية وصـلتْ إلى درجةٍ أصبحت معها الإمكانياتُ العلميةُ غيرُ المحدودة تُصـاحِب الفوضـى العملية، وإذا كان الغربيُّ يفتقر إلى توجيـهٍ دينيٍّ حكيم فإنه لا يستطيعُ أن يُفيد أخلاقيًّا من ضياءِ المعرفة الذي تسكُبُه علومُه، وهي لا شك عظيمة.

إن الغربيِّين - في عجرَفةٍ وعمى - يعتقدون عن اقتناعٍ أنّ حضارتهم هي التي ستغيِّرُ العالم، وتحقِّق السعادة، وأنّ كلّ المشكلات البشرية يمكِنُ حلُّها في المصانع والمعامل، وعلى مكاتبِ المحلِّلين الاقتصاديين والإحصائيين، إنهم بحقٍّ يعبدون الدجّال)[٩].

ونُقَط الضعف في ديانتي الغرب - اليهودية والنصرانية - هي العاملُ الرئيس في انتشار الإلحاد في الغرب في القرون الأخيرة؛ حيثُ يعجز الإنسان عن الإيمان بدينٍ لا يكون لديه اليقينُ بأن مؤسِّسه - حسَب تعبيرهم - شخصيةٌ تاريخية، ويَعرِفُ أنّ كتابه «المقدس» من كتابة البشر، وواجه التغييرَ عدَّة مرات، وأنّ هذا الكتاب «المقدس» الذي يُصِرُّ المتديِّنون به على أنه «كلمة الله» يتضمَّن بتفسير الخلق وتصوُّرِ الوجود الأوهامَ السائدة التي كان يَعتقدها الناس في الماضي، وثبَتَ بطلانُها[٣٩].

في عدد ديسمبر ٢٠٠١م نشرت مجلة ناشونال جوغرافيك(*) مقالًا عن إبراهيم الخليل، وفي هذا المقال ذكر محرِّرُه أنه سأل الحاخام اليهوديَّ حاييم فرومان(**): هل تعتقد أنّ إبراهيم شخصيةٌ تاريخية؟ أي إن إبراهيم العهد القديم وُجد فعلًا؟ لم يُجِب الحاخام بنعَم؛ لأنه لا يُوجَد لديه أدلةٌ تاريخية تكفي لاقتناعِه عقليًّا بوجود إبراهيم تاريخيًّا، فأجاب: «أنا لا يُهِمّني أن يكون إبراهيمُ وُجد في التاريخ أم لم يوجد؛ لأنّ إبراهيم بالنسبة لي ليس لحمًا ودمًا، إبراهيمُ بالنسبة لي فكرٌ وفلسفة».

وقبل ثلاثين سنة كتَب المؤلف الإنجليزي (ويلز) كتابًا بعنوان ؟ Did Jesus Exist تضمَّن هذا الكتابُ أنه في الثلاثين سنة السابقة لتأليفه يتزايد رجالُ اللاهوت الذين يَعترفون أنه لا يمكن كتابةُ ترجمةٍ لعيسى عليه السلام؛ ذلك أنّ أناجيلَ العهد الجديد

(*) مجلة معرفية أمريكية تصدرها منظمة ناشونال جرافيك الأمريكية باللغة الإنجليزية منذ بدأت أنشطتها عام ١٨٨٨م شهريًّا، وتصدر الآن باثنتين وثلاثين لغة عالمية.

(**) من مواليد الجليل (١٩٤٥-) حاخام إسرائيلي أرثوذكسي ومفاوض.

كُتبت بأقلام أشخاصٍ مجهولين تاريخيًّا، ولم يكونوا معاصِرين للمسيح عيسى ابن مريم، ولم تُكتَب الكتب بلغة المسيح، بل لا يُوجَد اتفاقٌ على لغة المسيح نفسِها، وقبل هذه الكتب لا توجَد وثائقُ كافيةٌ للإقناع تاريخيًّا بأنه وُجد فعلًا بَلْهَ أن تُوجَد له ترجمة تاريخية(٤٤).

ومعرفةُ المسلم لنبيّه ﷺ حتى بعد مُضِيّ أربعةَ عشَرَ قرْنًا على موته معرفةً شخصية كافيةً لأن يحكُمَ بمدى صدقِه وأمانته، وموثوقيةِ المصدر الدينيّ الذي جاء به، وقال عنه: إنه كلمةُ الله، وصِحّةِ هذا المصدر، وتَعصّيه على أيِّ نقد يُعارِضُ هذه الحقائق، وشمولِ الدين للحياة في تكامُل وتناسق، كلُّ هذه الأمورِ فروقٌ يَنفرِد بها الإسلامُ عن الأديان الأخرى.

وبما أنّ الطبيعة لا تَقبَلُ وجودَ الفراغ فإنّ المفكرين - تطلُّبًا لتفسيرٍ معقول للوُجود والحياة، بعْدَ أن رَفضُوا تفسيراتِ الكتاب المقدس - قدَّمُوا نظرياتٍ كانت تبدو وقتَ وجودِها قويةً، حتى صُوِّرت في بعض الأحيان على أنها حقائق، وترجِعُ قوتُها في الحقيقة إلى كونها مَلأتْ فراغًا يتطلَّبُ الملْء، مثل النظرية الفرويدية(*)، والنظرية الداروينية(**)، والمشكلةُ التي تُواجِه هذه النظرياتِ دائمًا، وتَستعصِي على الحلِّ هو اصطدامُها برَدْم ذي القرنين(***)، أقصِدُ استحالةَ إنكارِ القصد الذي يَظهَرُ دائمًا في خلْق الحيوان ومنه الإنسان، ولكنْ ظلَّت هذه النظرياتُ تُغذِّي الإلحادَ بالرغم من تهافُتِها مع الزمَن بالنظر إلى إعادة التفكيرِ والتقييم.

(*) مدرسة في التحليل النفسي أسسها اليهودي سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م) وهي تفسر السلوك الإنساني تفسيرًا جنسيًّا، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء.

(**) الداروينية مصطلح يطلق على مجموعة حركات ومفاهيم فلسفية واجتماعية مستمدة من أفكار عالم البيولوجيا تشارلز داروين (١٨٠٩-١٨٨٢م) ومن أهم هذه الأفكار ما يتعلق بالتطور والاصطفاء الطبيعي.

(***) ذو القرنين شخص ورد ذكره في القرآن الكريم بوصفه ملكًا عادلًا، وقد بنى سدًّا أو ردمًا يدفع به أذى يأجوج ومأجوج عن أحد الأقوام.

أمّا بالنسبة لعالم الإسلام فإنّ الملحدين من المنتسبين إليه – وقد بَرِئ من نُقط الضعفِ المشارِ إليها – ليس لديهم ما يُوجِب ذلك من التفكير العقلانيّ والواقعيّ سوى تقليدِهم للملحدين في الغرب[٣٩].

* * * * * *

يقول محمد أسد: (إنّ للنصرانية اليوم في نظر السواد الأعظم مَعنًى شكليًّا فقط، كما كانت حالةُ الآلهة الرومانية، تلك الآلهةُ التي لم يكن يُسمَحُ لها، ولا يُنتظَرُ منها أن يكون لها نفوذٌ حقيقيّ على المجتمع، لا ريْبَ أنه لا يزال في الغرب أفرادٌ عديدون يَشعُرون ويفكِّرُون على أسلوب دينيّ، ويَبذُلون جُهْدَ القانط حتى يُوفِّقوا بين معتقداتهم وبين رُوح حضارتهم، ولكنَّ هؤلاء شواذٌّ فقط، إنّ الأوروبي العاديّ يعرِف دينًا إيجابيًّا واحدًا هو التعبّدُ للرقيّ الماديّ، أي الاعتقادُ بأنْ ليس في الحياة هدفٌ آخَرُ سوى جعلِ هذه الحياةِ نفسِها أيسَرَ فأيسر، أو – كما يقول التعبيرُ الدارج – (طليقةً من ظلم الطبيعة)، إنّ هياكلَ هذه الديانة إنما هي المصانعُ العظيمة، ودُورُ السينما، والمختبَراتُ الكيماوية، وباحاتُ الرقْص، وأماكنُ توليد الكهرباء، أمّا كهنة هذه الديانة فهم الصيارِفة، والمهندسون، وكواكبُ السينما، وقادةُ الصناعة، وأبطالُ الطيران، وإنّ النتيجة التي لا مَفرَّ منها في هذه الحال هي الكدحُ لبلوغ القوة والمسرّة، وذلك يخلُقُ جماعاتٍ متخاصمةً مدجَّجةً بالسلاح ومصمِّمةً على أن يُفنِيَ بعضُها بعضًا حينما تتصادمُ مصالحُها المتقابلة، أمّا على الجانب الثقافيّ فنتيجةُ ذلك خَلْق نوعٍ بشريٍّ تنحصرُ فلسفتُه الأخلاقية في مسائلِ الفائدة العملية، ويكونُ أسمى فارقٍ لديه بين الخيرِ والشر إنما هو التقدُّمُ الماديّ، إننا نجدُ في التبدُّلِ الأساسيّ الذي تَخضعُ له الحياةُ الاجتماعية في الغرب الآنَ تلك الفلسفةَ الأخلاقية المبنيّةَ على الانتفاعِ تبرُز للعِيان شيئًا فشيئًا، وكلَّ الفضائل التي تتعلَّقُ مباشرةً برفاهِيَةِ المجتمع المادِّيّة – كالمقدرة الفنية (التكنولوجية)، والوطنية، والشعورُ القوميّ – هي اليومَ موضعَ المديح، ورَفْعَ

قيمتِها فوق ما هو معقول، بينما الفضـائلُ التي ظلَّتْ تُعتَبرُ إلى اليوم من جهة قيمتِها الخُلقية الخالصـة كالحبّ الأَبوي، والعفاف تخسَـرُ من قيمتها بسُـرعة؛ لأنها لا تهَبُ للمجتمع فائدةً مادّيّة محسوسة).

في خـلالِ ثمانين عامًا - وتحـتَ وطأةِ التأثـير الطاغي للثقافـة الغربية على حياة المسـلمين وعلى تصـوُّرهم عن الحياة - ظهرت دلائلُ على ما توقَّعه محمد أسـد من تهديدٍ لهذا التصوُّر في حياة وفكرِ المسلم، حينما قال: (لا يُوجَد في العالم بأجمعِه ما يَبعثُ في نفسـي تلك الراحةَ التي شَـعَرتُ بها (بينَ المسلمين)، والتي أصبحتْ غيرَ موجودةٍ في الغرب، وتُهدَّدُ الآنَ بالضياع والاختفاءِ من الشرق)[٩].

وقد فطِن المفكرُون في الإصـلاح حتى في المجتمعات غيرِ المسـلمة إلى أنّ التقدُّمَ المـدنيّ والتكنولوجي لا يُمكِنُ أن يكون بديلًا عـن التقدُّم الروحيّ والخلقي، وربما لا نجدُ أبلغَ من ملاحظةِ الزعيم الروسـيّ جورباتشوف(*)، الذي كتب في (برسترويكا): (يمكِنُ لصـواريخنا أن تصِـل إلى مذنَّبِ هالي، وتَطيرَ إلى الزُّهَرة بدِقّةٍ متناهية، ولكنْ إلى جانب هذه الانتصـارات العلمية والتكنولوجية نجدُ نقصًـا واضـحًا في استخدام المنجزات العلمية، ولسـوء الحظّ فليس هذا كلَّ ما في الأمر؛ فقد بدأ تدهْوُرٌ تدريجيّ في القيم الأيدلوجية والمعنوية، وبدأ الفساد يسرِى في الأخلاقيات العامة، وزاد إدمانُ الخمور والمخدرات والجرائم. مُهِمّتُنا الرئيسة اليومَ هي أن نَرفع من روح الفرد، ونحتَرِم عالَمَـهُ الداخلـيّ، ونُعطيَهُ قـوّةً معنوية، ونحن نَسـعى لأن نجعل كلَّ قُـدرات المجتمع الفكريـة وكلَّ إمكانياته الثقافية تَعمَلُ من أجلِ تشـكيل شـخصٍ نشِـطٍ اجتماعيًّا، وغَنِيٍّ روحيًّا، ومستقيمٍ، وحَيِّ الضمير).

(*) ميخائيل جوربا تشـوف (١٩٣١-) شـغل منصب رئيس الدولة في الاتحاد السـوفيتي السـابق عامي ١٩٨٨ و١٩٩١م ورئيس الحزب الشـيوعي السـوفيتي بين عامـي ١٩٨٥ و١٩٩١م، وكان يدعو إلى إعادة البناء أو البروسترويكا.

ومثـلُ ذلك ملاحظةُ الزعيم الأمريكي ريتشـارد نكسـون(*) الذي كتب في آخِرِ كُتبـه قبل وفاته بعنوان: (ما بعد السـلام Beyond Peace): (الإسـلام الأصـوليَّ عقيدةٌ قوية؛ لأنه يَستجيب لحاجات الروح، والعلمانيةُ في الغرب لا تستطيع أن تُغالِبَه، وكذلك العلمانيةُ في العالم الإسلاميّ، إنّ حقيقة أننا أغنى وأقوَى دولةٍ في التاريخ لا تكفي، العاملُ الحاسم هو قوّةُ الأفكار العظيمة).

أو ملاحظـةُ السياسـيّ الأمريكيّ جون فوسـتر دالاسـ(**): (إنّ الأمر لا يتعلّقُ بالماديّـات؛ فنحـن نمتلك أكبرَ إنتاجٍ عالميّ في الماديات، ولكننـا بحاجةٍ إلى إيمانٍ قويٍّ وصلب وفاعِل، ومن دون هذا الإيمان سيكونُ كلُّ ما نملك قليلًا)[١٧].

وإنّ الحضارة الغربية بامتلاكها للتقنية العالية ومُنتَجاتها من مَظاهرِ القوة، والمستوى الخُلُقيّ الاجتماعيّ الذي تتمَتّعُ به المجتمعاتُ الغربية، ومظاهرِ ذلك من احترامِ حرّية الإنسانِ وكرامتِه، وتسليمٍ للروح الديمقراطيّ، والمساواةِ أمامَ القانون، وضماناتِ العدالة لأفرادِ المجتمع، ولا سـيَّما مع موازنةِ ذلك بالتخلُّفِ الذي يُشـكِّل الصـفةَ السـائدةَ لبُلدان العالم الإسـلاميّ، وبالمسـتوى الخُلُقيّ الهابطِ في مجتمعاته؛ حيثُ يسودُ في كثـيرٍ من الحالات القهرُ والتسـلُّط، وانتهاكُ حقوق الإنسـان، كلُّ ذلك - مع الجهلِ بالإسلام وتشوُّهِ صورتِهِ بالبدَعِ والخُرافات والتفسيرات الخاطئة التي لحقَتْ به على مرِّ العصـور - أَوجَد شُعورًا بالنقص بين المسلمين تُجاهَ الغرب والحضارة الغربية، وتعرَّضَ المسلمون بذلك لفتنةٍ ربما لم يتعرَّضُوا لمثلِها في تاريخ الإسلام كلِّه[٦].

* * * * * *

(*) هو ريتشـارد ميلهاوس نيكسـون (١٩١٣-١٩٩٤م) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع والثلاثين (١٩٦٩-١٩٧٤م) ونائب الرئيس الأمريكي السادس والثلاثون (١٩٥٣-١٩٦١م).

(**) جـون فوسـتر دالاس (١٨٨٨-١٩٥٩م) وزير الخارجية في عهد الرئيـس دوايت إيزنهاور ١٩٥٣ حتى ١٩٥٩م، وقد كان شخصية مهمة في أوائل الحرب الباردة.

دأبَتِ الولاياتُ المتحدة الأمريكية على إصدارِ تقريرٍ سنويّ بعنوان (الحرية الدينية في العالم)، ويحاكم هذا التقريرُ دُولَ العالم في حمايتها أو انتهاكها للحرية الدينية[٣٧](*).

فلا بد من أن تركِّز الدعوةُ الإسلامية على تحريرِ المسلم من الدَّجَل والزيف، والانخداعِ بدعوى الحضارةِ الغربية لنفسها أنّها مقياسُ القِيَم، وميزانُ الحق والباطل، والنافع والضار.

ودأَبَ الغربيون على تعييرِ المسلمين بإيمانِهم بالقضاءِ والقدر والتوكُّل على الله، وحمَّلُوا هذا الإيمانَ مسؤوليّةَ تأخُّرِ المسلمين المعاصرين وتخلُّفِهم، وصدَّقَ مخدوعون من المسلمين هذا الاتهام، واندفعوا لدفعِه بأساليبَ اعتذارية، أو بتغييرِ الحقيقة، مع أنّ قضيةَ الإيمان بالقدر، والتوكُّل على الله من أبرَزِ ما يميِّزُ بين المسلم والكافر[٦].

إنّ الرق الثقافيَّ المتجذرَ أثرُهُ في أفكار ومشاعر المثقفين المسلمين – هذا الأثرُ الظاهر في الثقةِ المبالَغ فيها بتصوُّرات الثقافة الغربية وضعْفِ الثقة في تصوُّر ثقافتِهم الأصلية – هو العاملُ الرئيس لعمَى هؤلاء المثقفين عن مقتضَيات التفكيرِ العقلانيّ وعن إدراكِ حقائق الواقع[٣٧].

وبعد: فهل بَقيَ لدى القارئ لبسٌ في تفسيرِ قبول الغرب للتناقُض الصارخِ بين انتهاكِه حريةَ المسلم سُلُوكًا وعبادةً، وانتهاكِ حقِّه بصفته إنسانًا وبَيْنَ ضوضائِه المرتفعةِ الضجيج في التمدُّح باحترامِ حرية الإنسان وحقوقِه، والتعالي على الآخَرين الذين يدَّعي انتهاكَهُم لحرية الإنسان وحقوقه؟![٢].

(*) وما هذا التقريرُ إلا ضَربٌ من استرقاقِ الناس أو إلا فبأيِّ حقّ تحُاكَم الدّولُ والمجتمعاتُ على معاييَر يضَعُها الغرب بغيرِ تفويضٍ من أحد فضلًا على رضاه، والتفكيرُ العقلانيُّ يَحكُم بوجودِ التناقض الظاهر في شأن الحريّة الدينية في فِكْر الولايات المتحدة الأمريكية وتصرُّفاتها.

obeikandl.com

١ - الدعوة إلى الله:

تنشأ الدولُ، وتبقَى على أساسَيْن: القوّةِ المعنوية، والقوّةِ المادية، ويُقصَدُ بالقوّةِ المعنويةِ نسيجُ الأفكار والتصوُّراتِ العَقديّة التي تُشكِّلُ الباعثَ على مجموعةِ الأنشطة التي أسهمَتْ في إنشاءِ الدولة، والتي عُدَّتْ مُسوِّغَ وُجودِها، ويُمكِنُ تصوُّرُ بقاءِ الدولة مع ضَعْفِ أَسنادِها الماديّة واختلالِها - إذا لم يُوجد تَحدٍّ خارجيٌّ مُضادٌّ - ولكنّ فَقْدَها لقوَّتِها المعنوية يَعني انتهاءَ مُسوِّغِ وُجودِها لهُويّتها، وأيُّ غفلةٍ عن مقوِّمات الهُوية للدولة أو إخلالٍ بها أو تهاوُنٍ في المحافظةِ عليها هو عاملُ هدْمٍ يتحقَّقُ أثرُه بقدْرِ حجْمِه[٦].

اتّخَذ الاستعمارُ في سعيه لإضعاف القوّة المعنوية للعالم الإسلامي نشْرَ فوضى فكرية للتشويش على التصوُّرات والقيم الإسلامية، وتشجيعِ الدعوة الدينية المضادة (التنصير)، فكان من الملاحَظ أنّ الفرنسيين الذين يُعارِضون اليسوعيِّين في فرنسا يُشجِّعون نشاطَهُم في بلدانِ العالم الإسلاميِّ الواقعةِ تحت سلطانهم، وكان من الملاحَظ أنّ سِفاراتِ البلدان الغربية - المتنافسةِ والمتضادّةِ المصالح - تجتمعُ على تشجيع وسائل الغزْو الفكريّ.

ومن الحقائق أنّ التخطيط الغربيَّ الذي كانت إجراءاتُه تنشَطُ على قَدمٍ وساقٍ لتنصيرِ مجتمعاتٍ إسلامية مُعيَّنة قد واجَه مُعوِّقًا جِدِّيًّا لانتشار التنصيرِ من قِبَلِ بعضِ المؤسَّسات الخيرية الخليجية، فكان من الطبيعيِّ أن تتصدَّى القُوَى الإمبريالية لإضعافِ هذا المعوِّق أو إزالتِه.

أليس من حقِّنا عند تقييم الحرْبِ الدعائية الغربية ضدَّ البذل التطوُّعيّ الإسلاميّ أن نصِفَه بأنه: ليس مجرّدَ انتهاكٍ لحريةٍ شخصية للإنسان بل انتهاكٌ لحقٍّ من حقوقه الأساسية، ولحريته في العبادة[٢].

* * * * * *

قال محمد أسـد في مقدمة كتابه (الإسـلام على مُفـترَق الطرق Islam At The Crossroads) ما يأتي:

(هذا السـؤالُ يُلقَى عليَّ مرةً بعد مرة: لماذا اعتنقتَ الإسلام؟ وما الذي جذَبك منه خاصة؟ وهنا يجبُ أن أعترِف بأني لا أعرِفُ جوابًا شافيًا، لم يكن الذي جذَبَني تعليمًا خاصًّا من التعاليم، بل ذلك المجموعَ المتراصَّ - بما لا نستطيعُ له تفسيرًا - من تلك التعاليمِ الأخلاقية، بالإضـافة إلى منهاج الحياة العملية، ولا أسـتطيعُ اليومَ أن أقول أيُّ النواحي قد اسـتهوتني أكثرَ من غيرها؛ فإنّ الإسـلام على ما يبدو لي بناءٌ تامُّ الصَّـنعة، وكلُّ أجزائه قد صيغتْ ليُتمِّم بعضُها بعضًا، ويَشُدَّ بعضُها بعضًا، فليس هناك شيءٌ لا حاجة إليه، وليس هناك نقصٌ في شيء، نَتَجَ من ذلك كلِّه ائتلافٌ متَّزِنٌ مرصـوص، ولعلَّ الشـعور بأنّ جميع ما في الإسـلام من تعاليمَ وفرائضَ قد وُضِعتْ موضِعَها هو الذي كان له أقوى الأثرِ في نفسي).

وفي فصـل (روح السنة) من الكتاب نفسـه: (نحنُ نعُدُّ الإسلامَ أسمى من سائرِ النظُم الحديثة؛ لأنه يشمل الحياةَ بأَسْرها، إنه يهتمُّ بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع، إنه لا يهتمُّ فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وجوهِ الإمكان بل يهتمُّ أيضًا لما فيها من قيودٍ طبيعية).

النصـوصُ المقتبَسـة من محمد أسد توضِّـحُ مِفتاحَ فلسفةِ التشـريع الإسلاميّ، وهو الانسـجامُ مع القوانين الطبيعية، والانسجامُ بين مكوِّنات التشريع، والإفادةُ إلى الحدِّ الأقصى من تسـخيرِ الله القوانينَ الطبيعية وفطرةِ الإنسان التي فطرَهُ الله عليها، وتفـادِي التمرُّدِ عليها أو محاولـةِ إلغائها؛ لأنّ عاقبة ذلك هزيمةُ الإنسـان أمامَها كما كشَفتْ وتكشِفُ عن ذلك تجارِبُ الإنسان[٣٩].

وللإسـلام قـوةٌ ذاتية، بما أنه دين الحقّ، وأنّ الإنسـان مفطورٌ على تفضـيل الحقّ على الباطل إذا تبيَّن له كلاهما، وآيةُ ذلك ما هو معروف بأنّ الإسلام في هذا العصر

أكـثرُ الأديان انتشـارًا في أوروبا وأمريكا، وهو يكسِـبُ كلَّ يوم قمّةً مـن قِمَم الفكر والعلـم، وذلك كلُّه بالرغم من العوائق الجدِّيّة لوصـول الإسـلام علـى حقيقتِهِ إلى عقول الناس، وبالرغم من قصور وسائلِ الدعوة وضعفِ الدعاة إلى الإسلام[٦].

* * * * * *

إنّ الشـعور التاريخيّ والثقافيّ بالبغضـاء والعِداء للإسـلام لدى شعوب الغرب ثـم سـيطرةَ اليهـود ونفوذَهُم ماديًّا وفكريًّا في العصـر الحاضـر على مسـتوى العالم ومعرفةَ اليهود أنّ الخطرَ الحقيقيّ على دولتهم في فلسـطين إنما يأتي من الإسـلام كلُّ ذلك أوجد حالةَ الحرب المكشـوفة، بالتصـريحات المعلَنة للقادة، أو بتدخُّلِهم في سير الأحداث السياسية أو المستترة.

وانتهجت أغلبُ بلدان العالم الإسـلامي من الناحية السياسـية النهْجَ العِلمانيّ تقليدًا للغرب، ولكنْ في ظروفٍ وضـمْنَ شروطٍ تختلف عن النهجِ العِلمانيّ الغربيّ، فمِـن ناحيةٍ أخـذت الحكوماتُ بهذا النهج علـى وجه الغلوِّ والتطـرُّف والتحرُّر من القِيم الحضـارية والأخلاقية الغربيـة، ومن ناحيةٍ أُخرى وُوجِه هـذا النهجُ في العالم الإسـلاميّ وعلى خلاف عالم الغرب، وُوجِه بصعوبةِ التعايش أو استحالتِهِ بينه وبين الإسـلام؛ لكون أنّ الإسلام – على خلاف المسيحية مثلًا – منهَجٌ شامل للحياة في كلّ مجالاتها، لا يَستثني مجالَ الحكم، أو مجال الاقتصاد، أو مجال الإعلام.

وهذا الوضـعُ أوجد حربًا دائمةً سـاخنة أو باردة بين الحكومات والشعوب، وهذا الوضعُ كان ولا يزالُ يشكِّلُ عائقًا جدِّيًّا للنشاط الدعويّ الإسلامي.

وكان من الطبيعيّ أن يوجِد هذا الوضـع ظروفًا معاكسـةً للإسـلام والدعوة إليه، ليس خارجَ العالم الإسـلاميّ فحسْـبُ بـل في داخلِه، وكان من الطبيعـيّ أن يَتّبع إجراءاتٍ فعليةً مضـادّةً للتحرك الدعويّ الإسـلاميّ، ولعلَّ من أبرز التحدِّيات ضدَّ الدعوة الإسـلامية الحاجزَ الفكريَّ الهائلَ المتّسِـمَ بالقوة والشمولِ الذي يركِّزُ على

تشـويهِ الإسـلام، وتزييفِ الحقائق عنه، وإيجادِ أفكارٍ سـابقة مضلِّلة تشكِّلُ دفاعاتٍ يصعُب اختراقُها من قِبَلِ أيِّ نصير للحقّ وعدوٍّ للزيف والتضليل.

وقـد اخترَعَ الإعـلامُ الغربيّ اليهـوديُّ رموزًا لغويـة، مثل الأصـولية والتطرُّف والإرهـاب فعلَتْ فعلَها الهائـلَ في العقل الباطن والواعي للمتلقِّـي، فأَوجدَتْ لديه حالةً من «الفوبيا» ضدَّ الإسلام والعمل له[٦].

وإنّ كاتبَ المقالة يناشـد علماءَ الأمة أن يَعُوا مسـؤوليّتَهم، ويعملوا على مكافحة الخطـرِ المحدِق من أخطـار الغزْو الفكريّ والثقـافيّ الدّاهِم، وأن يَحرِصـوا وهم على ثغرات الإسلام ألا يُؤتَى الإسلامُ من قِبَلهم[٨].

والخطـابُ الثقافيّ ينبغي أن يكون واقعيًّا، عقلانيًّا، فاضـلًا بمعنـى أن يكون متّفِقًا مـع المقاييسـ الأخلاقية، نافعًا بمعنى أن يكون متّفِقًا مع المصـلحة العامة[٤٥]، ويهدف إلى محاولةِ حَمْلِ المسـلم على اسـتعادة ثقتِه بالإسلام بوصفِهِ منهجًا للحياة وطريقةً للعيش[٣٦]، وتوفيرِ جوِّ الحرية الكاملة للتعبير عن الرأي، ومنتهى الصـراحة والشفافية والصدق في الخطاب، والابتعادِ عن كل ما يُؤثّر على الحوار، وذلك بالتقيُّد بأدب القرآن وأدب الإسلام، فلا يكون مجالٌ لهمْزٍ، أو لمز، أو سخريَّة، سواءٌ تتعلق بالأشخاص، أو تتعلق بالاتّجاهات، أو تتعلق بالجماعات[٤٦].

ومن الطبيعيّ أن تركِّز الدعوة الإسلامية على الكشف عن حقيقةِ زَيْف العِلمانية في العالم الإسـلاميّ، وسوف يساعدُها في هذا الكشـفِ الواقعُ الذي يشهد بفشَلِ العلمانية في بلاد العالم الإسـلاميِّ في كلِّ المجالات التي سيطرت على مراكز القوّة والقيادة فيها طَوالَ السـنوات الماضية، سـواءٌ السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية، وواقعُ الرموز الفكرية للعلمانية من الكتّاب والصـحفيين ونفاقُهم وميولُهم وانحيازُهم لصـفِّ الاستبداد والدكتاتورية، واستعدادُهم في كلِّ وقت لتغييرِ مواقفِهم

ومواقعهم الفكريّة، وسوف يكون من السهْل إعدادُ ملفّات لمقالاتٍ وكتاباتٍ ظهرت في مدَد قصيرةٍ للتحول السياسيّ، كالفترة التي وقّعَ فيها اتفاقُ كامب ديفيد، والفترةِ التي وقّع فيها اتفاق أوسلو؛ حيثُ ينقلبُ في أعمال أولئك الكتّابِ الباطلُ إلى حقٍّ والحقُّ إلى باطل، ويتحوّلُ التنديدُ بالظلم والاغتصابِ إلى التبشيرِ بالسلام العادل، وبدَلَ أن تكون مقاومةُ الظلمِ واحتلالِ الأرض عملًا بطوليًّا وحقًّا مشروعًا يكونُ الاستسلامُ الخيارَ الإستراتيجيّ الحكيم.

وسيكون مفيدًا انتقاءُ مجموعة من الكتب والمقالات للمفكّرين الغربيين عن نقْد الحضارة الغربية، والكشفِ عن جوانب عجْزِها وفشَلها وعواملِ المرَض المتجذّرة فيها بحكْمِ طبيعتها، وترجمةُ هذه الكتابات، وجعلُها جزءًا من مادة الدعوة، كما ينبغي الاستفادةُ من الكتابات التي صدَرت عن المفكّرين المهتدين من الغربيين، مثل كتاب «الإسلام هو البديل» للسفير الألماني مراد هوفمان(*)، وكتاب «بين شتى الجبهات» للمتحدث الرسميّ الديمقراطيّ المسيحيّ (الحزب الألماني الحاكم) عبدالهادي هوفمان(**) (ولا صلةَ عائلية بين الرجلين)، وكتابَيْ «الطريق إلى مكة» و«الإسلام على مفترق الطرق» للمهتدي النمساوي محمد أسد، ومِيزةُ هذه الكتبِ أنها صدَرت عن أشخاص عرَفوا الحضارةَ الغربية؛ لأنهم أبناؤُها فهم أقدَرُ على بيان الحقائق عنها(٦).

ولا شكّ أنّ البحوثَ الجديدة فيما يُسمى (الإعجاز العلميّ للقرآن) ومقارنةَ الحقائق العلمية المكتشفة حديثًا بنصوص القرآن تَهدِى إلى معلومات نافعة، وقد يكونُ بعضها صالحًا ليُعتَبر ضمْنَ مفهوم الآية الكريمة: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ

(*) هو مراد ويلفريد هوفمان (١٩٣١-) مفكر ألماني مسلم.

(**) ليست له صلة قرابة بالدكتور مراد هوفمان، فهما وجهان لعملة واحدة، فالدكتور مراد يمثل الوجه الفكري في كتابه (الإسلام كبديل)، والأستاذ عبدالهادي يمثل الوجه الحركي في كتابه (بين شتى الجبهات).

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، كما أنها تُعطى إمكانية لفهْمٍ جديدٍ للنص لم يَلحَظْهُ المفسرون من قَبْل.

ولكن يَرِد على المبالغة في هذا الأمر ملحوظتان:

(أ) أنّ المسلمين منذُ العصر الأول للإسلام فهِمُوا النصّ القرآنيّ على وَفْق تصوُّراتهم، وهذا الفهْمُ يحتملُه النص في الجملةِ حتى لو نُوزع في أنّ غيره أرجحُ منه، وإذًا فلقائلٍ أن يقول: لماذا لا يكون هذا المفهومُ الذي فهِمَه السابقون – مادام لا يخالفُ الحقائق العلمية – هو المقصودَ بالنصّ؟.

(ب) في هذا العصر يدخل في الإسلام (يهتدي) المفكرون والمثقفون والأشخاص العاديُّون، فكم نسبةُ مَن اهتدى من هؤلاء للإسلام عن طريق الاقتناع ببحوث الإعجاز العلميّ للقرآن؟ لا شكّ أنها نسبةٌ قليلة، أمّا الكثيرون فقد اهتَدَوا للإسلام عن طريق اقتناعهم بسُمُوِّ قِيَمه، وبحكمة تشريعه، وقد عبَّرَ عن هذا أوضحَ تعبيرٍ محمّدُ أسد في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق».

وربما كان أبلغُ أمر في الإقناع بأنّ القرآن من عند الله وليس من عند غيره – في مجال المقارنة بين الكشوف العلمية الحديثة ونصوص القرآن – أنه لا يوجَد نصّ في القرآن الكريم يخالِفُ الحقائق العلمية، وهذا لا يتحقّق لأيّ كتاب وُجد في ظروفٍ مُشابهة، وهذا يندرج في معنى الآية الكريمة: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، والاختلاف يوجد لو وُجد تناقض بين نصوصه، أو تعارض بينها وبين الواقع (الحقائق العلمية مثلًا)، وهذا المعنى هو ما لاحظه موريس بوكاى(*) في كتابه «العلم البايبل والقرآن».

(*) موريس بوكاي (١٩٢٠–١٩٩٨م) طبيب فرنسي نشأ مسيحيًّا كاثوليكيًّا، وقد أسلم وألف كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث).

والواقـعُ أنّ دعوى الإعجـاز العلميّ لا يمكن أن تُوجد إلا بعد التفسـير العلميّ، وكما يوجَد تفسـيرٌ علميّ قاصر أو خاطئ فكذلك يوجَد دعوى إعجاز علميّ قاصرة أو خاطئة.

إنّ سـرّ الإعجـاز في القرآن هو قوةُ التأثير الحاسـمة التي لا تقـاوَم، والتي جعلت المشـركين من قريش يصـفونه بالسِّـحر، ولا يجدون سـبيلًا للمقاومة إلا الصدَّ عن سـماعه، فيقولـون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ [فصلت:٢٦]، وهـذا المعنى هو الذي جعلهم يعجزون عن الإتيان بسورةٍ من مثله[٤].

ومن المفترض أن تكون ثورةُ الاتصالات عاملًا فعّالًا في التحرر من كثيرٍ من المفاهيم التـي كانت نِتاجَ حالة «الفوبيا» تُجاه الإسـلام، وقـد آن الأوانُ للتحرر من المبالغة في عملية العزل والتحوُّط، وما ترتب على ذلك من إجراءاتٍ سَلبية وقيودٍ على الدعوة.

ولا بـدّ من التمييز بين المخاوفِ الوهمية والاحتمالات الواقعية، ومن الضـروريّ التنبُّـهُ إلى خطَر المبالغة في الأخذ بمبدإِ سـد الذرائع، وإغلاق الباب الذي تجيءُ منه الريح، وفي هذا من النافع الاعتبارُ بحكمة طاغور(*): «إذا أغلقتَ بابك دون كلّ باطلٍ فإنك تطرُد الحق».

لا بدّ من التحلي بكثير من سَـعة الأفقِ والتسامحِ تجاه النشاط الدينيّ، ولا سيما في أوسـاط الشـباب، موقنين بأنّ النشاط الظاهر المكشـوفَ هو البديلُ الوحيد عن النشـاط تحت الأرض، حيثُ يكون بعيدًا عن الرعاية والحماية من المؤثِّرات السلبية، وبذلك يكونُ عُرْضة للانحراف والفساد.

وفي عصـر العولمة وانفتاح الأبواب أمامَ كلّ ريح هابّة لا يكون من العدل والحكمة ورعاية الصالح العامّ ألا تُتاح كلُّ الفُرَص لإبلاغ كلمة الحقِّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(*) هـو روبندرونـات طاغور (١٨٦١-١٩٤١م) شـاعر ومسرحـي وروائي بنغالي، وقد نـال جائزة نوبل في الآداب عام ١٩١٣م.

إنّ روح الدعـوة وماءَ حياتها هو الإخلاصُ لله والبعدُ عن حظوظ النفس أو رؤيةِ العمل، وذلك يَقتضي من الداعية دوامَ المراقبةِ والتدقيقِ في محاسبة النفس واختبار الواردات والخاطرات، وعلامةُ ذلك التحلِّي بالاستعداد للبذل، والعزيمة على الصبر، والبعدُ عن الغلوِّ والتطرف، وحسـنُ الخلق، والتواضـع، وليس المقصـودُ التواضعَ في اللِّباس، أو المركَب، أو المسـكن، وإنما التواضـعُ في الفكر والعلم بالإيقان بأن ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فيَفسح من صدره للرأي الآخر.

ومن أبرز علامات الإخلاصِ التيقُّظُ لخِداع الشـيطان وغُروره، واستغلالِه لطبيعة الإنسـان في الاعتدادِ بالذات والرغبةِ في العلوِّ في الأرض، والحذرُ من أن يسـتخدمه الشـيطانُ في تحقيق وظيفته الأساسـيةِ إيقاعِ العداوة والبغضـاء، والنـزغِ بين العباد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ٩١]، ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وللمعنى المتقدم، فمن الطبيعيّ أن تُتاح أوسعُ الفُرَص لأهل الاحتساب والتطوُّع، وألا تكون مسـؤوليةُ الدعوة ملقاةً -حصْـرًا- على الحكومة؛ إنّ وسـيلةَ الحكومة في ذلك الموظفون المأجورون، والنائحةُ الثكلى ليسـت كالنائحةِ المأجورة، والتجربةُ تُثبت أنّ أثر التطوُّع والاحتسـاب في نتيجة الدعوة أبلغُ من أثر المشـروع الرسميّ والإجراء الإداريّ.

فلِتحقيق أهداف الدعوة لا مندوحةَ عن تشجيع مَن لديه هِمّةُ التطوّع والاحتساب، والغالبُ أن يكون هؤلاء من الشباب من الجنسين، وعن تفادي السماح بأيِّ عقَبات أو عراقيل تُثبِّط من هِمَمِهم، وتَفُلُّ من عزائمهم.

ويقـدِّم العصـرُ الحديث وسـائلَ متنوِّعة ومتعـدِّدة ومتجدِّدة في مَيـدان الدعوة والإعـلام، ومن النافع اسـتغلالُ كلِّ الوسـائل المتاحة، ولكن بالنظـر إلى أنّ قطاعًا

كبيرًا من الجمهور المستهدَف لم يُتَح له بَعدُ - بسبب الظروف الاقتصادية والمدنية - التعاملُ مع وسائلِ الإعلام التي هي على درجةٍ أعلى من التعقيد، فإنه ينبغي استنفادُ الإمكانات الأكثرِ بساطةً وكلفة، فمثلًا قَبْلَ التفكير في القنوات الفضائية والأفلام - التي يتطلّب إنتاجُها مستوًى عاليًا من التقنية، وكلفةً مادية كبيرة - ينبغي الاستفادةُ من الإذاعة المسموعة والأشرطة المسموعة[٦].

* * * * * *

قال محمد أسد: (إنّ الإسلامَ لا يسمَحُ بالتفريق بين المطالب الأدبية والمطالب العملية في وجودنا هذا، وكان الإصرارُ في الإسلام على أنّ العمل عنصرٌ لا غنى عنه في الفضائل الخلقية شديدًا، فعلى كلِّ مسلم أن يَنظر إلى نفسِه على أنه مسؤولٌ شخصيًّا عن نشرِ كلِّ أنواع السعادة وحدَهُ، وأن يَسعى إلى إقرارِ الحق وإزهاقِ الباطل في كلّ زمان وفي كل ناحية، ونجدُ مصداقَ ذلك في آية من القرآن الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، إنّ المعرفة بالفضائل - حسَب تعاليم الإسلام - تفرِضُ على الإنسان من تلقاءِ نفسها العملَ بالفضائل، وأما الفصْلُ الأفلاطونيّ(*) بين الخيرِ والشر من غير حثٍّ على زيادةِ الخير ومحْوِ الشرّ فإنه فسقٌ في ذاته؛ إنّ الأخلاق في الإسلام تحيا وتموت مع سَعْي الإنسانية لنصرتها على الأرض»[٩].

والأديانُ غيرَ الإسلام تتناولُ جانبًا من حياة الإنسان، أمّا الإسلام فهو نظامٌ شاملٌ ومتكامل، ومنهجٌ كامل للحياة.

يقول محمد أسد: (إنّ أفضليةَ ثقافةٍ أو حضارةٍ على أخرى لا تقومُ على ما لديها من المعرفة العلمية - ولو أنّ هذا الأمر مرغوبٌ فيه - بل على نشاطها الأخلاقيّ،

(*) نسبة إلى أفلاطون، وهو أرستوكليس بن أرستون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) فيلسوف يوناني كلاسيكي رياضياتي.

وعلى مدى قدرتها على تفسيرِ وموازنة مختلف نواحي الحياة الإنسانية، وفي هذا الاتجاه فإنّ الإسلام يفُوقُ كلّ ثقافة أخرى، ولا يحتاج إلا أن نتّبع أحكامَه؛ لكي نحقق أقصى ما يمكنُ للبشر تحقيقُه. لا تظهرُ إشارةٌ إلى أنّ البشرية في حالتها الحاضرةِ تجاوَزَتِ الإسلام؛ فلم تتمكَّن من إنتاج نظامٍ أخلاقيّ خيرٍ مما تضمّنه الإسلام، ولم تتمكَّن من وضع الأخوّة البشرية على أساسٍ عمليّ كما فعل الإسلامُ في معنى الأمة، ولم تتمكَّن من إيجاد بُنْيةٍ اجتماعيةٍ تتناقصُ فيها الخلافاتُ والخصومات بين أعضائها إلى الحدِّ الأدنى كما في شريعة الإسلام في تنظيمِها المجتمع، ولم تتمكَّن من إعلاءِ كرامة الإنسان وشعورِه بالأمن ورجاءاته الأخروية - وأخيرًا وليس آخرًا - سعادته. لدينا كلُّ الأسباب لنعتقد أنّ الإسلام قد دلَّت عليه كلُّ الإنجازات البشرية الصحيحة؛ لأنّه قررها، وأشار إلى صِحّتها قبْلَ تحقُّقِها بزمَنٍ طويل، ومساويًا لذلك فقد دلّت عليه أيضًا النواقصُ والأخطاء والعقبات التي صاحبت التطوُّرَ البشريّ؛ لأنه حذَّر منها بقوَّةٍ ووضوح قبل أن يتبيّن البشرُ هذه الأخطاءَ بزمنٍ طويل، ولو صرَفْنا النظرَ عن الاعتقاد الدينيّ للفرد فإنّ في وجهة النظر الفكرية حافزًا لاتّباع هداية الإسلام العملية بكلِّ ثقة)[٤٧].

* * * * * *

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. وركنُ الإيمان والعملِ الصالح العملُ لأن تكون كلمةُ الله هي العليا، وأن يكون الدينُ لله، أن تكون مُسلمًا حقيقيًّا، يعني أن تخرج من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جَوْر الأديان والاتجاهات الفكرية المنحرفة إلى عدْلِ الإسلام، ومن ضيقِ الدُّنيا إلى سَعتها، والإنسانُ في حاجةٍ دائمة ومستمِرّة لتوعيته بهذه المعاني، وتذكيرِه بمضامينها، وتنبيهِه إلى عواملِ الانحراف عنها[٦].

وإننا حينما نتحدَّثُ عن الأصول الشرعية للإصلاح لا يمكن إغفالُ أربعةِ أمور أساسية تضمّنتها سورةٌ من قصار السُّوَر في القرآن: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر].

أوَّلُ هذه الأساسيات: الإيمان، ومِن ضمن ذلك وعْيُ مَن يتصدَّى للإصلاح بحقيقةِ الإسلام وطبيعتِه، والفوارقِ التي تميِّزُه عن الأديان والثقافات الأخرى، ومن ذلك ما أُشيرَ إليه سابقًا.

ثانيها: تطابقُ عمَلِ المصلح ودعوتِه مع مبادئ الإسلام وتصوُّراته، وحِرْصُ المصلح على تخليص عمَلِه الإصلاحيّ من كلِّ شائبةٍ لا تتّفقُ مع الإسلام.

ثالثًا: تعاوُنُ المصلح مع غيره من المصلحين، ومن باب أولى تفادِي أيِّ تعويقٍ لأيِّ عملٍ إصلاحيّ آخَرَ بالقول أو الفعل.

وفيما يتعلَّقُ بهذا الأمر، فلا شكّ أن الناس يختلفون في اهتماماتهم ومواهبِهم وقُدراتهم، فيجب أخذُ هذا الأمرِ في الاعتبار.

وقد كان النبيُّ ﷺ يسألُه الرجلُ عن أفضل الأعمال، فيُجيبه: الصلاةُ لوقتها، ويسألُه آخَرُ فيجيبُه: برُّ الوالدين، ويسألُه ثالثٌ، فيُجيبُه: الجهادُ في سبيل الله، ويصِفُ أبا ذرٍّ الغفاريَّ رضي الله عنه بأنه أصدَقُ الناس لهجة، ثم يقول له: «**يا أبا ذرّ: إني أراك ضعيفًا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمَّرَنّ على اثنين**»(*).

فإذا اهتَمَّ الرجلُ بالإصلاح في مَجالِ نشرِ العلْمِ الشرعيّ، واهتَمَّ آخَرُ به في مَجال التزكيةِ، واهتمَّ ثالثٌ به في مجالِ الاقتصاد، واهتمَّ رابعٌ به في مجال السياسة، فإذا لم يَسهُلِ التعاوُنُ بينَهُم في هذه المجالاتِ فلا يَجوزُ بأيِّ حالٍ أن تتقاطَعَ دَعواتُ المصلحين، وأن يكُونَ عمَلُ أحدِهم مُعوِّقًا بالفعل أو القول لعمَلِ الآخَر.

(*) رواه مسلم (١٨٢٦).

والملاحَظُ أنّ الغفلةَ عن هذا الأمرِ هي من أكثَرِ المعوِّقات للحرَكات الإصلاحيةِ شُيوعًا، ومصدرُها في الغالِبِ المبالغةُ في التركيزِ على مجالٍ معيّنٍ مع الغفلةِ عن أهمية المجالاتِ الأُخرى، كما قد يكون مصدرُها المبالغةَ في رُؤيةِ العمل، والعُجْب، والتعصُّبَ، والغُلُوَّ في اعتبارِ الذات.

رابعُها: المثابرةُ والمصابرة والثباتُ على الأمر ومقاوَمة المعوِّقات؛ فكثيرًا ما يُجهض الحركاتِ الإصلاحيةَ فُتورُ العزم، وكللُ الإرادةِ، واستطالةُ الطريق[١٧].

* * * * * *

إنّ العالم الإسلاميَّ لم يكُن في يومٍ من الأيام منذُ أن بدَأَ تعرضُه للغزْو الغربيّ في مَيدان الثقافةِ الشريرة مهيّأً لصحوة النائم وإدراك الجانب السلبيّ للحضارة الغربية كما هو مهيَّأٌ في الوقت الحاضر، ذلك أنّ الإنسان مفطورٌ بطبْعِه على كراهية الظلم - إذا كان صادرًا من غيرِه - حتى لو كان واقعًا على غيره، فكيف إذا كان هو الضحية؟!

وفي السنوات الأخيرة - وهي سنواتٌ أصبحت فرَصُ الوعي فيها أكبرَ - مرّتِ المجتمعاتُ الإسلامية بسلسلةٍ من أشنَعِ المظالم، ظهرت في صُوَرٍ من الوحشية والهمَجية والتنكُّرِ لكلِّ المعاني الإنسانية، وقد صدرت من العالم المتحضِّرِ وبمباركته مثلًا: في فِلَسْطِين، والبوسنة والهرسك، وأفغانستان، والعراق، بل إنّ ما كان الإعلامُ الغربي يصِفُه على حقيقته بأنه حركةٌ ضدَّ الظلم والاستعباد في تركستان الشرقية وكشمير أصبحَ على لسانِ الساسةِ الغربيِّين إرهابًا يبرِّرُ التحالفُ الدوليُّ للقضاء عليه[٣].

وبالرغم من البأساءِ والضراء وزلزال القلوب الذي يُعاني منه المسلمون في أكثرَ من مكانٍ، وبالرغم من العذابِ الذي يُصَبُّ عليهم، والمعاناةِ من الجوع والخوف ونقْصِ الأموال والأنفس والثمرات، بالرغم من التدمير والتهجير وسَيْل الدماء إلا أنّ مَظاهر الانتصار للإسلام ذاتِه تتكشّفُ في كل وقتٍ وفي كل مكان.

ولقد كَشف واقعُ الحياة حدُودَ إيمانِ هؤلاء الأعداء وممارستِهم للقيم الإنسانية الكونية: العدل، والحرية، والمساواة، والرحمة، والتعامل الإنساني.

وفي عصر العولمة الثقافية وثورةِ الاتصالات والمعلومات الهزائمُ الأخلاقيةُ لأعداء الإسلام أتاحَتِ الفُرصةَ للبشرية أن تَكْشِف الذُّرَى السامقةَ لأخلاقية الإسلام، وأن تَكْتَشف أنه وحدَهُ الطريقُ لإنقاذِ البشرية من مَهاوي الهلاك والشقاء[٤٧].

مَغزَى ما سبَق أنّ البيئة الفكرية في العالم الإسلاميّ مُهيّأةٌ الآنَ للتعرُّف إلى الجانب السّلبيّ للحضارة الغربية، وإدراك خطَرِ وخطَلِ المبادئ السياسية الغربية في العلاقات الدولية، وأصبح المسلمُ الآنَ أكثرَ استعدادًا للثقة بمنهج الإسلام، وأنه طَوْقُ النجاة للعالَم إذا أراد أن يتغلَّبَ على قُوى الشرّ[٣].

وهذا في ذاته يُعطي حافزًا لكلِّ من يهمه انتشارُ الإسلام للبذل من جُهده ووقتِه وماله؛ إذ يكون مصحوبًا بالأمل الصادق في أنه يَزرعُ ليَجني الثمرةَ موفورة طيبة، ومُوقنًا بأنه لا يحرُث في البحر[٦].

وإذًا، فعلى أهلِ الفكر والرأي أن يبذُلوا أقصى جُهدٍ لتوعية الجماهير في العالم الإسلاميّ بأمرين:

١/ المنهجِ الإسلاميّ في علاقة الإنسان بغيره، وأنه لا خِيارَ للمسلم - إذا أراد أن يبقَى مسلمًا حقيقيًّا - إلا الالتزامُ بهذا المنهج والمبادئ التي تُبنى عليه، وأنّ واجبه الدينيَّ في ذلك لا يقِلُّ عن واجبه في أداء العبادات من الصلاة والصوم والحجّ.

٢/ كشفِ حقيقةِ الجوانب السَّلبية للحضارة الغربية، والتوعيةِ بنتائج هذه الجوانب الفكرية والعملية، والإلحاحِ على تعرية صُوَرها الحقيقية ممثَّلةً في الحوادث الواقعية، وفي تصريحات الساسة والمفكِّرين، لا بقصد إثارة الكراهية ضدَّ الغرب، وإنما إثارةُ الكراهية ضدَّ المبادئ الشرِّيرة في الثقافة الغربية.

وأبلغُ أثرًا من كلِّ هذا أن يهتمَّ المربون بهذه النواحي، ويضمِّنوا مناهجَ الدراسة عناصرَ كافيةً للوفاء بهذا الغرض، ليس في مادّة التاريخ والجغرافيا فحسْبُ بل في غيرِها من موادّ الدراسة، ولا سيّما دروسُ الدين.

ولا بدّ بعد ذلك وقبلَهُ من إنعاشِ رُوح الأمل لدى المسلم، وتذكيرِه بأنّ مقتضَى دينه الإيمانُ الذي لا يتزعزعُ بأنّ السلام ممكنٌ على الأرض، وأنها سوف تُملأُ عدْلًا كما مُلئت جَورًا، وأنّ نور الله – الذي تُريد قُوى الشرِّ أو الإشراك أن يُطفئوه بأفواهِهم – لا بُدّ أن يَتِمّ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦][٣].

إنّ نقاط القوة في الإسلام هي ما يُفسِّر انتشارَهُ بين المثقفين خاصة، ودون جُهد يُذكَر للدعوة إليه، بالمقارنةِ بما يُبذَل من جهود في سبيل الدعوة للنصرانية، وهي أيضًا ما يُفَسِّر حقيقةَ أنه أسرعُ الأديان انتشارًا على الأرض، بالرغم من الجهود التي تُبذَل لإعاقة انتشارِه، وتسخيرِ الآلة الإعلامية لتشويهِه والتنفيرِ منه[٤٧].

وعبَّر الفيلسوف الكاثوليكيّ جاك ماريتان[*] عن هذا المعنى تعبيرًا أدبيًا جميلًا، حيث قال:

(في أسعد فترات التاريخ كان الشرُّ يعمَل في خُفية لتحقيق أهدافه، وكذلك فإنه في أحلَكِ العصور ظُلمةً يظَلُّ الخيرُ على أُهبةٍ دائمة يعمل باستمرارٍ على تحقيق انتصاراتٍ غيرِ متوقّعة وغيرِ ظاهرة)[٢٩].

إنّ طريق الإسلام إلى القلوبِ والعقول مفتوحٌ بمجرَّد اكتشافه، وهذا العصرُ الذي نعيشه الآنَ – بعولمته الثقافية وثورةِ الاتصال والمعلومات – يُتيح للبشرية فُرصةً لربما لم يُتَح مثلُها من قبلُ لاكتشاف الإسلام، وبهذا تُعْقَد ألويةُ النصر للإسلام، ويتحققُ موعود الحقّ[٤٧].

(*) جاك ماريتان (١٨٨٢-١٩٧٣م) فيلسوف فرنسي كاثوليكي معاصر.

إنّ المسلم يؤمن - بمقتضى إسلامه - بأنّ كلمةَ الله هي العليا، وأنّ الحقَّ يعلو ولا يُعلى عليه، وأنّ النصر في النهاية للخير على الشر، والعزةُ لله ورسوله وللمؤمنين.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣][٢٩].

إنّ الغرب عاجزٌ عن مواجهة الإسلام بالقوّة المادية أو المعنوية، وتاريخُ المقاومةِ الفلسطينية ضدّ العدوّ الصهيونيّ والمقاومةِ الأفغانية ضدّ الاتحاد السوفيتيّ سابقًا وحاليًا ضدّ أمريكا وحلْفِ شمال الأطلسيّ - رغم التفاوُت الكبير في ميزان القُوَى - كافٍ ليُثبت لمليار وستمائة مليون من المسلمين أنّ شُعورَهم بالذِّلة والمسكنة والهوان إنما جاء فقَطْ من عندِ أنفُسهم.

إنّ فشَل المسلمين وذَهابَ ريحِهم إنما هو فقط باستجابتِهم لمكْرِ العدوِّ في التفريق والتنازُع بينهم، ودخولِ الوهْنِ والخِذْلان في قلوبهم ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال:٤٦]، ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩]، والمشكلةُ الحقيقية تكْمُن في: كيف تدخُل في القلوب الحقيقةُ التي عَبَّرت عنها الآياتُ الكريمات: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:١٢٦]، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٤٠]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧][٤٣].

وما على مسلم اليوم إلا أن يَستيقِن بأنّ الهزيمة الحقيقيةَ ليست الهزيمةَ الماديّةَ وإنما هزيمةُ الرّوح، وهزيمةُ الروح أو انتصارُها بيدِ الإنسان لا بيَدِ عدوِّه الخارجيّ[٢٩].

إنّ انتصار الإسلام قادمٌ، ويَرجع ذلك إلى أنّه الحق، ويَشهد لذلك أنه مع كلِّ هذا التشويه العالميّ للإسلام والكيد الكبير في حربِه اقتصاديًّا وثقافيًّا وعسكريًّا ظلّ الإسلامُ في واقع الحال يتقدَّمُ بنفسه، فيَكسِبُ ليس الغوغاءَ والجهلاء برشوة «الغذاء

والدواء»، إنما يَكسِب كبارَ المثقَّفين في الغرب من فلاسفة، وعلماء، وكتّاب، وقساوسة، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١][٤٣].

وليس من شـرط انتصارِ الإسـلام أن يَعُود العالم الإسلاميُّ دولةً واحدةً مترامية الأطراف على رأسـها خليفة، وذاتَ قوّةٍ عسكرية غالبة؛ انتصارُ الإسلام يتحقَّقُ بأن يبقَـى ظاهرًا على الدين كلِّه، يعجَزُ أيُّ نظـام دينيٍّ أو ثقافيّ آخر أن يكون له ندًّا، وأن يظلَّ ضـامنًا - لمن يَعي حقائقَهُ، وتوجَدُ لديه الإرادةُ الصادقة الجازمة للانتفاع بهذا - النصرَ والظُّهور، والحمد لله أولًا وآخرًا[٤٧].

٢- الجهاد:

يوجَّهُ الهجوم بصفة دائمةٍ ومستمرة إلى الجهاد، بدعوى أنه أداةٌ للعُدوان على غير المسلمين، وأنه (حربٌ مقدَّسة) بما تتضمَّنه هذه العبارةُ من إيحاءات علِقَتْ بها من عهودِ التاريخ الأوروبيّ والأمريكيّ، وأنه يَعني تجييشَ المسلمين وتحريضَهُم على قتال غيرِهم، وبذلك يَجعل المسلمين دائمًا خطرًا على السلام العالميّ[٤٨].

لقد أضْفَتْ ضوضاءُ الحرب الباردة بين المعسكر الشيوعيّ والمعسكر الرأسماليّ غطاءً على تلك الروح، ولكن ما أن انتهَتِ الحربُ الباردة بانهيار الشيوعية حتى صار الإسلامُ هو العدوَّ الظاهر في إستراتيجية الغرب، واكتسب اسم «العدوّ الأخضر»، وحلّ هذا الاسم محَلّ اسم «العدوّ الأحمر»، وتسارعت وتيرةُ الحرب، وتعاظمت شراستُها، ولم تكن حربَ دعايةٍ وحربَ أفكار فقط، بل كانت حربًا عسكرية، بل وحربًا قذرة[٤٧].

كان أولُ تصريحٍ مُعلَنٍ بذلك الترشيحِ قد صدر عن الأمين العامّ لحِلْفِ الأطلسي، ومنذُ ذلك الوقتِ بدأتِ التهيئةُ لحربٍ باردةٍ بديلة، «الرأسماليةُ الغربية» في مواجهة «الإسلام»، وبرَزَ من وقتٍ مبكِّرٍ من مظاهر هذه الحربِ قرنُ الإسلام بـ«الأصولية» و«العنف»؛ ففي النصف الأوّل من العَقْدِ الأخير للقرن المنصرم كانت أوروبا كلُّها تشاهدُ فيلم «الإرهاب في سبيل الله»، وكانت أمريكا تشاهدُ الفيلم الوثائقي «الجهاد في أمريكا»[٢].

وقبل سنواتٍ عُني أحدُ الباحثين بوضع فرضية أدخَلها في حاسوبه الشخصيّ، وظل يرصُد الأحداثَ وتصريحاتِ السياسيين التي لها صلةٌ بهذه الفرضية، وكان يَدهَشُ كيف أنّ الوقائع ظلَّت تؤيّدُ فرضيتَه؛ لقد بَنى هذه الفرضية في شكْلِ هرَم كَتَب على ثُلثه الأعلى الجهاد، وعلى ثُلثه الأوسط المؤسسات الخيرية والمؤسسات المالية، وعلى قاعدته القيم والمبادئ، وقد افتَرض أنّ الغارة على الإسلام - في صراع

الحضـارات – سـوف يكون هدفُها الأول الجهاد، وهدفُها الأخيرُ القيمَ والمبادئ مُرورًا بالمؤسّسات الخيرية والمالية[٢٩].

* * * * * *

يُعتبر مجـالُ العلاقات بين الدول من أبرزِ المجالات التي عندما تكون موضـوعًا للمقارنة فإنّ المقارِن المحايد مسـلمًا أو غيرَ مسـلم يُدرِك من المقارنة الفارقَ الهائلَ بين سموِّ الإسلام وعدالتِه وإنسانيته، والانحطاطِ الخُلقيّ للثقافة المعاصرة، وهمجيتِها، ولا إنسانيتها، سواءٌ في حالة السّلم أو الحرب.

ذلـك أنّ العلاقاتِ بين الدول تُبنى في الثقافة المعاصـرة على (المصـلحة القومية – أي الذاتيّـة الأنانيـة – والقوّة)، وهذا المبدأُ في الحقيقة هـو الدافعُ الرئيس، والموجِّهُ والمحدِّد لسلوك قاطعِ الطريق، أو عِصابةِ الإجرام، أو الحيوانات في الغابة، الفرقُ أن ما يدَّعى بأنه مصلحةٌ قومية أو وطنية لا يكون دائمًا مصلحةً حقيقية للوطن، وإنما مصلحةٌ موهومة، أو مصلحةٌ لطائفةٍ ذات نُفوذ.

وإذا كان سـفكُ دماء الأبرياء وتدمـيرُ مرافق الحياة وإهانةُ الكرامة الإنسـانية هو مقياسَ الشـرِّ والهمجية والانحطاطِ الأخلاقي للإنسـان، فما هـو الحكمُ على نتائج الحروب في السنوات الأولى للقرْنِ الحادي والعشرين في أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان، من كَمِّية الدماء المسفوكة للأبرياء من الأطفال والنساء والرجال غيرِ المقاتلين، وحجمِ التدمير الذي أصاب مرافقَ الحياة، وأنواعِ الإهانة للكرامة الإنسانية؟

فهل يسـتطيعُ الإنسـان أن يتخلّصَ من خِزْي هذا الحكم؟ بالرغم مما وصـل إليه من ذُرًى سامقةٍ في المعرفة والتقنية، واختراع وسائل الرّفاه، والعلمِ بظاهر الحياة الدنيا وتنظيمِها، وبالرغم مما يُصِمُّ الآذان من ضجيجٍ عن دعاوَى التمدُّن، والأخلاق الكونية، والتقدُّم، والتنوير، والحداثة.

وعلى عكس هذا المبدإِ الهمجيّ المشؤوم يُقيم الإسلام العلاقاتِ بين الدول – سواءٌ في حالة الحرب أم حالة السَّلم – على العدل، العدلِ الحقيقيّ ذي الميزان الواحد، فالعدلُ في الإسلام هو الحدُّ الأدنى في علاقة المسلم بغيره فردًا أو جماعة أو دولة، العدلُ مع القريب والبعيد، مع الصّديق والعدوّ، مع المسالم والمحارِب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠][١٥].

* * * * * *

وللمُقارنة بين آثارِ تطبيق المنهج الإسلاميّ وغيرِه على سلوك الإنسان في حالةِ الحرب والغزْو يُمكِنُ ذكرُ مثالِ مدينةٍ تعرَّضَتْ للغَزْوِ والفتحِ عدَّةَ مرّات وهي (مدينة القدس).

ففي عام ٦١٥ ميلادية وأثناءَ الحرب بين الإمبراطوريتين الفارسيةِ والبيزنطية غزا الفرسُ (القدس) وحاصروها، ثم استولَوْا عليها، فكيف تم ذلك؟ سجّلتْ كتبُ التاريخ أنّ المدينةَ أُحرِقتْ، ونُهبَت، وجرَتْ دماءُ السكّان في مذابحَ مروِّعة، وأُحرِقتِ الكنائس، وأُهين المكانُ الذي يَعتقدُ النصارى أنّ المسيحَ وُلد فيه، وحَمَل الفرسُ معهم إلى بلادهم النفائسَ والمقدساتِ غنائمَ حرْب، ومن بينها الصليبُ المسمَّى True Cross الذي يَعتقِدُ النصارى أنّ المسيح صُلب عليه.

وخلالَ بِضْعِ سنين تغيَّرَ مَجرى الحرب بين الإمبراطوريتين، وغلَبَ الرومُ البيزنطيون الفرسَ وحاصروا القدس، ثم دخلوها فأحرَقُوا، ونَهبُوا، وقتَلُوا مَن كان فيها من الفرسِ واليهودِ الذين كانوا ساعدُوا الفرسَ في الجولة الأولى؛ نتيجةً لعِدائهم للنصارى.

وبعد حَوالَي عشْرِ سنوات حاصرَ المسلمون القدسَ – بعد انتصارهم على الرومِ في وقعة اليرموك، وبعدَ هزيمتهم لجيش أرطبون(*) – ثم دخلُوها فلم يُقتَلْ إنسان، ولم

(*) الأرطبون قائد من قادة الروم، ومعناه في الأصل القاضي، وقد يُسمّى نائبًا؛ لأنه كان يُنتخب.

يُنهَب بيت، وأَبْرَمَ المسلمون مع السكّان ما عُرِف بالعُهدةِ العُمَرِيّة، والذي يَقرأُ الآنَ هذه العُهْدةَ دون علم بظُروفِ إبرامِها لا يُمكِنُ أن يَتصوَّر أنّها معاهدةٌ تمّتْ بين غازٍ منتصرٍ ومَغزُوٍّ مهزوم!، لقد كانت تلك المعاهدةُ مثالًا نادرًا لتسامُح المنتصر.

وبعد ٤٦٤ سنةً حاصر الصليبيون القدس، ثم دخلوها فقَتلوا السكّانَ المسلمين رجالًا ونساءً وأطفالًا، ونَهبُوا، ودمَّروا، وارتكَبُوا من الفظائعِ ما سجَّلَهُ المؤرِّخون الأوربيون في ذلك الوقتِ وبَعدَه.

وبَعدَ مرورِ أقَلَّ من قرنٍ ردَّ اللهُ الكرّةَ للمسلمين، وحاصر صلاحُ الدّين الأيوبيُّ وجيشُهُ المسلمون القدس، ثم دخلوها فتكرَّرت صورةُ سُلوكِ الفاتحين المسلمين، وشَهِدتْ كُتبُ التاريخ الأوروبية – في ذلك الوقتِ وبعدَهُ – بما أَظهَره المسلمون من تسامُحٍ وعَدْلٍ ورحمة.

وعندما أهلَّ القرنُ العشرون كانت القدسُ مدينةً مفتوحة، السيادةُ الحكومية فيها للمسلمين، يُساكِنُهم عددٌ من المسيحيين من السكّان الأصليين والمهاجرين، وعلى أرضِ فِلَسْطِينَ كلِّها عددٌ لا يَزيدُ على خمسةٍ وعشرين ألفًا من اليهود، وجزءٌ كبيرٌ منهم قَدِمَ خِلالَ العَقْدِ الأخيرِ من القرْنِ التاسعَ عشَرَ؛ نتيجةً للحركةِ الصهيونية الناشئةِ في أوروبا.

وقبلَ انتصافِ القرنِ العشرينَ كان اليهودُ – الغزاةُ القادمون – من أوروبا ومن أجزاءٍ أخرى من العالم قد بلغوا ملايين، وأقاموا دولتَهُم، ودخلُوا القدس، وحلُّوا مَحَلَّ السكّان الأصليين الذين تحوَّلُوا إلى لاجئينَ في أجزاءٍ من فِلَسْطِينَ وخارجَها.

وكان ذلك في أعقابِ عمليّاتٍ إرهابية فظيعة، نفَّذتها عِصاباتُ الهاجانا، وإرجون، وشتيرن، وغيرُها من العِصاباتِ الإرهابية اليهودية.

لقد تضمنت تقاريرُ منظَّمةِ الصليب الأحمر الدَّوْليّ وغيرُها صُوَرًا من الفظائعِ الإرهابية المرتكبة، مثل: مجزرة دَيْر ياسين من أعمالِ القدس، التي وقَعتْ قبلَ فجْرِ

الجمعة في ١٠/أبريل ١٩٤٨م، حيثُ كانت العِصاباتُ بقيادةِ عِصابة إرجون تَعمِدُ قصْدًا إلى قتْلِ النساء والأطفال، مستعملةً أحيانًا السكاكين والخناجر؛ لِبَثِّ الرُّعب في السكان وحَمْلِهم على ترْكِ بلادِهم؛ ليَحُلَّ محَلَّهم الغُزاةُ اليهود، وقد وَصفَ ضابطُ المخابرات في الهاجانا (مايير بائبل) في تقريرِه الذي كتبه عن مَجزرةِ دَيْر ياسين - وكان شاهِدَ عِيان - وصَفَ المجزرةَ بقوله: «إنّ الجنودَ كانوا يَذهبون من بيتٍ إلى بيت يَرمُون ويَنهبُون، ويَنهبون ويَرمُون، وكانت تُسمَعُ من داخلِ البيوتِ صَرَخاتُ العربِ عجائزَ ونساءً وأطفالًا، كان الجنودُ كأنما كانوا مجذُوبين مُسمَّمِين عقليًّا في قِمّة الإثارة».

وقال ضابطُ عِصابةِ إرجون الإرهابية التي نفَّذَت المجزرةَ يهوشوا جدرو دنشك: «أخَذْنا أسرى ولكنَّنا قبلَ الانسحاب قرَّرْنا تصفيتَهُم، كما قُمْنا بتصفيةِ الجرحَى، وقتَلْنا النساءَ اللّاتي لم يُسرِعْنَ بالوصول لمنطقةِ تجميع الأسرى».

كانت المجزرةُ من الفظاعةِ بحيثُ انتقدها بن غوريون زعيمُ هاجانا علنًا، بالرغم من أنّ هاجانا وافقَتْ على العملية، وأمدَّتِ القتَلةَ بالسلاح، وقد وَصَف مناحيم بيجن قائدُ عِصابة إرجون (I.Z.L) الذين انتَقدُوا المجزرةَ بأنّهم منافقون، ضيِّقُو الأفُق، وكاذبون، وبعدَ انتهاءِ المجزرةِ أرسل بيجن رسالةَ تهنئةٍ لجنودِه قال فيها: «اقبَلُوا تهنئتي عن العملِ الرائع الذي قُمتم به، أبلِغُوا تقديري لكلِّ الضباطِ والجنود، كلُّنا فخورون بالقيادة الممتازة وروحِ القتال العاليةِ في هذه المعرَكةِ الكبيرة، قولوا للجنود: لقد صنعتُم تاريخًا لإسرائيل، بشَنِّكُم الهجومَ، والانتصار، استَمِرُّوا في مثلِ هذا العمل حتى الانتصارِ الأخير، كما في دَيْرِ ياسين في كلِّ مكان سوف نُهاجِمُ ونَسحَقُ العدوّ، يا إلهي! يا إلهي! لقد اخترْتَنا لنُحقِّق الانتصار».

لقد وصَفَ تقريرُ منظمةِ الصليب الأحمر العالميةِ فَظاعةَ هذه المجزرةِ!، وكيف كانتِ المجنّدةُ اليهوديةُ تَنفُضُ يدَها في الهواء لتتساقَطَ منها الدماءُ التي عَلِقتْ بها بعد ذَبْحِ مَن ذبحَتْهُ من النّساء والأطفال، وكَتَب فيما بعدُ مناحيم بيجن يُبرِّر هذه المجزرة:

(كان لهذه العمليةِ نتائجُ كبيرة؛ فقد أُصيب العربُ - أي السكان الأصليون - بعد انتشارِ أخبار دَيْر ياسين بالهلع، فأَخذوا يَفِرُّون مذعورين، فلم يَبقَ على أرض فِلَسْطِين إلا ١٦٥,٠٠٠ فلسطيني، بعد أن كان عددُهم يزيدُ على ثَمانِمائةِ ألف، لولا دَيْر ياسين ما كان يُمكِن لدولةِ إسرائيل أن تَظهَر للوجود)[٣].

ونتيجةً لتلك الفظائع الإرهابيةِ أعلَن اليهودُ قيامَ دولتهم «إسرائيل»، وتسابقَت الدولُ الكبيرة للاعتراف بها، وبعد ثلاثةِ عُقودٍ من الزمَنِ مُنح بيجن جائزةَ نوبل للسلام!، وذلك قبلَ مُدّة قصيرةٍ من قيامه بحرب لبنان[٩].

غنيٌّ عن التنبيه أن يذكَر أنه ليس المقصودُ من هذه المقارنة أن يقتنع القارئ بأن الأديان المجوسيةَ والنصرانيةَ واليهوديةَ مسؤولةٌ عن العُدوانية والعنف الذي تجلَّى في سلوك أتباعها؛ إنّ العدوانية جزْءٌ من الطبيعة البشرية، وإنما المقصودُ أن يقتنع القارئُ بأنّ الأديان المذكورةَ أخفقَتْ في ترويضِ الطبيعة البشرية في حينَ نَجَحَ الإسلامُ في ذلك[٣].

* * * * * *

إنّ أسوأ الشرور في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان سفكُ الدّم، والفسادُ في الأرض، وإرادةُ العلوِّ فيها، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥]، وقال عن اليهود: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٤]، وقال عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، وقال سبحانه: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

ولا يَسمح الإسلامُ بسفك دم الإنسان إلا في سبيلِ مكافحة هذه الشرور الثلاثة، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

فالإسلامُ يعتبر أن الإنسان في الأصل معصومُ الدّم، والمال، والعرض، قال العلامة ابنُ دقيق العيد(*): (الأصلُ عدمُ إتلاف النفوس، وإنما أُبيحَ منه ما يقتضيه دفعُ المفسدة).

ونتيجةً لما سبَق، فإنّ الإسلام يَدين كلَّ الحروب، ويعتبرُها في حُكمِه غيرَ مشروعة ما عدا الجهاد، الذي هو أعظمُها نُبلًا في الهدف، وأشملُها عدلًا في السلوك، وأكثرُها رعاية للاعتبارات الإنسانية، بل يندُر في الحروب - غيرَ الجهاد - ما يُحكَم بقواعدَ تضمَنُ لها نُبلَ الهدف، وتطبيقَ العدل، والالتزامَ بالأخلاق، ورعايةَ الاعتبارات الإنسانية(١٥).

إنّ مصطلح الجهاد في الإسلام يعني ثلاثةَ عشرَ معنًى، أوّلُها جهادُ النفس كما جاء في الحديث الشريف: «**المجاهدُ مَن جاهد نفسَه في الله عز وجل**»(**)، ومنها ما تضمَّنهُ الحديثُ الشريف: «**أفضلُ الجهاد كلمةُ عدل عند سلطان جائر**»(***)، إلا أنّ من هذه المعاني - بلا شكّ - بذْلَ النفسِ والمال لقتال العدوّ(٤٨).

والقرآنُ الكريم والسنّةُ النبوية مليئانِ بالثناء على الجهاد، والحثِّ عليه، ووَعْدِ المجاهدين بأفضلِ الجزاء، ولو لم يرد في ذلك إلا الآيةُ الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ

(*) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري القوصي، أبو الفتح تقي الدين، المعروف بابن دقيق العيد (٦٢٥-٧٠٢هـ) الحافظ الفقيه المحدث البارع.

(**) رواه الإمام أحمد (٣٩/ ٣٨١ رقم ٢٣٩٥٨) والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٩ رقم ٧٩٧) وصححه ابن حبان في صحيحه (١١/ ٥ رقم ٤٧٠٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١١٢٩).

(***) رواه أبو داود (رقم ٤٣٤٦) وابن ماجه (رقم ٤٠١١) والترمذي (رقم ٣١٧٤) وقال: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١١٠٠).

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] لكانَتْ كافية.

والجهادُ في الأصل فرضُ كفايةٍ على الرجال المكلَّفين القادرين على القتال، بشرْطِ إذْن الوالدين، ويكون فرْضَ عينٍ عليهم إذا عيَّنَهم لذلك وليُّ أمرِ المسلمين، أو حَصَر العدوُّ البلدَ الذي يُقيمون فيه، أو احتلَّه، ولا يجوزُ رفعُ راية الجهاد إلا للإمام أو من يُفوِّضه، حيثُ يكون ذلك ممكِنًا، ولا يجوزُ لآحاد المسلمين أو طائفةٍ منهم الافتئاتُ على الإمامِ أو على جماعةِ المسلمين بإعلان الجهاد(١٥).

والجهادُ بهذا المعنى يُعتَبر - بقيودِه وأحكامه الشرعية - أكثرَ الحروب عدالة، وأنبلَها هدفًا، وأكثرَها مراعاةً للاعتبارات الإنسانية، ويَظهرُ هذا واضحًا من مقارنة الجهاد في الإسلامِ بالحروب الأخرى التي تَستعِدُّ لها الدوَلُ الحديثة وتمارِسُها.

الجهادُ في الإسلام تحكُمُه ثلاثة مبادئ:

(١) الغايةُ النبيلة بأن يكون في سبيل الله؛ فالحربُ لأجل المصلحة القومية أو ما يُدَّعى أنه مصلحةٌ قومية أو لأجْل المصلحة الشخصية لا تكونُ جهادًا.

(٢) أن يكون القتالُ ضدَّ من يقاتِل المسلمين؛ فالمسالم لا مجالَ لقتاله.

(٣) ألا يَتجاوزَ الضرورةَ العسكرية؛ فالعملياتُ العسكرية الانتقامية أو التي تنفَّذُ استجابةً لعواطف الحِقْد والبغضاء لا تُعتبَر جهادًا.

وتجمَعُ هذه المبادئَ الآيةُ الكريمة: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وفي التاريخ وُجدت حروبٌ بين المسلمين وبين المسلمين وغيرِهم لم يُلتزَم فيها بالمبادئ المشارِ إليها، ولكنّ مثلَ هذه الحروبِ لم تُعتبَر جهادًا في أيِّ وقت، لا من قِبَلِ المؤرِّخين ولا من قِبَل الفقهاء.

والجهادُ لا يعني شيئًا مِثْلَ الحروب التي تَشُنّها الدولُ الحديثة، وتُعتبَر عارًا على الإنسانية، لا توجَد دولةٌ حديثة لا يكون من ضِمْن أجهزتها الإدارية جِهازٌ يُعنَى بشؤون الحرب حتى لو كانت مُحايدةً معترَفًا بحيادها كسويسرا، ولا توجَد دولةٌ ليس لديها مخزونُها من الأسلحة، ومشروعاتها للتدريب على القتال.

في ٢٠٠٥/٦/٧ أصدَرَ المعهدُ الدَّوْلي لأبحاث السلام تقريرَهُ الذي تضمَّن أنه في عام ٢٠٠٤م بلغ إنفاقُ دُوَل العالم على المتطلَّبات العسكرية ١٠٣٥ مليار دولار، وبلغ إنفاقُ دولةٍ واحدة نصفَ هذا المبلغ.

وقيل: إنّ مخزون دولةٍ معيَّنة من أسلحة الدمار الشامل يكفي لتدميرِ الكوكب الأرضيّ سبعَ عشْرَةَ مرّة!، طبيعيٌّ أنّ هذه النفقاتِ والاستعدادات ليست للاستِعراض أو الترفيه.

وفي بداية القرن العشرين كان القتلى من الأطفال والنساء والمدنيِّين ٢٠٪ من قتلى الحروب، وفي نهايته بلغت هذه النسبةُ ٨٠٪.

واستَهلَّ القرنُ الحالي بحربٍ غريبة، حربٍ عبَثية، يمكن أن تكون جزءًا من عالم «كافكا»(*)!، اتّحدتْ أربعون دولة في تحالف دَوْليّ لغزْو دولةٍ ضعيفةٍ فقيرةٍ أنهكها ضَعْفُ الموارد، والجفاف، والحربُ الأهلية، ومن بين هذه الدولِ الأربعين ادَّعت دولةٌ واحدةٌ أنّها تحارِبُ دفاعًا عن النفس، ولكنّ أيًّا من الدول الأخرى لم تَجرؤ أن تدَّعيَ أنّ أفغانستان مثَّلتْ تهديدًا لها، أو أنّ من المحتمِل أن تمثِّل تهديدًا لها[٤٨].

إنّ انتهاكَ القوات البرية والجوية في التحالُف الدَّوْليّ للمَعاييرِ الإنسانية وقواعدِ القانون الدَّوْليّ والاتفاقاتِ الدَّوْلية لم يصدُرْ فقط عن القادةِ العسكريين، بل ساندتْهُ تصريحاتُ رجالِ الدولة والسياسة، وكان موقف الإعلامِ الأمريكيّ عن المذبحة الفظيعة

(*) هو فرانس كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤م) كاتب تشيكي يهودي كتب بالألمانية، ورائد الكتابة الكابوسية، ويعدّ أحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة.

لأسرى طالبان(*) في قلعة «جانجي»(**) بحيثُ وصَفه الكاتبُ والسياسيُّ الكَنَديّ ستيفن جوانز بأن: (اتّجاه الإعلام الأمريكيّ لا أَسمع، لا أَرى، لا أَتكلّم)[٣].

يمكن المقارنةُ بين مثلِ هذه الحرب وحربِ الجهاد المحكومة بالمبادئ المشارِ إليها؛ لإدراك الفجوةِ الهائلة في المستوى الخُلقي بيْنَ تشريعِ الجهاد والأعرافِ والممارَساتِ الحديثة التي تَحكُمُ وتَطبَعُ حروبَ الدُّوَل المعاصرة، ولإدراكِ قيمةِ انتقاد الجهاد الإسلاميّ[٤٨].

ومع الأسف، فإنّ الافتراءاتِ وضَوْضاءَ التشويهِ التي هي ما يَشغَلُ به أعداءُ الإسلام أنفسَهُم، وما يُسخِّرون به آلةَ الإعلام الدجّالي أثَّرتْ على تصوُّرات بعض المسلمين، فكادوا يصدِّقون دجَلَ الإعلام الغربيّ، وفي الظلال القاتمة للانهزامية الفكرية التي يَعيشها كثيرٌ من المسلمين تجدُهم لا يتخِذون تُجاهَ الدجَل الفكريّ للغرب فيما يتعلّقُ (بالجهاد) إلا موقفَ الدِّفاع والاعتذار، ولا شكّ أن التخلِّيَ عن مواجهة الهجوم بالهجوم – ما دامت وسائلُه لدى المهاجِمِ أصدقَ وأقوى وأبلغَ وأنكى – هو حقيقةُ الهزيمة.

وفي مجال التربية والتعليم لا نكون صادقين مع أنفسِنا ومع إسلامنا إذا حَجبنا عن أبنائنا نِصْفَ الحقيقة، وإذا لم نعمل على تنميةِ الثقة بالإسلامِ وأحكامِه وشعائرِه – ومنها ذِروةُ سنامه: الجهاد – في نفوسِ الناشئة[١٥].

(*) طالبان حركة إسلامية حكمت أجزاء كبيرة من أفغانستان ابتداءً من سبتمبر ١٩٩٦م.

(**) قلعة بُنيت أيام الاحتلال السوفيتي لأفغانستان، وقد اُستخدمت من قبل أحمد شاه مسعود إبان المعارك مع حركة طالبان.

٣- الحجّ:

إنّ انتهاك حرية الدين في صورته البارزة يعني أن تَمنع شخصًا من أن يؤدِّيَ فعلًا يعتقدُ أنّ دينه يُوجبه عليه، أو أن تَفرِض على شخصٍ أن يؤدِّيَ فعلًا يعتقدُ أنّ دينه يحرِّمه عليه[٣٨].

والحجُّ - وقد شُرع لإقامة ذكر الله - يؤدَّى في تجمُّع يتّحِد في الزمان والمكان والاتجاه، وحتى الهيئة واللباس، وتتحقَّق فيه المساواةُ في أروع صورها حيثُ لا فرقَ بين غنيٍّ وفقير، وحاكمٍ ومحكوم، وعالمٍ وأقلَّ علمًا.

بل إنّ المساواة الكاملةَ هي بدايةُ هذه الشعيرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

والنصُّ الصريح لا يَحتمل التأويل في أنّ مسلِمًا من أقصى الغرب في أفريقيا أو من أقصى الشرق في إندونيسيا حقُّه في الوصول إلى البيتِ المعظَّم والطوافِ به - كما يُعبِّر المفسرون - مساوٍ تمامًا لحقِّ ولي من أولياء الله مقيمٍ على العبادة في الحرم يحسُبُ من أجدادِه أجيالًا تمتدّ إقامتُهم في مكة لمدّةِ ألف سنة. وقد حُمي هذا المبدأُ بالتهديد المروِّع لمن يَحيد عن هذا المبدإِ أو يَتخلّف عنه، دون ضرورةٍ شرعية، ولا تكفي الحاجةُ - فضلًا على المصلحة - مبيحًا للمَيل عن هذا المبدإ، أو مبرِّرًا للإخلال به، ويؤكِّد ذلك ما ورد في آيات الأنفال ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال][٤٩].

وهذه مناسبةٌ للتنبيه إلى الحذر من وضْع أي قيد أو عائقٍ أو صعوبةٍ تُخِلّ بمبدإ المساواة بين المسلمين في حقِّ الوصول إلى البيت المعظَّم، أو تكونُ عاملًا على صدِّ أيِّ مسلمٍ يرغب في الحج والعمرة عن المسجد الحرام، وليعلموا أنّ مجرَّد المصلحة

الخاصة والعامّة – بل ومجرَّد الحاجة – لا تكفي مبرِّرًا لأيِّ عائقٍ أو قيدٍ على المسلم في الوصول إلى البيت المعظَّم، بل إنّ الضرورة الشرعية وحدَها هي المبرِّرُ للتجاوُز عن مبدإِ حرية المسلم في الوصول إلى البيت، أو مبدإ المساواة بين المسلمين في هذا الحقّ، وإنّ عدم التزامِ أقصى الحذَر في مراعاة هذا الأمر مخوفٌ بأن يَجُرَّ شرَّ العواقب، لا على خاصّة المسؤولين عن التنظيم بل على البلاد عامة[٤٩].

إنّ تعويق أيِّ مسلم عن الوصول إلى البيت المعظَّم للحجّ أو العمرة بأيِّ صورةٍ من الصُّوَر دون ضرورة شرعية مخوفٌ بأن يَدخل في مضمون الصدِّ عن المسجد الحرام الذي صرحت آية البقرة رقم ٢١٧ بأنه أكبرُ عند الله من القتال في الشهر الحرام، أما الآيةُ رقم ٢٥ من سورة الحجّ فقد جاءت تملأ قلبَ المؤمن خوفًا ورهبة ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والآيةُ صريحةٌ في تقرير مبدإ المساواة بين المسلمين في حقِّ الوصول إلى المسجد الحرام لأداء العبادة، ويُخشَى أنّ أيَّ إخلالٍ بهذا المبدإ دون ضرورة ملجئة يَدخل في معنى الإلحاد بظُلم المتوعَّدِ على إرادته – فضلًا على فعله – بالعذاب الأليم؛ لأنّ الإلحاد يعني الانحرافَ عن حكم الله، وحكمُ الله بتقرير حقِّ المساواة المصرَّح به في النصّ أحقُّ أن يُحمى عن الانحراف عنه، في آية الأنفال رقم ٣٤ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، والقارئُ لهذه الآيةِ تتبادَرُ إلى ذهنِه الخشيةُ من أنّها تحمِلُ إشارةً إلى أنّ الصّدَّ عن المسجدِ الحرام مُستثنًى من الذنوب التي يَمنعُ الاستغفارُ وقوعَ العذابِ بسببِها، أو أنّها تحمِلُ الإشارةَ إلى أنّ الصّدَّ عن المسجد الحرام سببٌ لنفْيِ الولايةِ للمسجد الحرام أو نَزْعِ الولاية عليه.

إنّ الضرورةَ وحْدَها – وليست الحاجة أو المصلحة الوطنية – هي المبرِّرُ لتعويقِ أيِّ مسلمٍ عن الحجّ أو العمرة[٣٢].

فُوجئ الحجاجُ في جنوب أفريقيا وقرقيزيا(*) - وربما غيرهما كذلك - بامتناع السفارة السعودية من مَنْح حجّاج البلدين التأشيراتِ بالعدد الذي اعتاد البلَدانِ أن يحصُلا عليه؛ بحجة أنه أُعيد حساب (الكوتا) للبلَدين، فتبيَّن أنها تقِلُّ كثيرًا عن العدد الذي كان البلَدانِ يحصلان عليه في المواسم الماضية، وكان هذا بَعد أن تهيأ الحجّاج للحجّ، ورتبوا أمورَهم على السفر بقصده.

وقد وُصف لنا الوضعُ المأساويّ للحجّاج بخاصة في جنوب أفريقيا، حيثُ كان البكاءُ والنحيب والصراخ، واختلاطُ مشاعرِ الحزن والغضب والنقمة على حكومة المملكة العربية السعودية.

وكان هذا نوعًا من الظلم لم يكن له من داعٍ إلا التزمُّتُ والتطرُّف في التطبيق البيروقراطي لنظام بشَريٍّ يُشَكّ في حكمته(١٣).

كَتب أحدُ الصحافيين مقالةً في ثلاث حلقات، ابتدأها بالإشادة والتنويه بإجراءات الرفاهية والراحة التي وفّرها منظِّمُ الحملة التي كان صحافيُّنا من ضمن حجّاجها، ثم خَصّص سائرها لاقتراح أن تضع الحكومةُ قيدًا على حجِّ مَن لا يتوفّر فيه حدٌّ معيَّن من اللياقة الصحّية، سواءٌ بسبب المرض أو السنّ، مستنكرًا أن يَجيء أناسٌ من شتّى بقاع الدنيا لكي يموتوا في (بلادنا!!)، وداعيًا إلى إقناع الحكومات الإسلامية بقَبول هذا القيد. وفي متابعتي لقراءة الحلقات الثلاث كانت تُلحُّ على ذهني صورتان:

الأولى: صورةُ سيّدة إفريقية مصابةٍ بالسرطان في مرحلة متقدّمة، وكانت تستعين على مقاومة الألم بحُقَن المورفين، وحينما أَبلَغَتِ المستشفى الذي يُعالجها أنها تعتزم الحجَّ، وأنّ ذلك يقتضيها سفرًا لمدّة شهرين اهتمّ المستشفى بإعداد جرعات المورفين الكافيةِ لهذه المدة، وطُلِب منها أن تُراجع المستشفى لكي تتسلَّم شهادةً بأنّ جرعات

(*) دولة تقع في آسيا الوسطى، تجاور الصين وطاجيكستان وأزبكستان وكازاخستان، عاصمتها بيشكك، وقد استقلت عن الاتحاد السوفيتي أواخر ١٩٩١م.

المورفين التي تحملها وتستعملُها ضرورةٌ دوائية، وفي الموعد المحدَّد جاءت للمستشفى تُعلِن أنها لن تأخذ جرعاتِ المورفين التي سوف تحمِلها ولا حاجةَ لها في الشهادة؛ مبرِّرة ذلك بأنها سوف تُسافر إلى بلدٍ مقدَّس، ولن تحتاج معه إلى دواء!، وقدِمَت مع رُفقتها، فتميَّزت بأنّ رُوحها المعنويةَ أعلى من أيٍّ منهم، وكان ظاهرًا أنها لا تُحِسُّ بالمعاناة، ولم تُسمع منها حتى الشكوى التي تعوَّد الحجّاجُ عليها، وكان وجهُها يَطفَحُ بالسرور، وأتمت مناسك الحج كأيِّ حاجٍّ عاديٍّ يتمتّع بالصحة، ولا يشكو من المرض، وعادت إلى بلادها لم تَرزأنا بالموت والدفن في (بلادنا!!)، هذه قِصّةٌ واقعية كنتُ أنا فيها شاهدَ عِيان.

الثانية: صورةٌ تَكرَّرُ دائمًا، فلّاحٌ إندونيسي يبدأ في شبابه بجمع نفقةِ الحجّ روبية فوقَ روبية مُصارِعًا الفقر والحاجة، وكلَّما قرُبَ أملُهُ من التحقُّق أبعدَهُ - مسافاتٍ - غُول التضخُّم، وحين بلغ الثمانين من العُمر، واستطاع أن يجمع نفقةَ الحجِّ أربعةَ عشرَ ألف ريال جاء إلى بيت الله، وقد تحقَّق كلُّ أملِه في الحياة، فملأتْ قلبَهُ السعادةُ، وغَمَره الفرحُ والسرور، ونال كلَّ ما يَطلبه من الدنيا.

وكلَّما ألحّتْ على ذهني هاتان الصورتان ساءلتُ نفسي: هل لديَّ من قوّةِ الإيمان وصِدْق اليقين والشوق إلى الكعبة المشرَّفة ما لدَى تلك الحاجّةِ الإفريقية أو ذاك الحاجِّ الإندونيسي؟!، وهل لي الحقُّ دونَهما في الوصول إلى بيت الله؟ وتساءلتُ: أيُّ درجة من الانسجام مع القِيم الإنسانية والشرعية يقع اقتراحُ حِرمان مثلِ هذين الحاجَّيْن من الوصول إلى بيت الله بحجّةِ إشفاقنا من أن يُزاحِم الأجانبُ المواطنين في مقابرهم؟، مع أنّ كُلّ الموتى - مواطنين وأجانب - سوف يتحوَّلون إلى تراب، فتزيدُ بهم الأرض، ولا تنقص[٣٥].

والأساسُ في هذا كلِّه ضعفُ النزوع الأخلاقيّ، وهشاشةُ الإيمان بمبدإٍ ثابت، وقد نشأ ذلك عن عجْزِ هؤلاء عن الانعتاق من فقْرِ القلب ومرَضه، ومن الأنانية والنرجسية

والتعالي وبَطَرِ الحقّ وغَمْط الناس، ومن العجْزِ عن الانفتاح على العالم خارجَ الذات بكرَمٍ وسماحة[٢].

وبعدَ هذا كلِّه، فإنّ علاقة المواطن السعوديِّ بالرياض أو بأبها أو ينبع أو الدمام مثلُ علاقة المواطن المصريِّ بالقاهرة أو الإسكندرية أو أسيوط أو طنطا، قد يكون من الطبيعيّ أو من المحتمِل أن تتأثَّر بالأنانية القومية أو الشحِّ الذي أُحضِرتْه الأنفس، أمّا علاقةُ المواطن السعوديِّ بمكةَ - حيث بيت الله الحرام - فيجبُ أن تتشكَّل بمراعاة إعلان القرآن: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]، والنصُّ صريحٌ في أنّ سعوديًّا صالحًا عابدًا لله في المسجد الحرام يَعُدّ من جدوده أجيالًا تمتدُّ إقامتُهم في مكةَ ألفَيْ سنة، هذا السعوديُّ حقُّه في الوصولِ إلى البيت المعظَّم والعبادةِ فيه يتساوى تمامًا مع حقِّ فلّاح إندونيسيّ من أيريان الغربية في الشرق، أو راعٍ إفريقيّ من غينيا بيساو في الغرب[٣٥].

* * * * * *

في أحَدِ التقاريرِ التي حدَّدتْ أسبابَ الكارثةِ التي حدَثَتْ بعْدَ ظُهر يوم ١٤٢٦/١٢/١٢هـ(*) بالتأمُّلِ يُلاحَظُ لأوّلِ وهلةٍ أنّ كلَّ سببٍ من الأسباب المذكورةِ في التقريرِ يُوجَدُ دائمًا دون أن تُوجَد وفَيَاتُ الزِّحام، وتُوجَدُ وفَيَاتُ الزِّحام مع تَخلُّفِ السببِ المذكور، بل إنّ الأسبابَ المذكورةَ في التقريرِ تُوجَدُ مُجتمعةً، ولا تُوجَدُ كوارثُ! وتتخلَّفُ وتُوجَدُ الكوارث!.

عندَما يَقِفُ ساحرُ القبيلةِ البدائية على بُقعةٍ مّا من الأرضِ وعليه جُبّةٌ خضراءُ ثم يَنزِلُ المطرُ، وتَخضَرُّ البُقْعةُ بالعُشب تَنسُبُ القبيلةُ اخضِرارَ الأرضِ ونُزولَ المطرِ إلى وُقُوفِ الساحرِ على تلك الأرضِ وعليه جُبَّةٌ خضراء.

(*) عدد القتلى ارتفع إلى نحو مئتين في الحادث الذي وقع عند المدخل الشرقي لجسر الجمرات في منى.

هذا مثَلٌ تقليديٌّ يتردَّدُ في كتُبِ علْمِ الاجتماع، يَقْصِدُ به العلماءُ تصويرَ طريقةِ تفكيرِ البُدائيّ، يَكفِي مجرّدُ اقترانِ الظاهرة «أ» بالظاهرة «ب» لِيَعتقدَ الشخْصُ البُدائيّ أنّ الظاهرةَ الأُولى سبَبٌ للظاهرةِ الثانية، وعندما يتقدَّمُ الإنسانُ في طريقِ نُضْجِ التّفكيرِ – وبقَدْرِ تقدُّمِه – فإنّه يتحيَّزُ للسببيّة العقلية التي مُوجَبُها أنّه لكي تكونَ الظاهرةُ «أ» سببًا للظاهرة «ب» لا بدَّ أن يتكرَّرَ – بالتجربة مراتٍ عديدةً تَمنَعُ احتِمالَ المصادفة – أنه كلَّما وُجدَتِ الظاهرةُ «أ» وُجِدت الظاهرةُ «ب»، وكلَّما تَخلَّفتِ الظاهرةُ «أ» تَخلَّفتِ الظاهرة «ب»، معَ الأخْذِ في الاعتبارِ وُجودَ الموانعِ، وتعدُّدَ الأسباب.

ويُعبِّرُ أسلافُنا – رحمهم الله – عن هذا المفهومِ بقولهم: السببُ ما يَلزَمُ من وُجودِه الوجودُ، ويَلزَمُ من عَدَمِه العدَم.

بادئَ ذي بدء يجبُ أن نكون على ذُكْرٍ من موجِبات التقوى عند إعادة تنظيمِ الأمور المتعلِّقة بالعبادة، ومن أهمِّ هذه الموجبات أن نحاوِل بقدْر الإمكان أن نتفادَى مصادمةَ أوامر الله وما ورد على لسان رسوله ﷺ من حثٍّ وترغيبٍ على الحجّ والعمرة، والمتابعةِ بينها(*).

مع الأسف يبدو أنّ الانشغال بالأسباب غيرِ المباشِرة كان سببًا في عدمِ التركيز على الأسباب المباشرة، والبحثِ في كيفية التعامُل معها، ومعروفٌ أنّ السببَ المباشرَ لكلِّ كوارث الزحام أحدُ أمرين: الحركةُ المتعارضة، وارتفاعُ كثافة الجُمهور المتحرِّك، فكان ينبغي أن يكون الاهتمامُ بالسبب المباشر أكبرَ من الاهتمام بالأسباب غير المباشرة التي هي بحكْمِ طبيعتها غيرُ قابلةٍ للحصر، ثم أن يتمّ التركيز على معالجة

(*) من هذه الأحاديث قوله ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**». رواه البخاري (رقم١٧٧٣) ومسلم (رقم١٣٤٩).

وقوله ﷺ: «**تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الذهب والفضة، وليس للحج المبرور جزاءً إلا الجنة**» رواه الترمذي (رقم ٨١٠) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وصححه ابن حبان في صحيحه (٩/ ٦ رقم ٣٦٩٣) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٣ رقم ١١٠٥).

الأسباب المباشرة لحوادث الزحام، والاستعانةُ في ذلك بخِبرات المختصِّين، وقد صار علمُ الحركة علمًا يَحظَى بالعناية في الجامعات ومراكز البحث العلميّ، ونبغ فيه علماءُ وخبراء ينبغي الاستفادةُ منهم.

الأسبابُ المادية الظاهرة لنا - والتي نضعُها في حسابنا - يكون وراءَها أسبابٌ غيبية، هذه الأسباب لا نستطيع أن نضع لها أوزانًا رقمية في حساباتنا، ولسنا مكلَّفين بذلك، ولكنْ في مجالٍ مثلِ مجالِ الحجّ يجبُ - وإن لم نستطع أن نضع لها أوزانًا رقمية - ألا تغيبَ عن اعتبارِنا في تقييمنا للأمور وحُكمنا عليها، فمثلًا: نعرِف من سُنن الله أنّ الإنسان الذي يعرِف الله عندما يتجاوَزُ قدْرَ نفسه باستشعار العُجب ورؤيةِ العمل والإعجابِ بحَوْلِه وقُدراته وإعلانِ ذلك تمدُّحًا به وفخرًا فإنه يَجري تذكيرُه بحالِه، وحقيقةِ حَوْلِه وقوّته، وحدودِ قُدراته وإمكانياته؛ فإن الجزاء الإلهيَّ على مصادمة أوامر الله قد يَظهر في صُوَرٍ شتى، ومنعُ مسلمٍ أيِّ مسلم وصدُّه عن المسجد الحرام - بأيِّ صورة وفي غيرِ حالة الضرورة الواقعية - يمكن أن يكون مُوجِبًا للقضاء الإلهيّ الذي يَختارُ الله فيه بعضَ عبادِه شهداءَ، ويذكِّرُ به عبادَه الآخَرين بضَعْف حِيلتِهم، وقُصور إدراكِهم أنّ الحكيمَ الخبير عندما يُرغِّب عبادَه في الحجّ والعمرة ويدعُوهم إلى المتابعة بينهما لا يُتوقَّعُ أنّ الاستجابةَ لذلك سوف تُرتِّب استحالةَ أدائِه، أو الحرَجَ في ذلك.

وبعدَ هذا، فإذا عُرف أنّ التنظيم لأيِّ مشروع يجبُ أن يتم بمراعاة أهدافه ومقاصدِه؛ لأنّ وظيفة التنظيم هي وظيفةُ الوسيلة إلى الهدف، وليست هي الهدفَ فلا بدّ من التعرف إلى مقاصدِ الحجِّ ومراعاتها، وأولى من ذلك تجنُّبُ الإخلال بها، ومن مقاصد الحج التي عُلمت بالنص أو بالاستنباط من أحكام الحج والعمرة ما يأتي:

(أ) مرورُ المسلم بتجرِبةِ ترْكِ ما اعتاد عليه من الترفُّه، وليونةِ الحياة، وعندما فُرض الحجُّ لأوّلِ مرّة كانت المرأةُ التي اعتادت المحافظةَ على نَضارةِ وجهها ونعومةِ كفَّيْها بلُبْس النقاب والقُفّازَين تُؤمَر بترْكِ ذلك، وأن تسير ضاحيةً للشمس، معرَّضةً للرِّيح

والغُبار في مسافة سفَرِ عشرةِ أيام، من ذي الحليفة إلى أن تَقضي نُسكَها في مكة، ووُصف الحجّاجُ في الحديث القدسيّ بأنهم يأتُون شُعْثًا غُبْرًا ضاحين، فيُباهي الله بهم الملائكة(*).

(ب) رياضةُ النفس على التواضعِ وكسرِ النفس، وقد جاء في صفة حجّ النبيّ ﷺ أنه حجَّ على رَحْلٍ رَثٍّ وقطيفة تُساوى أربعةَ دراهم.

(ج) الوعيُ بالمساواة بين البشر، وإدراكُ زَيف الفروق المصطنَعة بينهم، بما يُوجِب إلفَ المسلم للمسلم وأنسَهُ به، وبناءَ علاقتِه به وَفْق ذلك.

(د) المساعدةُ على إدراك حقائقِ الحياة، ورؤيتها كما هي؛ حيثُ يَرى الإنسانُ الأشياءَ كما سيراها عند الموت، عندما يَرى الأشياء التي كان يَعتقِدُ أنها مُهمّة وثمينةٌ، ولا يَستغني عنها يَراها على حقيقتها ليست مُهمّة، ولا ثمينة، ويُمكن الاستغناءُ عنها.

بالطبع لا يُقترح أن يكون كلُّ تنظيم للحجِّ وافيًا بهذه المقاصد، محقِّقًا لها؛ لأنّ ذلك في الغالب مما لا تَحتمِله عقولُ الناس، وإنما ينبغي محاولةُ أن يكون التنظيمُ أقربَ إلى هذا المثال، وأن يُتفادَى بقدْرِ الإمكان الإخلالُ به(١٣).

* * * * * *

الافتراشُ في المشاعر هل هو مشكلة؟

يُصوَّر هذا السلوكُ بأنه مشكلةٌ رئيسة تستحِقّ أن تَستأثر بجانبٍ ملحوظ من اهتمام الوعّاظ والمرشدين والمكلَّفين بتوعية الناس وتعليمِهم السلوكَ الصائبَ في أداء المناسك.

(*) إشارة إلى قوله تعالى في الحديث القدسي للملائكة: «**انظروا إلى عبادي شعثًا غبرًا، لقد أتوني من كل فج عميق، يرجون رحمتي ومغفرتي، أشهدكم أني قد غفرت لهم**» رواه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٢٠٥ رقم ١٨٨٧) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٧ رقم ١١٥٥).

ولما كانت الحقيقةُ لها جوانبُ متعددةٌ، فهل لهذه المشكلةِ القائمة برسوخٍ في أذهان إخواننا من رجال الإعلام والدعوة جوانبُ أخرى غائبةٌ عنهم؟

المتتبِّعُ لما يُقرَأُ ويُسمَعُ يُلاحِظ أنّ القاسمَ المشترَكَ للمبرِّراتِ التي تُقدَّمُ لاعتبار السلوكِ - موضوع البحث - مشكلةً أنّه يشكِّلُ منظرًا مشوِّهًا لا يَليقُ بسُمعة المملكة، أو أنّه - كما يبرَّرُ غالبًا - على ألسنةِ الوُعّاظِ والمرشدين «سلوكٌ غيرُ حضاريّ».

إنّ عبارة «سلوك غير حضاريّ» عبارةٌ أقربُ إلى ألفاظ الشعارات منها إلى الألفاظ المحدَّدة المعاني التي تَحمِلُ صورةً ذهنية واحدة بين مُوجِّه الخطاب والمتلقِّي، وأغلبُ الظنِّ أنّ ما يُقصَد في عبارة «السلوك الحضاري» سلوكُ الشَّخص العاديّ في البلدان التي اعتَدْنا أن نصِفَها بأنها متقدِّمةٌ أو متحضِّرة.

وعندما نَستحضرُ في الذهن أنّ الصحابةَ والتابعين لهم بإحسانٍ وخيارَ أمّةِ محمّدٍ ﷺ طَوالَ القُرونِ الماضية كانوا يَفترشون في المشاعرِ والمساجد - ولا يُستَثنى منها مسجدُ نَمِرةَ أو المشعَرُ الحرام أو مسجدُ الخَيْف - وتُؤثِّر رمالُ الحصير في جَنب أحدِهم، ويَلصَقُ الترابُ بجنْبِ الآخَر حتى يُسمَّى أبا تُراب، عندما نَستحضرُ هذا في الذهن فإننا سنَعجبُ أن يهون على لسانٍ أو قلبِ الواعظِ والمرشد من المنتسبين للعلم الشرعيِّ أن يَعتبِرَ قضاءَ الحاجِّ بعضَ الليلِ في مُزدلفةَ أو مِنًى مُفترِشًا على «حصيرة الحاجّ» في ساحةٍ أو مَيدانٍ سُلوكًا غيرَ حضاريّ! مهْما تغيَّر الزمانُ، واختلفتِ الظروفُ، وانقلبتِ الموازينُ عند مُحدَثي النِّعمةِ المتكلِّفين.

والذي حجّ في العام الماضي (يعني عام ١٤٢٦هـ) وشاهَد ساحةَ المفترشين قُرْبَ مسجدِ الخَيْف - وهي أكبرُ الساحات - لا بدّ أنه شاهَد أنّ نسبةً كبيرة من المفترشين من إخواننا الإندونيسيين والماليزيين، ولو سألهم عن سببِ افتراشِهم وتركِهم الخيامَ لأجابوه بأنّ هذا يُتيح لهم متعةً وراحةً وأنسًا أكثر؛ إذ إنّ وجود أحدِهم في خَيمةٍ مع عددٍ من الأشخاص بقدْرِ الطاقة الاستيعابية للخيمة، وارتفاعَ نسبةِ الرطوبة ونسبةِ

ثاني أكسيد الكربون ونسبةِ التلوُّث الميكروبي، وتعرضَهُم لتيارٍ من الهواء البارد الرطْب الذي لم تتعوَّدْهُ أجسامُهم، كلُّ ذلك يجعَلُهم يفضِّلون الافتراشَ تحت سماءِ وليلِ تِهامةَ الجميل، فيُحِسُّون بالراحة والمتعة والأنس، وتنطلقُ أرواحُهم محلِّقةً مع ذكر الله في فضاءٍ لا نهائيٍّ وغيرِ محدود.

وبين يدَي الآنَ إعلانٌ لأحد المنظِّمين لحملات السياحة، يُعلِن عن فُرَصٍ للحجّ الـتَّرَفيّ، حيثُ يمكن للحاجّ أن يَبيت في خيمةٍ ذات سريرين، وأرائك، ومتاعٍ آخَر، وحمّامٍ خاصّ.

فأيُّهما أحْرى برضى الله، وأجدرُ بالعذر لدى عُقلاء خَلْقه؟ هذا الحاجُّ المتْرَفُ الذي استأثَر بمكانِ خمسةَ عشَرَ حاجًّا، أم الحاجُّ البسيط الذي حرَصَ أن يتقيَ الله ما استطاع، فيُؤدِّي واجبَ المبيت في مِنًى، ولو على منحدَرٍ إسمنتي أو ظَهْر حاوية القمامة.

ما مدى انسجامِ أو تنافي الافتراش في ليالي مزدلفةَ ومِنًى مع مقاصد الحج؟

لاشكّ أنّ الحاجّ الذي تواضع لله، فكان في غُمار الناس، مَشَى مع المشاة، وافتَرش مع المفترشين، وتخلَّى لوقتٍ قصير عن عاداته الترفيهية، أحْرَى بأن يُحقِّق هذه المقاصد.

هل يُمكِنُ أن نقتَرِحَ على إخوانِنا المسؤولين عن التوعية والإرشاد وإخوانِنا المسؤولين عن التنظيم أن يتخَلَّوْا مرّةً واحدةً عما تعوَّدُوه - فرأَوْا أنه الحدُّ الأدنى المقبول - أن يُجرِّبوا الحجَّ المتواضِع، فيَمشُوا مع المشاة، ويَفترِشُوا مع المفترشين، ويَمُرُّون - عمليًّا - بالتَّجربة التي يَمُرُّ بها نصفُ الحجّاج، فلعلّهُم إن اكتشفوا صورةً للحجِّ لم يَتخيَّلُوها قبلُ - من الراحة، والمتعة، والأُنس، والإحساسِ برَوحانية الحجّ، وتمييزِ الإنسانِ أوهامَ الحياة من حقائقها، واكتشافِ أن الفروقَ التي يَضعُها الناسُ بين الناسِ فُروقٌ مُصطنَعة لا حقيقةَ لها، ورُؤيةِ الحياةِ كلِّها على حقيقتِها كما سيَراها عند الموت - أن يَتغيَّرَ بهم كثيرٌ من

الأمور، فتَنحَلَّ عُقَـدٌ وتُحَلَّ قُيود، ويَرتفعَ الحرجُ والعنَتُ عن عبادِ الله، ويقُولوا: خدمةُ الحاجِّ شرَفٌ لنا، فيقولَ الحجّاجُ حينئذٍ: صدَقْتُم[١٦].

وإنّ تأمُّلَ ما سبَق حرِيٌّ بأن يَملأ قلبَ المسلم فرَقًا يُدرِك به خطورةَ الأمر، ويَمنعُه من استسـهالِ أيِّ صـورةٍ من صُوَر تعويق الحجّ والعمرة، أو وضـعِ القيود عليهما قبلَ أن يتحقَّق وجودَ الضرورة الملجئة لذلك من ظروف الواقع.

ملخَّصُ ما سـبَق أنه لا يوجَـد موجِبٌ للاسـتمرار في العمَلِ بقـرارِ تحديدِ عدد الحجّـاج من الخارج، ويوجَـد موانعُ جِدِّيّة لهذا الاسـتمرار، وبالعكس يوجَد موجِبٌ لوقْـفِ العمل بالقـرار، ولا يوجَد مانعٌ من وقْـفِ العمل به، وتقديرُ هـذا مبنيٌّ على أسـبابٍ موضـوعية، وحيثيات منطقيةٍ وواقعية، يزيدُ اقتناعًا به أنّ الرأي المخالِفَ لم يسـتطع أن يقدِّم موجِبًا واحدًا لاسـتمرار العمل به، أو مانعًـا واحدًا عن وقْفِه بالبناء على أدلّة منطقية أو حقائقَ واقعية، وأنّ القولَ بأنه يوجَد موجِبٌ لاستمرار العمل به أو يوجَدُ مانعٌ لوقفه مبنيٌّ على الوهْمِ الذي كان أساسُ قوَّتِه على النفوس شُيوعَهُ كاتِّجاهٍ عامّ، وليس مبنيًّا على دلائلَ موضـوعيةٍ منطقيةٍ أو واقعية، ولذا أُوصـي بوقْفِ القرارِ المذكور ابتداءً من حجّ ١٤٢٤هـ[٣٢].

إنّ كاتبَ المقالة يناشـد علمـاءَ الأمة أن يَعُوا مسـؤوليّتَهم، ويعملوا على مكافحة الخطـرِ المحدِق من أخطـار الغزْو الفكريّ والثقـافيّ الدّاهِم، وأن يَحرِصـوا وهم على ثغرات الإسلام ألا يُؤتَى الإسلامُ من قِبَلهم[٨].

وإنّ الأمـر من الخطورة، بحيثُ يسـتحِقُّ أن يكون موضـعًا للتأمُّل، وإعادةِ النظر، والتفكيرِ الموضوعيّ المبنيِّ على الحقائقِ والواقع[٥٠].

obeikandl.com

الإعلام

إنّ أهميةَ الدعاية والإعلام تَظهر في الاستئثار بتشكيل الرأي العامّ، وكما يقول ديفيد هيوم(*): «على الرأي العامِّ تُبنَى الحكومة، وهذه القاعدةُ تنطبِقُ على أكثرِ الحكومات استبدادًا وعسكرية، كما تنطبِقُ على أكثرِها حرية وشعبية!، وبما أنّ الرأيَ العامَّ يتأسَّس على المعلومات يُلاحَظ أنه بينما يُطالِب الراديكاليون بتوفير معلوماتٍ أكثرَ للجُمهور يَذهب الآخَرون الأقلُّ راديكالية - وخاصةً الدبلوماسيون منهم - إلى حَجْبِها في المسائل الخطيرة، وإلى تقديمها فيما عدا ذلك، وعلى شكْلٍ يجعل الجُمهورَ يميل في الاتِّجاه المطلوب، وهذا كلُّه يُثير مشكلات الإرشاد؛ إنّ فكرةَ الديمقراطية لا تَعْني التزامَ القادة بالرأي العامِّ التزامًا مطلقًا، وإنما تَعني بل وتَقتضي أحيانًا أن يتولَّوْا قيادةَ هذا الرأي.

والدّعاية نشاطٌ أنانيّ، لا تحكُمُه إلا اعتباراتُ المصلحة الوطنية للقائم بالدعاية، ولهذا فهو نشاطٌ لا تقبَلُه الدوَلُ الأُخرى، ولا تحتوي الدعايةُ على أيّةِ محاولةٍ للوصول إلى حَلٍّ وسطٍ بين المصالح الوطنية المتنافية، بل يَنحصر هدفُها في تحقيقِ امتيازاتٍ وطنيةٍ للقائم بالدعاية، ولهذا فإنّ الدعايةَ كما تَعملُ اليومَ لا تخدِمُ بالنظر إلى النّظامِ الدَّوْلي سوى أغراضٍ سلبية، ولقد باءت كلُّ المحاولات الدَّوْلية التي بُذلت للتخفيف من غُلَواءِ الدعاية - إن لم يكن السيطرة عليها - حتى الآن بالفشل».

إنّ الدعاية تَستندُ إلى عاملَيْن: عاملٍ إيجابيّ، وعاملٍ سلبيّ. العاملُ الإيجابيّ يتمثَّل في التقنية الفعّالة في خطابها للمتلقّي، والعاملُ السّلبيُّ يتمثَّل في القابلية الذهنية (الإسفنجية) للامتصاصِ لدى المتلقّي واستعدادِه لتصديق المعلومات(٣).

(*) ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م) فيلسوف واقتصادي ومؤرخ إسكتلندي، وشخصية مهمة في الفلسفة الغربية وتاريخ التنوير الإسكتلندي.

والإعلامُ سيطرتُه ليست في قوّتِه وإمكانياته المتاحةِ له، وإنما في ضَعْف الناس وتصديقِهم له، وعدمِ انتباهِهم إلى ما يكون فيه من تناقُضٍ وكذِب، ومخالفةٍ للحقيقة؛ فهو يَقلِبُ الحقَّ باطلًا ويقلِبُ الباطلَ حقًّا.

ووسائلُ الإعلام، وما تَنشرُه من أخبارٍ أو تعليقات مبنيةٌ في الغالب على الظنِّ والكذب، والهوى والتحيُّز، ملحوظًا أنّ الإعلامَ في الغالب يمثِّلُ وِجهةَ نظرٍ واحدة، وهي وجهةُ نظرِ الغالب، أو القويّ، أو ذي السُّلطة[٥١].

يقول فرانكل(*): «ويَزدادُ تأثيرُ الدعاية زيادةً كبيرة عن طريقِ التّكرارِ والثبات عبْرَ مدّةٍ طويلةٍ من الزمن، كما يَزداد بإزالةِ المصادر الأُخرى للمعلومات، أو التشويشِ عليها».

وأهمُّ من ذلك أنّي - وقد بلغتُ في السنِّ من الكِبَر عُتيًّا - أعرِف من تجارِب الحياة أنّ الفكرة وإن كانت مبنيةً على «وهْم» فإنها بشُيوعها وتَردادِها على الأسماع وعلى الألسنةِ تُصبِحُ كما لو كانت «حقيقة إيمانية»، لا سيَّما إن ارتَفعتْ إلى مرتبة «الشعار»؛ فإنها في هذه الحال تُعتبَر في قوّتها الإقناعيةِ لدى أكثرِ الناس بمنزلةٍ أعلى من الحقائق الرياضية[٢٥].

إنّ الإعلامَ الغربيّ - وخاصّة الإعلام الأمريكيّ - لديه قدرةٌ على توظيف مُعطَيات علم النفس الاجتماعيّ، ومنها أنّ المتلقِّيَ عادة ضعيفُ الذاكرة، وحتى لو كان قويَّ الذاكرة، فإنه عادةً لا يَلْجأُ إلى تحليلِ الأخبار ومقارَنتِها، والانتباهِ إلى معارضتِها للواقع الملموس[١].

يقول فرانكل: «إذ إنّ أكثر الناس يفتقرون إلى سَعة الأُفق اللازمة لإدراكِ أنّ ترديدَ تصريحاتٍ مّا لا يَعني صحَّتها»[٣].

وأنّ المتلقِّيَ عادةً يصدِّق من الأخبار ما يُحبُّ تصديقَه.

(*) هيرمان فرديناند فرانكل (١٨٨٨-١٩٧٧م) كان دارسًا كلاسيكيًّا ألمانيًّا، شغل منصب أستاذ اليونانية القديمة في فقه اللغة بجامعة ستانفورد.

وأنّ السياسيين والإعلاميين كثيرًا ما يُراهنون على تكنولوجيا الكِذْبة التي لا تصدق (تقنية الكذبة الكبرى)، وهي أنّ الكذبةَ إذا كانت كذبةً كُبرى وردِّدتْ ترديدًا كافيًا فسوف يصدِّقُها الجماهيرُ تصديقًا جزئيًّا على الأقلّ، هذه التكنولوجيا التي ورَدتْ في كتاب (كفاحي)(*)، ولكنْ لم تكن من اختراع (هتلر)(**) بل كان الناسُ يمارسونها من عهد (ميكافيلي)(***)، ويَعرِف الساسةُ والإعلاميون أنّ الخبر وإن ظهَر فيما بعد كذِبُه فإنّ ذلك يكونُ بعد أن حقَّق الخبرُ غرَضَه، ووجَّهَ المتلقّيَ إلى الوجهة المطلوبة[١].

ومعلُومٌ أنّ شُيوعَ الفكرةِ وسيادَتَها ولو كانتْ وهميةً يُعطِيها من إمكانية الإيمانِ بها واليقينِ ما لا تحظَى به - في كثيرٍ من الأحيان - الحقائقُ، بل يَجعلُها من المسلَّماتِ البدهيةِ التي لا تَقبلُ المراجَعة أو التشكيك[٢٢].

يقول فرانكل: «وفرضُ رقابةٍ على مصادرِ الإعلام الأُخرى أمرٌ ضروريٌّ لنجاح هذه التقنية».

على أنَّ تقنية (الكذبة الكبرى) ليس اكتشافُها ولا تطبيقُها امتيازًا لشخصٍ معيَّن؛ فالواقعُ أنّ ممارسةَ هذه التقنيةِ أمرٌ شائع، سواءٌ في الدُّوَل الدكتاتورية أو الديمقراطية. «والجُمهور في العادة لا يهتمُّ بالاستماع إلى التحليلاتِ الطويلة حوْلَ صوابِ أو خطإِ قضية مّا، ولكنه يستجيبُ بسرعةٍ للشعارات البسيطة، حتى ولو لم يكن لها ارتباطٌ وثيقٌ بالقضية، ما دامت هذه الشعاراتُ تشمَل عباراتٍ ذاتَ مُحتوًى عاطفيّ كالسلامِ والعُدوان»[٣].

وقبلَ شهرٍ من حدث ١١ سبتمبر كان قد صدَر في الولايات المتحدة كتاب: James Bamford المعنون Body of Secrets وقد تحدَّثَ فيه مؤلِّفُه بناءً على وثائقَ

(*) كفاحي هو كتاب أدولف هتلر الذي جمع بين عناصر السيرة الذاتية والشرح التفصيلي لنظريات هتلر النازية.
(**) أدولف ألويس هتلر (١٨٨٩-١٩٤٥م) سياسي ألماني نازي حكم ألمانيا ما بين ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥م.
(***) هو نيكولو دي برنارد دي ميكافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧م) كان مفكرًا وفيلسوفًا سياسيًّا إبان عصر النهضة، وهو الشخصية الرئيسة والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي.

تحتَ يدِه عن عملية North woods، وكان الجيشُ الأمريكيُّ بعد فشَلِ عملية «خليجِ الخنازير» متلهِّفًا للهجوم على كوبا، وكان في حاجةٍ لمبرِّرٍ كافٍ لكَسْرِ معارضةِ الرأيِ المحليّ والدَّوْلي لمثل هذا الهجوم، وتضمَّنت الوثائق: «أنّ الرأيَ العامّ العالميّ والأممَ المتحدة ينبغي أن يتأثَّرا إيجابيًّا بتطوير الصورة الدَّوْلية للحكومة الكوبية، بوصْفِها متهوِّرةً، ولا تَشعُر بالمسؤولية، وتُمثِّل خطرًا مُخيفًا، ولا يمكن التنبُّؤُ به على السّلام في نصف الكُرة الغربيّ». وشملتْ خُطَط الجيش لهذا الغرَض عِدّةَ بدائل، منها: قصفُ سفينةٍ حربية في جوانتنامو، ونسبةُ هذا العملِ لكوبا، كما تضمَّنتْ خُدعةً معقَّدة، بأن تُطلى طائرةٌ في قاعدة Elgin الجوية، وتُعطَى رقمًا مطابقًا لرقم طائرةٍ مدنية مسجّلة لمؤسَّسة أمريكية، وتحُلُّ الطائرة المطابقةُ الأصلِ غيرُ المأهولة والتي يمكن السيطرةُ عليها من بُعْدٍ محَلَّ الطائرةِ الأصلية في وقتٍ محدَّد، وبعد إجراءِ ترتيباتٍ معيَّنة تُواصِل الطائرةُ غيرُ المأهولة التحليقَ وَفْقًا لخُطّة الطيران، وعندما تُصبح فوق كوبا تُرسِل الطائرةُ غيرُ المأهولة إشارةَ استغاثةٍ لاسلكية دَوْلية تَذكُر أنّ الطائرةَ تتعرَّضُ لهجوم طائرات «ميج»، ويُقطَعُ الإرسالُ بتدمير الطائرة بتفجيرِها بإشارةٍ لاسلكية، ويُمكِّنُ هذا محطّاتِ اللاسلكي لمنظَّمة الطيران المدنيّ الدَّوْلية في نصف الكرة الغربيّ من إبلاغ الولاياتِ المتحدة بما حدَث للطائرة، بدلًا من مُحاولة الولايات المتحدة نفسِها تسويقَ الحادث. على أنّ أخطَرَ البدائل كان تفجيرَ مركبةِ «غلين»(*) أول رائد أمريكيّ يُطلَق إلى مدار حول الكرة الأرضية، «فإذا انفجر الصاروخُ وقُتل «غلين» يكون الهدفُ تزويدَ برهانٍ لا يُدحَضُ بأنّ المسؤولين هم الشيوعيون وكوبا»، «وأنّ هذا يمكن أن يُنجَز باختلاقِ أدلّةٍ مُختلفة تُثبت التدخُّلَ من جانب الكوبيين». وانظر: David Ruppe، U.S. Military Drafted Plan to Terrorize U.S Cities to Provoke War with Cuba، ABC 7/11/News Com، 2001.(٩)

(*) جون هير شيل غلين، الابن (١٩٢١-) كان طيارًا سابقًا في قوات مشاة بحرية الولايات المتحدة ورائد فضاء وعضوًا في مجلس الشيوخ، وكان أول أمريكي يدور في مدار الأرض.

«إنّ وسائل الاتصال والإعلام حينما تتّحدُ مع الأسلحة الحديثة، فإنه يُمكِن حينئذ أن يُوضَع الجسدُ والروحُ كلاهما تحت سيطرةِ القوة الأقوى، ونكونُ حينئذ أمامَ مصدرٍ آخَرَ للخطر يُهدِّد المجتمع الإنساني»[٣].

وللإيضاحِ يُمكِن ذكرُ مثالَيْن حديثَيْن من تداعيات حادث ١١ سبتمبر، في الولايات المتحدة الأمريكية.

المثالُ الأول: في اليوم الأول للحادث شُحنت ذهنيةُ المتلقّي بالإيحاءات بأنّ مسلمِين - ولا غيرهم - وراءَ تدبير وتنفيذِ العملية المرعبة، وفي اليوم التالي غُطّيت شاشاتُ التلفاز في الولايات المتحدة الأمريكية بصُوَر الأخوَيْن بخاري(*) الطيارَيْن السعوديَّيْن، مع التأكيد بأنهما قادا طائرتَيْن من طائراتِ الهجوم على مركز التجارة العالميّ، ومبنى البنتاجون، ثم تَبِع ذلك الإخبارُ عن توصُّل الأجهزة الأمنية للتعرُّف إلى هُويات تسعةَ عشَرَ شخصًا المشارِكِينَ في تنفيذ العملية، ومَلأتْ صوَرُهم وأسماؤهم الصحُف، وشاشاتِ التلفاز، وحوائطَ المطارات المحلية والعالمية، مع طلَب المعلومات ممن يَعرِف أيَّ شيء عن أيٍّ منهم، وأكَّد الإعلامُ توصُّلَ الأجهزة الأمنية لمعرفة جنسيات أحَدَ عشَر شخصًا من هؤلاء بأنهم سعوديون.

وقد انكشف خِلالَ الأيامِ القليلة التالية أنّ أحدَ الأخوَيْن بخاري تُوفِّي قبلَ سنة، وأنّ الآخَر لا يزال حيًّا يُرزَق، كما انكشف أنّ ثمانيةً من الأحَدَ عشَرَ سعوديًّا الذين عَرَّفتِ الأجهزةُ الأمنية هُوياتِهم بأنهم ضِمْنَ الانتحاريِّين لا يزالون أحياءً يتمتَّعون بحياتهم خارجَ الولايات المتحدة الأمريكية، أمّا الانتحاريُّ التاسعُ الذي وُجِد جوازُ سفرِه سليمًا، فلا تَزالُ كيفيةُ وصولِ هذا الجواز إلى الإدارة الأمريكية لُغزًا لم يُحَلّ!.

إنّ قيامَ هؤلاء الأشخاص بمستوَى تأهيلِهم المذكور بمناوراتِ الطيران والهجومِ - حسَبَ ما جاء في وصف الروايات الرسمية - واحدةٌ من العديد من خوارقِ العادة

(*) هما الأخوان السعوديان أمير وعدنان بخاري.

التي صاحَبَتْ حادث ١١ سبتمبر كما ورَدت في الروايات الرسمية، ولكنّ غرابةَ هذه الخوارق لم تكن بأعجَبَ من سهولة تصديق الناس بوقوعها، في هذا العصر الموصوف بعَصْر العلم والعقلانية، والتحيُّزِ ضدَّ الغيبيات والميتافيزيقيات صحيحِها وباطلِها![٥٢].

وقد صـدَرتْ عدةُ كتـب لمؤلِّفين أمريكيِّـينَ وغيرِ أمريكيِّـين يتمتعون بالاحترام والسُّـمعة الجيدة مـن الناحيتَيْن الحرفية والأخلاقية، تَكشِـف عـن خروقاتٍ تتعذَّر على الترقيع في التفسـير الذي بِيعَ على العالم لحدث ١١ سـبتمبر، ذلك التفسـيرُ الـذي بُنيـتْ عليه نتائـجُ بالغةُ الخطـورة، ومن هـذه الكتب: كتـاب «New Pearl Harbor» لمؤلِّفـه «Erich Erich Hafchmed» وكتابُ «Painful Questions» لمؤلِّفه «Jim Marrs» وكتـابُ «Inside Job» لمؤلِّفه «David Griffen»، وكلُّها تتّهِم قوّةَ نفوذٍ محلية بالتخطيط للحدث الإجراميّ، أو المساعدةِ على وقوعه.

وحتى بعد انكشاف هذه الحقائق بمدَّةٍ طويلة ظلَّتْ صـوَرُ الأحياءِ وأسماؤهم تُزيِّن حوائطَ المبـاني العامة، والمطـاراتِ الدَّوْلية.

علـى أنَّ الأمر الذي يحمِلُ أكثرَ من دلالةٍ أنّ الإعلام الأمريكيّ وغيْرَ الأمريكيّ – علـى خلافِ العـادة بالاهتمـام باقتناص الخبر المثير، وليس أكـثرَ إثارةً من ظهور المنتحِريـن أحياء – لم يهتمَّ بهذه المعلوماتِ الحقيقية المثيـرة، بل تمّ تجاهلُها إلى حدٍّ كبيـر، ونتيجـة تغييـبِ هذه الـمعلـومات الـمثيـرة فـي الإعلام، فـإنّ قليـلًا من النـاس عَرفوها.

ولم تُقدَّم – فيما يُعلم – أيّةُ كلمةِ اعتذارٍ لأيٍّ من هؤلاء المطلوبين الذين شُـوّهت سـمعتُهم عالميًّا دون حقّ، ليس فقط بسـبب هوانهم على الناس بل ربّما لأنّ الاعتذارَ لهم سـوف يُؤثِّر سـلبًا على حجْبِ المعلومة عن أن يطّلِع عليها الناسُ داخِلَ الولايات المتحدة وخارجَها[٩].

ولكن هل كان نشرُ المعلوماتِ الزائفة وحفاوةُ الإعلامِ بها نتيجةً لخطإٍ غيرِ مقصودٍ وقع مصادفة؟ وهل تتكرَّرُ المصادفة عشْرَ مرات؟ وإن كان مقصودًا فهل كان الهدفُ منه إحداثَ صَدْمةٍ نفسية للمملكة العربية السعودية تخلُق عندَها الشُّعورَ بالذّنْب والاستعدادَ للتكفيرِ عنه؟ أم أنّ الهدفَ استعادةُ الشعب الأمريكيّ ثقتَهُ بأجهزتِه الأمنية، بقُدرتها على التعامُل مع مثلِ هذا الحدث؟ أم أنّ الهدفَ إقناعُ الشعب بحِكْمة القراراتِ التي ستتّخِذُها حكومتُه فيما عُرِف بالحرب ضدَّ الإرهاب؟ مُهِمًّا كانتِ الإجابةُ فهي تُوضِّحُ عن مدَى صِحّة اعتبارِ «الإعلام» عُنصرًا مُهِمًّا من عناصر القوة[٣].

المثال الثاني: بعد شهرٍ تقريبًا من وقوع الحدث الإجرامي في ١١ سبتمبر كانت رسائلُ توجَّهُ لأعضاء في الكونجرس، أو لصحفيِّين كبار، تحتوي على مسحوقِ بكتيريا الجمرة الخبيثة، وتحمِلُ عبارات: «الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، الله أكبر»، وقامت الدنيا ولم تقعُد، وتشبَّعَ جوُّ الولايات المتحدة بالرُّعب والغضَب والنِّقمة على الإرهابيين الإسلاميين الذين يحوزون الآنَ السلاح البيولوجي، وقد شرعوا فعلًا يستخدمونه بإرسال الرسائل المشار إليها، لاسيَّما بعد وقوع إصابات فعلية انتَهتْ أحيانًا بالوفاة.

ولكنْ بعدما كَشفتْ خبيرةُ السلاح البيولوجي باربرا روزنبرج أنّ مسحوقَ البكتريا المستخدمَ في الرسائل يبلُغ درجةً من النقاء (ترليون جرثومة في الجرام الواحد)، والمسحوقُ بمثل هذه الدرجة من النقاء لا يُنتَجُ إلّا في معامل الجيش الأمريكيّ، وربما في معامل الجيش الإسرائيليّ.

بعد هذا الكشف سكتَتِ الضجّة، ونَسِيَ الشعبُ الأمريكيُّ الرعبَ الذي ظلّ يلفُّهُم، كما نُسِيتْ قضيةُ الموتى والمصابين، ولم يُوجَّه الاتهامُ رسميًّا إلى العالم في مختبَرات الجيش الأمريكيِّ بروس إي أيفنز بالمسؤولية عن إرسالِ الرسائل، وما نَتج عنها إلّا في شهر أغسطس عام ٢٠٠٨م، بعدما مات المتَّهَمُ بأسبوع، وماتت معه إلى الأبدِ أسرارُه[٩].

ومـن بين ثلاثمائة مليـون مواطن أمريكي لم يَسـأل واحدٌ منهم: لمـاذا خدعَتْنا حكومَتُنا الديمقراطية؟، وسـمحَت بالرعب وتداعياته أن تدخُل كلَّ بيت؟، وبتزييفِ حقيقة الواقعة، وهي تعرفُها من أوّلِ يوم إن لم تكن المتورطةَ فيها؟![٤٣].

* * * * * *

في الحقيقة ليسـت الحوادثُ الإجرامية الشنيعة في الولايات الـمتحدة أو أسبانيا هـي التي دفَعت الإعلامَ في أوروبا وأمريكا للخطاب السـلبيّ تُجاه المسـلمين، بل إنّ الإعلام اسـتغَلَّ تلك الحوادثَ استغلالًا من شـأنِه التأثيرُ على الرأي العامِّ بالصورة التي شاهدناها[١].

وفي تقرير U.E.M.C المنشـور في ٢٣ مايو ٢٠٠٢م حَمَّل التقريرُ الإعلامَ المسـؤوليّةَ عن مَوْجةِ العنف التي وُجِّهت بعد ١١ سـبتمبر ٢٠٠١م في دُوَل الاتحاد الأوروبيّ ضدَّ المسلمين أفرادًا ومؤسَّسات، والتي وصلَتْ في بعض الأحيان إلى حَرْقِ الجوامع، وإلقاءِ القنابل عليها، وضـرْبِ الأفراد، بل قتْلِهم، وحسَـبَ التقرير لم يكن نصيبُ السويد في هذا العنف المتطرِّف ضدَّ المسلمين أقلَّ من نصيب المملكة المتحدة، والدانمارك، وهولندا.

وبالطبع لا أحدَ يقولُ: إنّ ارتباطَ العدوانية بصـورةِ المسـلم راجعٌ إلى أنّ التكوين البيولوجيَّ لجسـم المسـلم يجعلُه أكثرَ إفـرازًا للأدرنالـين، وإنما يدَّعِـي الغربيون أنّ الإسـلامَ بطبيعته هو المسـؤولُ عن مِزاج المسلم، وسـلوكِه، وظهورِه في تلك الصورة النمطية، وهذا التصوُّرُ في الثقافة الغربية للمسلم والإسلام يدُور في حلْقةٍ مُفرَغة، فهو يُغذِّي وسـائلَ التثقيف والإعلام «السينما والتلفزيون والصحافة ومؤلفات الكتّاب»، وفي الوقت نفسِه تعمَلُ هذه الوسائلُ على تثبيت هذه الصورةِ النمَطية وتنميتها.

عندمـا حدثَتْ أعمالُ الشـغَب والعنف في فرنسـا - التي بـدأت في ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٥م، وامتدَّتْ إلى قرابةِ ثلاثمائة مدينة وقرية - نُسـبت إلى الإسلاميين، وبُنيت علـى هذا الأسـاس تعليقاتُ المعلِّقـين وآراءُ المحلِّلين خاصّـةً في أوروبـا، والولايات

المتحـدة الأمريكية، وتمحـوَرتْ حولها ضوضـاءُ الإعلام العالميّ، حتـى الإعلامِ في العالم العربيّ والإسلاميّ، على سبيل المثال نُلخِّص رأيَ المفكر والفيلسوف الفرنسي Allen Finkielkrout كمـا ورد في مقالِ الأسـتاذ جوزيف سـماحة(*) في «البيان»، بتاريخ ٢٨/١١/٢٠٠٥م فيما يأتي:

إنّ التمرُّدَ الذي حصـل ليس له أيُّ سـببٍ اقتصاديّ أو اجتماعيّ؛ إنه تمرُّدٌ دينيّ إثنـيّ، فعلٌ عنصـريّ وليس ردًّا على العنصـرية، إنَّ ما جرى هو تعبـيرٌ عن كراهيةٍ للغرب ولفرنسـا الجمهورية، ردُّ فعلٍ متأخِّرٍ على الماضـي الاسـتعماريّ الذي تدرِّسُه فرنسـا بصـفته ماضيًا سـلبيًّا بدلَ أن تقدِّمَهُ على حقيقته بصـفته نقلًا للحضارة إلى المتوحِّشين، التمرُّد جزءٌ من الحرب التي يشُنُّها بعضُ العالم العربيّ والإسلاميّ على الغرب وحضـارتِه المسيحية اليهودية، إنّ الحلَّ الوحيدَ هو الحلُّ الأمنيُّ للمشكلة، إذا كان المهاجرون لا يَشعرون بأنهم فرنسيون، فما عليهم إلا الرحيل. اهـ.

إنّ أخذَ هذه الآراءِ نموذجًا للتصـوُّر الغربيّ تُجاه الإسـلام يبرِّرُه أنّ صـاحبَها أحدُ مثقَّفي فرنسـا البارزين، وأحدُ نجوم النشـر والإعلان المؤثِّرين في صياغة الرأي العام، وحتى عندما صـرَّح رئيس الاستخبارات الداخلية الفرنسية في ٢٥/١١/٢٠٠٥م أنّ المتشـدِّدين المسـلمين غيرُ متورِّطين في أعمال الشغَب المشار إليها، وقال رئيسُ جهاز «جي. إس. بي» لراديو «آر. بي. ال»: (إنّ التيار الإسلاميَّ ليس له صلةٌ بالأحداث، وعلينا أن نبحثَ عن أسـبابٍ أخرى)، وقال عن الإسلاميين: (إنها ليست معرَكتَهُم لذلك لم يُشـارِكوا فيها)، بالرغم من هذه الحقيقة المعلَنة فقد ظلّ الإعلامُ والرأيُ في الغرب يربِط بين تلك الأعمالِ من أعمال الشغَب والعنف وبين الإسلام(٩).

إنّ الافتراءاتِ وضَوْضـاءَ التشـويهِ التي هي ما يَشغَلُ به أعداءُ الإسلام أنفسَهُم، وما يُسـخِّرون به آلةَ الإعلام الدجّالي أثَّرتْ على تصـوُّرات بعض المسلمين، فكادوا يصدِّقون دجَلَ الإعلام الغربيّ(١٥).

(*) جوزيف نصري سماحة (١٩٤٩-٢٠٠٧م) صحافي لبناني.

وساعَد على ذلك استعمالُ الإعلاميِّين لمصطلحاتٍ غامضة، كالأصولية، والغلوّ والتطرف، والإرهاب، فأصبحتْ هذه المصطلحاتُ - بسبب غُموضها وعدمِ تحديدها والنسبيةِ المطلقة لمدلولاتها - تُثير مخاوفَ وهمية، وردودَ فعلٍ لا عقلانية، وتوجِد بلبلةً واضطرابًا في تقويم المجتمع للأشياء، والأشخاص، والآراء.

ومن أبرز التحدِّيات ضدَّ الدعوة الإسلامية الحاجزُ الفكريُّ الهائلُ المتّسِمُ بالقوة والشمولِ الذي يركِّزُ على تشويهِ الإسلام، وتزييفِ الحقائق عنه، وإيجادِ أفكارٍ سابقة مضلِّلة تشكِّلُ دفاعاتٍ يصعُب اختراقُها من قِبَلِ أيِّ نصير للحقّ وعدوٍّ للزيف والتضليل[٦].

* * * * * *

ربما لم يحدُث في التاريخ من قبلُ أنّ كذبةً بلغت من الشيوع والانتشار في وقتٍ قصيرٍ - إلى درجةِ أن يصدِّق بها المظلومون بها، وأن يُشيعَها أبلغُ مَن تضرَّر بها في جوانب حياتِهم الدينية والوطنية، وإلى درجةِ أن بُنيت عليها قراراتٌ دَوْلية وقومية، ونالت أضرارُها المدمِّرةُ مئاتِ الألوف من الأبرياء - مثلُ كذبة أنّ المؤسَّساتِ الخيريةَ الإسلاميةَ وبخاصةٍ السعودية دَعمتْ في شكلٍ أو آخَرَ عن قَصْدٍ أو غيرِ قصْدٍ أنشطةً إرهابية[٥٣].

ومع الأسف الشديد، فإنّ بعض الكتابات في الصحف المحلية وبعضَ التوجُّهات داخلَ الإعلام المحليّ في بلدان الخليج ساهمَتْ - غيرَ مشكورة - في هذا السلوك الظالم، وذلك بالإلحاحِ على تشويه المؤسّسات الخيرية، وإثارةِ الغُبار حولَ نشاطها، والتحريضِ عليها، إمّا من قِبَلِ قلّةٍ من الإعلاميين من المتصحفين الأغرارِ الذين جمعُوا بين الجهلِ والطّيش وانعدامِ الإحساس بالمسؤولية، أو من قِبَل قلّةٍ من الأكاديميين والمتأكدمين، ولكنّ هذه القَلّةَ مع الأسف مرتفعةُ الضجيج، مثيرةٌ للاهتمام، وتنطلِقُ من رؤيةٍ عامّة متحيِّزة ضدَّ التديُّن والمتديِّنين، وهي إذ تُكثر الحديثَ عن الديمقراطية

والمشاركةِ في صنع القرار السياسيّ وحريةِ الرأي والتعبير وحقوقِ الإنسان تتنكَّرُ للحرية الشخصية إذا بدا أنّ لها علاقةً بالتديُّن والمتدينين، هي مع الأسف تنطلِقُ من نَزعةٍ عدَمية؛ إذ تهدِمُ وليس لديها بديلٌ تقدِّمُه، والأساسُ في هذا كلِّه ضعْفُ النزوع الأخلاقيّ - في الأبعادِ الثلاثية للإنسان عند فرانكل - لديها، وهشاشةُ الإيمان بمبدإٍ ثابت، وقد نشأ ذلك عن عجزِ هؤلاء عن الانعتاق من فقْرِ القلب ومرَضِه، ومن الأنانية والنرجسية والتعالي وبَطَرِ الحقّ وغَمْط الناس، ومن العجْزِ عن الانفتاح على العالم خارجَ الذات بكرَمٍ وسماحة[٢].

ولسوء حظِّ مجتمعاتنا، فإنّ الإعلام المحليّ في البلدان الإسلامية بدافعٍ من الغفلة أو ضعْفِ الحسّ الوطنيّ أو اختلالِ الشعور الإسلاميّ لم يكتَفِ بدَوْرِ الشيطان الأخرس، فيتخاذَلَ عن الدفاعِ عن مؤسساته الوطنية، والصدعِ بالحق، وكشفِ الزيف، والوقوفِ في وجه الظلم، بل أخذَ دَوْر الشيطان الناطق، فدأَبَ على ترديد اتِّهام المؤسسات الخيرية الإسلامية بالعلاقة مع الإرهاب، ونَفخ في الشائعات المغرِضة، حتى أصبحت فكرًا شائعًا، ورأيًا عامًّا، مما أضعفَ ثقةَ الجمهور بالمؤسَّسات الخيرية الإسلامية، وصار الإعلامُ المحليُّ بذلك معاوِنًا للإثم والعدوان، متحيِّزًا لصفّ أعداء الإسلام والمسلمين.

ومن الظواهر الاجتماعية الواقعية أنَّ الفكرة الوهميّة عندما تتردَّدُ على ألسنة الجمهور تَكسِبُ قوّتَها من تَردادِها، فيُصبح لها تأثيرُ الحقائق البدهية، وبما أنّ الموظفين الحكوميين هم جزءٌ من نسيج المجتمع فمن الطبيعيّ أن يكونوا محكومين بمشاعرِ هذه (الفوبيا)[*] ضدَّ المؤسّسات الخيرية، وأن تتنامى هذه المشاعرُ لديهم حتى تتحوّلَ إلى عُقدةٍ نفسيّةٍ يَغيب معها التفكيرُ العقلانيُّ المتوازنُ المبنيُّ على مقاييسَ واقعية، ومعاييرَ موضوعية، فكان من الطبيعيِّ أن يغلُوَ هؤلاء الموظفون في اقتراح القيود على

(*) الفوبيا أو الرهاب مرض نفسي يعرف بأنه خوف متواصل من مواقف أو أنشطة معينة عند حدوثها أو مجرد التفكير فيها.

المؤسّسات الخيرية، والتوصيةِ بالإجراءات المعوِّقة للعمل التطوعيّ.

كانت النتيجةُ لهذه القيود والإجراءات أن تَحقِنَ مزيدًا من الشكوك، وضعْفِ الثقة تُجاهَ العمل الخيريّ في المجتمعات الإسلامية، وهكذا تم خلْقُ «الحلْقة المقيتة»، الشائعاتُ الرائجة تَدفعُ الموظَّفَ لاقتراح مزيدٍ من القيود، وهذه القيودُ تؤكِّد مصداقيةَ الشائعات، وتنفُخ فيها، وهكذا[٥٣].

إنّ اكتشافَ المرض والعزمَ على علاجه هو أولُ خُطوةٍ في طريق العلاج[٥].

ولا يبدُو أنه يوجَدُ علاجٌ لهذا المرض العُضال إلا بنفْي أسبابه، وذلك بتوعية الرأي العام، وكشفِ الحقائق أمامَهُ، والمثابرةِ على إطْلاعه على الوقائع[٥٣].

ولا شكّ أنّ الجهاد في سبيل الحقيقة هو من الجهادِ في سبيل الله، ولا سيَّما في مثل هذا العصر، الذي رُبما لم يسبِق له مثيلٌ في تاريخ الإنسانية، من حيثُ القوة القاهرة لسُلطانِ التضليل وتشويهِ الحقائق، وإلباسِ الحقِّ ثوبَ الباطل والباطلِ ثوبَ الحقّ.

إنّ تكنولوجيا الإعلام وتصريحاتِ السياسيين وكتاباتِ المثقفين قد خلَقتْ فتنةً دجّالية، تُشبِه - إلى حدٍّ يدعو إلى الدّهشة - ما تصِفُ به النصوصُ الدجّال الأكبر الذي يأتي آخِرَ الزمان.

وهذا الوضعُ يقتضي الاستجابةَ للحاجة الماسّة الملحّة إلى مُقاومة الفتنة، والتصدِّي للدجَل، ونصرِ الحقيقة، وأن تُبذَل في هذا السبيل أقصى الجهود على كلِّ المستويات[٢٩].

وقد اخترع الإعلامُ الغربيُّ اليهودي رموزًا لغوية، مثل الأصولية والتطرُّف والإرهاب، فعلَتْ فعْلَها الهائلَ في العقل الباطن والواعي للمتلقِّي، فأوجدَتْ لديه حالةً من «الفوبيا» ضدَّ الإسلامِ والعملِ له[٦].

١ـ الوطنية:

مفهـومُ الوطنية Nationalism من أعظم المؤثِّـرات – إن لم يكن أعظمَها – على الحياة في العصـر الحاضـر، ومن الخطورة البالغة ألا يوجَد لدى أيِّ بلدٍ مفهومٌ واضح للوطنية على أساس رأيٍ عامّ[٥٤].

والمصـلحةُ الوطنية والقـوة التي نرددها الآن «المصـلحة الوطنيـة أو القومية» وأنّ العلاقـات يجبُ أن تُبنى على المصـلحة الوطنيـة و... و... و... نردِّدُها ترديدَ البَبْغاء هذه هي التي خلقَتِ الأزمةَ السياسية، التي أوجدت هذه المعاناةَ للبشر[٤٢].

إنّ المبدأَ المشـؤوم (المصلحة القومية والقوة) من ناحية الواقع هو موجِدُ أعظمَ أزمةٍ يواجِهُها إنسـانُ العصر الحاضـر، وهو سببُ أسوإِ ما يُعانيه البشـرُ من المَآسي والظلم والطغيـان، ومن ناحيـةِ العقل فلا يفترق هذا المبـدأُ عن المبدإِ الـذي يوجِّه ويحكُمُ سـلوكَ قاطع الطريق، أو عِصـابة الإجرام المنظّم، أو الحيوانات الوحشية، الفرقُ أنّ ما يدَّعى بأنه مصلحةٌ قومية أو وطنية لا يكون دائمًا مصلحةً حقيقية للوطن، وإنما مصلحةٌ موهومة، أو مصلحةٌ لطائفةٍ ذات نفوذ[١٥].

حين وُجدت في أوروبا قبل مائتي سنة الأيديولوجيةُ التي عرفت بـ Nationalism (القومية) كان لها طَوالَ القرنَين الماضيين أثرٌ شاملٌ وعميق على الحياة العامة والخاصة، في عـالم الغـرب أولًا ثم في بقية العـالم، أو كما تعـبر Encyclopedia Britannica (الموسـوعة البريطانية): «من الشـائع الاعترافُ أنّ هذه الفكرةَ سـاهمت في صياغةِ الحيـاة العامة والخاصـة، وأنها واحـدةٌ من أكبر العوامل – إن لم تكـن أكبرَها– التي شَـكّلت التاريخَ الحديث». وقالت: «إنها تُعتبَر سببًا أساسيًّا في نُشوب الحرب العالمية الأولى، والثانية، وكثيرٍ من حروب العصر الحاضر».

وعبرت عن ذلـك Encyclopedia Americana (الموسـوعة الأمريكية) بأن الـ Nationalism (القومية) كقوّة سياسـة لعبـت دَورًا مهِمًّا عبر العالم، فخلالَ القرنَين

الماضيين كانت الوسيلةَ الأسهلَ والأكثرَ فعاليةً في يد المنظّمات والقادة للمجموعات القومية؛ لخلْقِ الدعم، والحماس، والتأثير.

الفكـرُ الغربيّ بخاصـةٍ والفكـرُ العالميّ بعامـةٍ يُلاحِظ علـى أيديولوجية الوطنية Nationalist نُقَط ضعفٍ شائعة، ومن ذلك:

الغموض:

جـاء في Encyclopedia Americana: «بسـبب أنّ الوطنيـة Nationalist تَظهر في ثيابٍ مختلفة وبسـبب أنّ هذا المصـطلحَ يُسـتعمل لأغراضٍ مختلفةٍ صار مفهومًا غامضـا، إنّ أيَّ تحليل لـ Nationalist يواجَهُ بالتعقيد؛ بسـبب استحالة فصل دَورِه عن أدوار العواملِ الأخرى، السياسية، والثقافية، والاقتصادية».

قصور صفة الواقعية:

جاء في الموسـوعة نفسـها: «في الحقيقة أن Nationalist يمكن أن تُسـتخدَم من خلال الدعاية، أو التعليم؛ لحمْلِ الجُمهور على تَبنِّي اتِّجاهٍ على أساس معيَّنٍ بتشجيع، أو حتـى خلْقِ شـعور وطنـي National Consciousness مبنيٍّ على أسـاس أوهام Myths بوجود هُويةٍ عامة واختلافٍ عن الآخَر».

سلبياتٌ خطيرة تتعلقُ بالتحررية والاستقرار:

جاء في الموسـوعة نفسـها: «أن الـ Nationalist قد سـرَّعتْ سـقوط الشيوعية، ولكـنّ العلاقـة بينها وبين التحررية موضـوعُ جـدل؛ ففي الوقت نفسِـه ظهرت الـ Nationalism مصدرًا قويًّا للمعارضة الدَّوْلية، وعاملًا أساسيًّا Major Factor لعدم الاستقرار المحليّ والدَّوْليّ».

عندما ارتفعت وتيرةُ الاتصـال الثقافيّ بين أقطار الخلافـة العثمانية وأوربا في آخِر القرن التاسـعَ عشَـرَ وأوّلِ القرن العشـرين كان من الطبيعيّ أن تكـون أيديولوجيةُ

الـ Nationalism (القوميـة) هي أوّلَ ما يَحظَـى باهتمام أبناءِ تلـك الأقطار، وأن يُسـنِدوا إليها الفجـوةَ الكبيرةَ في التقدُّم المـاديّ والمعرفيّ بين أوروبـا وأقطار الخلافة العثمانية، وأن يَتمنَّوْا تلك الأيديولوجيةَ لبلادهم، فالوطنيةُ هي المفردة التي شـاعت في العالم العربيّ مثالًا لمفردة (Nationalism) (القومية).

إنّ اختيارَ جذْر وطن مقابلًا لجذر Nation الدالّ على المجموعة البشرية، أو لدى الفـرد في البلاد العربية (الـدول العربية) مفهومٌ غيرُ محـدِّد للوطنية، يتمحور حول (المـكان) في حـين أنّ اختيارَ جذْر Nation في الدول الأخـرى هُيِّئَ لأن يتمَحْور في مفهوم Nationalist على (الإنسـان)، ومن هنا كان الاختلافُ الأسـاس في التصوُّر بـين العـرب وغيرِهم من الـدُّوَل الأخرى. (قارن الألفاظ: عصـبة الأمـم، أو الأمم المتحدة، مع جامعة الدول العربية).

وهذا يُيسـر لنـا فهْمَ الاختلاف الجوهريّ في تصـوُّرِ الوطنية بـين البلدان العربية والبلدانِ الأخرى خارجَ العالم العربيّ.

ومفهومُ (الوطنية) في العالم ليس واحدًا، ويختلف بين دولة وأخرى.

ومـن الطبيعيِّ في مجال فكرة (الوطنية) أن يُعبِّر غيرُ العربي بـ (الأمة الفرنسـية) و(القومية الفرنسـية)، والإيطالي (الأمة الإيطالية) و(القومية الإيطالية) مثلًا، ولكنْ ليس من السـهل علـى العربيّ وهو يتحدث عن الوطنية الكويتيـة والوطنية القطرية أو الوطنية البحرينية أن تَرِد على لسـانه مهْما كان حماسُـه للوطنية وارتفاعُ صوته بها أن ترِد على لسـانه (الأمة) القطرية أو البحرينيـة أو الكويتية أو (القومية) القطرية أو البحرينية أو الكويتية.

لقـد كانت ولادةُ فكرة (الوطنية) العربية مصـاحبةً لولادةِ فكرة الوطنية التركية، بـل كانت ولادتُهما من رَحِم واحدة، ولكنْ كما أنّ الأتراك لم يكن لديهم لَبْسٌ ولا حَيْرة في أمرِهم، فاختاروا المفهومَ السائد في أوروبا، وهو المفهومُ المؤسَّس على العوامل

الوضعية، فلم يكن لديهم لَبْسٌ أو حَيرة في اختيار المصطلحات الدالة، فاختاروا المصطلحات (Nation, Nationalism, National Anthem, National Flag, Nationalist) وما يقابلها في الدول الأخرى، لكنهم اختاروا اصطلاح (وطن دشلك) مقابلًا لاصطلاح (Nationality).

أمّا بالنسبة للبلاد العربية فنواجِهُ تعقيدًا محرِجًا؛ إذ تتّسِم المصطلحاتُ في هذا المجال بالقلق؛ فقد اختير مصطلحُ أمة تعريبًا لكلمة Nation، وكلمة وطنية أو قومية مقابلًا لكلمة Nationalism، وكلمة وطني مقابلًا لكلمة National و Nationalist، كما عرّبوا أحيانًا كلمة National وكلمةَ Nationalist بعبارة قوميّ، وفي الغالب اختاروا اصطلاح «العلم الوطنيّ» مقابلًا لـ National Flag، وعبارة النشيد الوطني مقابل National Anthem.

وزاد الأمرَ تعقيدًا أنّ لفظ (وطنية) عُرِّب به لفظ Patriotism، ولفظ وطنيّ عُرِّب به لفظ Patriot وPatriotic، وأنّ لفظ جنسية (عرقية) عُرِّب به لفظ Nationality.

فيما يتعلَّقُ بالأتراك لم يكونوا على لَبْسٍ من أمرهم، فتبَنَّوا المفهومَ المؤسَّس على العوامل الوضعية، فأسّسوا المفهوم على أساس الاتّحاد في العِرْق الطورانيّ، والتقاليدِ المشتركة للقبائل التركية، والاتّحاد في اللغة التركية، بالإضافة للوضع الجغرافيّ.

أما فيما يتعلّقُ بالعرب فلم يكن الأمرُ أمامَهم بتلك السهولة بل كان موجِبًا للحَيرة.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أُجهِضت أهدافُ العرب في الثورة العربية، وشُتِّت العالم العربي في كِيانات منفصلة، تَفصِل بينهما حدودٌ مصطنَعة تحت سلطان الإمبريالية الأوروبية، فعلى سبيل المثال شُتِّت الإقليم المسمى «الشام» طَوال العصور إلى أربعةِ كيانات مستقلّة سياسيًّا عن بعضها، سُمّيت سوريا، ولبنان، وشرق الأردن، وفلسطين، وكانت خُطة القوى الإمبريالية المضيَّ في الشَّرذَمة والتشتيت، بحيث تُشكَّل كياناتٌ أصغر تُسمّى دولةَ الدروز، ودولة العلويين، إلا أنّ تطرُّفَ الخطة عاق تمثيلَها على أرض الواقع.

واستسلم أبناءُ تلك الكيانات المصطنَعة للأمر الواقع، وبدأ هذا الواقعُ يترسَّخ في تصوُّراتهم حقيقةً من حقائق الحياة، ونمت المشاعرُ والعواطف حوله، وصار هذا الوضعُ الواقعيُّ الجديد يحكُم القرار السياسيَّ في داخل الكيانات الجديدة، وصار التمايُز بينهما مثلَ أو أبلغَ مما بين دولةٍ وأخرى، من حيثُ تصوُّر الـ Nationalism (القومية) والمشاعر والعواطفِ السياسية اتّجاهه.

وفي صياغة تصوُّرٍ لهذا المفهوم نشأَتْ حركةٌ فكرية، بدأت في الغالب من أوساط الأقليات الدينية، وارتفعت الأصواتُ بتأييدها، وجَهَدتِ القوى الإمبريالية في تثبيتها، ونعني بهذه الفكرة صياغةَ المفهوم على أساسٍ من أوضاع تلك الأقطارِ قبلَ وجود التاريخ العربي الإسلاميّ، والقفزِ قُرونًا متطاولةً للوصول إلى الفرعونية، والفينيقية، والآشورية.... إلخ، وكان للفرعونية بصفةٍ خاصة قبولٌ واسع وتأثيرٌ عميق على الحياة السياسية والثقافية في مصر.

لقد ظهرت تلك الكِيانات العربية دُوَلًا مستقلّةً عن بعضها ومنفصلةً بحدودها وجنسياتها.

كانت مصرُ دَوْلةً ملكية دستورية، تحت نوعٍ من السلطة الاستعمارية الإنجليزية بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد انتهاء الحرب بسبع سنوات قامت الثورة المصرية، فتغيَّر مفهومُ الوطنية (القومية)، فتغيَّر نظامُ الحكم وفلسفتُه، ورموزُ الوطنية كالعلَمِ والنشيدِ الوطنيّ وشعارِ الدولة.

* * * * * *

لضمان اختيار مفهومٍ للوطنية أقربَ إلى الوضوح والدِّقّة والصِّحة ينبغي قبلَ ذلك إيجادُ مفهومٍ مجرَّدٍ مثاليّ للوطنية؛ ليكون مقياسًا للمقارنة، تُقيَّم وتُقاس به صِحّةُ ووضوحُ أيِّ مفهومٍ آخَر للوطنية؛ لذا أقترِحُ أن يُبنَى هذا المفهومُ المجرَّد على متطلَّبات ضرُورية تُستفاد من الوعي بإيجابيات أيديولوجية الوطنية (Nationalism) وسَلبياتها في تجارِب العالم.

وأقترحُ أن يستجيب هذا المفهومُ المجرد لسبعةِ متطلبات أساسية:

أ- أن يكون عقلانيًّا، لا بمعنى فقط ألا يخالفَ العقل، بل أن يكون العقلُ يقتضيه، وحيثُ إنّ لفظ العقل يُساء استعمالُه كثيرًا - فيُطلَق ويُعنَى به التصوُّرُ الذهنيّ - فإنّ المقصودَ بهذا اللفظ هنا الأمرُ المبنيُّ على المقاييس المنطقية المتفقِ عليها بين الناس الأسوياء (العقلاء).

ب- أن يكون واقعيًّا، لا بمعنى فقط ألا يخالف الواقع، وإنما أن يكون الواقعُ يقتضيه.

ج- أن يكون قابلًا للأدلجة؛ بناءً على أنّ الفكرة تبلُغُ قمّةَ تأثيرِها عندما تتحوَّلُ أيديولوجيةً (عقيدة)، والتعبيرُ عنها إلى شعار.

د- أن يتوافر له الانسجامُ بين عناصرِه وبينه وبين البيئة الخارجية؛ لأنّ ضعف الانسجام يعني الاختلافَ والتناقُضَ في داخل الفكرة بما ينتهي إلى هَدْمها.

هـ- أن يتّصف بالثبات والاستقرار.

و- أن يتصف بالاعتدال والتوسُّط، فلا يَسمَح بالتقوقع والانكفاء على الذاتية، ولا يكونُ قابلًا للتحلُّلِ والذَّوَبان وضعْفِ الهُوية وتآكُلِها أو انعدامِها.

ز- أن يتوافَر له الحَصانةُ أو المناعة في مواجهة الأمراض الاجتماعية التي تُصاحِب غالبًا أيديولوجيةَ الوطنية، مثل الشوفينية، أو العنصرية، أو الخوف الوهميّ من الغير، أو العُدوانية ضدَّ المهاجرين[٥٤].

رأَيْنا أنّ المصلحةَ الوطنية الحقيقيةَ يَصعُب تعيينُها، وأنه ليس من الضروريِّ أن تُحكَم بمعاييرَ موضوعية، وأنّها قابلةٌ بصفةٍ فائقة للمرونة والتكيُّف في يدِ صانع القرار، وأنّ للإعلام - مع هشاشة صدْقِه وضعْفِ موضوعيّته وخضوعِه للأهواء والمصالحِ الخاصّة - الدَّوْرَ الأهمَّ في تعيين المصلحة الوطنية[٣].

ومعلومٌ أنّ شُيوعَ الفكرة وسيادتَها – ولو كانت وهميّةً – يُعطيها من إمكانية الإيمانِ بها واليقينِ ما لا تَحظَى به – في كثيرٍ من الأحيان – الحقائقُ، بل يَجعلُها من المسلَّمات البدهية التي لا تَقبل المراجعةَ أو التشكيك[٢٢].

* * * * * *

كتب جاك ماريتان[*] الفيلسوف الفرنسيّ في كتابه (The Range of Religion): «إن كنّا نَوَدّ أن نمهِّد للسلام في وَعْي الأمم فلن يكون ذلك إلا إذا اقتَنعنا بأنّ السياسة الصحيحة هي أولًا وقبلَ كلِّ شيءٍ السياسةُ العادلة، على كلِّ شعْبٍ أن يجاهِد لكي يَفهَم نفسيّةَ الشعوب الأخرى، وتطوُّرَها وتقاليدَها، وحاجاتِها الماديّةَ والمعنوية، ويعترفَ بكرامتِها ودَورِها التاريخيّ. وكلُّ شعب لا يجوز له أن ينظر إلى مصلحتِه فقط، بل إلى الصالح العامّ لكلّ الشعوب، إنّ وضعَ المصلحةِ القومية فوقَ كلِّ شيءٍ وسيلةٌ مؤكّدةٌ لفَقْد كلِّ شيء، إنّ العالَم الحرَّ لا يمكن تصوُّرُه إلا بالاعتراف بأنّ الصدقَ هو التعبيرُ عمَّا هو واقع، والصوابَ هو التعبيرُ عمَّا هو عادِل، وليس هو التعبيرَ عمَّا هو نافعٌ في وقتٍ معيّن لمصلحةِ مجموعةٍ بشريةٍ معينة.

إنّ المساواةَ الحقّة بين الناس تجعَلُ التعصُّبَ العنصريّ والطبقيّ والطائفيّ والتميُّزَ العنصريّ جرائمَ تُرتكَبُ في حقّ الإنسان، كما تجعلُه تهديدًا قويًّا للسلام».

ويقول رينولد نيبر: «إنّ تاريخنا المعاصر – هو في واقعه – مثَلٌ ناصعٌ للوسيلة التي يُباغِت بها الإلهُ كبرياءَ الإنسان وغرورَهُ واستعلاءَه، وللطريقة التي يُوقِع بها الحكمُ الإلهيّ العقوبةَ على الأفراد والشعوب الذين يَرفعون أنفسَهُم فوقَ مستواهم؛ إنّ غُرورَ الأمم القوية وإيمانَها بفضلِها أشدُّ خطرًا على نجاحِها في مجال السياسة من كيْدِ الأعداء».

* * * * * *

(*) جاك ماريتان (١٨٨٢-١٩٧٣م) فيلسوف فرنسي كاثوليكي معاصر.

وقد أُوضِح فيما سبَق عن غُموضِ اصطلاح المصلحة القومية، وصعوبةِ تحديدِ هذا المصطلح، وأنه لا يَعني دائمًا مُحتواه وهو مصلحةُ الوطن، وإنما المصلحةُ الذاتية لقُوًى لديها قدرةُ الضغط والتأثير(٣).

وفي هذا المجال ينبغي القولُ بأنه ليس من الوطنية الصحيحة ولا من المصلحة الوطنية الإلحاحُ - كما هو واقعٌ دائمًا - على تغذيةِ الكبرياء والغرورِ لدى المواطنين، وإشعارِهم بتميُّزِهم على الآخَرين: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨](٢٦).

والتواضعُ ليس فقط قيمةً أساسيةً من قِيَم الإسلام، بل هو مصدرٌ لتوليدِ وتطويرِ وتنميةِ عددٍ من القِيَم الإسلامية الأخرى، والكِبْرُ سببُ الضلال، أو نتيجتُه، أو سمةُ الضالّين، أو وصفٌ سببيٌّ لاستحقاقِ العقاب الدنيويِّ والأخرويّ، والمتواضعُ قادرٌ على تحقيق الوسطية (سمة الإسلام) وبالعكس فلا ترى غاليًا أو متطرِّفًا في أحد الجانبين إلّا وفي صدرِهِ كِبْرٌ ما هو ببالغه(٣٥).

٢ـ التحضُّر:

الإنسانُ هو الإنسان، سواءٌ كان خارجًا من ظُلمات القرون الوُسطى(*) في أوروبا، أم متخرِّجًا من جامعة M.I.T في الولايات المتحدة الأمريكية.

والمسافة بين التحضُّر والوحشية قصيرة، يَسهُل على الإنسان أن يتخطّاها ما لم يتربَّ في ظلِّ ثقافةٍ قادرة على أن تروِّض الطبيعةَ العُدوانية في داخله.

ولن تكون الثقافةُ قادرةً على ذلك إلا إذا كان التسامحُ والنّفورُ من الظلم والعُدوان جزءًا من طبيعتها. لقد مَلَك الإسلامُ هذه القدرةَ التي وصفها النبي ﷺ بقوله: «**بُعثتُ بالحنيفية السمحة**(**)»[٩].

إنّ الحروب الحديثةَ تقدِّم أمثلةً محزنة، تُحَى بها في سلوك الإنسان الفروقُ بين الهمَجية والتقدُّم، والوحشية والتحضُّر.

ويكفي الإنسانَ أن يَستعيد لذاكرته سُلوكَ الجيش الأمريكيِّ في فيتنام في عَقْد الستينيات من القرن الماضي حينما كان يُحرِّق الغاباتِ الخضراءَ بالكيماويات، أو سلوكَه في أفغانستان في العَقْد الأوّل من هذا القرن حين أَوْدع في أرضِها في الأيام الأولى من الحرب سبعين مليون كيلو جرام من المتفجرات، أو تفجيرَ صدّام آبارَ البترول في الكويت.

وأفظعُ من كلِّ ذلك أن تظَلّ إحدى الدول تُوجِّه إلى العالم الخارجيّ من الرؤوس النووية - التي يُمكِن إطلاقُها خِلالَ خمسَ عشرةَ دقيقةً بقرارِ شخصٍ واحد - ما تكفي قوّتُه التدميريةُ لقَتْل كلِّ إنسانٍ على ظهر الأرض ثلاثَ مرّات، أو إنفاقُها

(*) العصور الوسطى أو القرون الوسطى هي التسمية التي اصطلح على إطلاقها على الفترة الوسطى ما بين القرن الخامس والخامس عشر الناشئة من تقسيم تاريخ أوروبا إلى ثلاثة أقسام (عصور) هي: العصور الوسطى المبكرة والعصور الوسطى المتوسطة، والعصور الوسطى المتأخرة.

(**) رواه أحمد في مسنده (٣٦/ ٦٢٣-٦٢٤ رقم ٢٢٢٩١) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٢ رقم ٧٨٨٣) وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٢) والألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٤٢٣ رقم ٢٩٢٤).

الوقتَ والمال وجهود العلماء لتصنيع جراثيم الأوبئة حتى لَيكفي مِلْءُ مِلعقة شاي من بكتوريوم الجمرة الخبيثة(*) ليوزَّع على كلِّ فردٍ من البشَر ألفُ ميكروب من ميكروبات الجمرة الخبيثة، أو تصنيعِ الغازات السامة.

وبالطبع لا يتمُّ تصنيعُ هذه الموادّ بغرَضِ أن تكون معروضاتٍ في المتاحف، وإنما لاستخدامِها وَفْقَ الإرادة المطلقة لإنسانٍ بلَغ في سلَّم التقدُّم الإنسانيّ والأخلاقيّ والتمييز بين الخير والشر مُستوًى سَمح له بالتفكير في مثلِ هذه المشروعات وإنجازِها(٤٠).

السلوكُ اللاإنسانيّ في الحرب علامةٌ دالّة على مدى تخلُّق الإنسانِ الغربيّ المعاصر بالرُّوح الحضاريّ، ومدى قُدرته على الخلاص من وحشيّةِ العصور التي يُسمِّيها عصور الظلام!.

كلّا، لا يُتصوَّر أنّ إنسان عصورِ الظلام كانت ستخطُر في باله مثلُ هذه الفكرةِ الشريرة: تصنيعِ وتخزينِ جراثيم وباء (الجمرة الخبيثة)؛ تمهيدًا لاستعمالِها كأحد أسلحة الدمار الشامل، وأن يَبذُل لهذه الغايةِ الوقتَ، والجهد، وأفكارَ العلماء، وأموالَ دافعي الضرائب، ويسخِّر التكنولوجيا التي تَصل بهذا المنتَجِ الشرِّير إلى معدَّل ترليون جرثومة في الجرام الواحد من الجراثيم التي سوف تَنشُر الوباء(٣).

يقولُ ألبرت أينشتاين في كتابه (Out of My Later Years): (لقد أَوجَدت التكنولوجيا وسائلَ للتدمير جديدةً وفعّالة لم يَعهَدْ مثلَها الإنسانُ من قَبل، وهذه الوسائلُ حين تقعُ في أيدي أُممٍ تدَّعِي أنّ لها الحقَّ في الحرية المطلقة للعمل تُصبح تهديدًا محدقًا بفَناء الجنس البشري)(٩).

* * * * * *

(*) الجمرة الخبيثة أو أنثراكس مرض حاد يصيب كلًّا من البشر والحيوانات وأكثر أشكاله قاتلة بدرجة عالية.

يقول توماس. س. باترسون في كتاب (الحضارة الغربية Inventing Western Civilisation): (إنّ مصطلح الحضارة صِيغ في أوروبا في سِياق التوسّع الاستعماريِّ الأوروبي فيما وراءَ البحار، وإنّ المصطلح جرى على ألسنة النخبة في الدول الغربية، واستهدفوا التمييزَ بين أنفسهم والشعوبِ التي التَقَوا بها، فما أن انتَقلوا إلى ما وراءَ البحار حتى استَخدموا التصنيفاتِ الفئويةَ الشائعة آنذاك، مثلَ عبارات: المتوحشين، والهمج، والكفّار، والبرابرة... إلخ؛ لوصف أبناءِ الشعوب الذين التقَوا بهم.

وأثناءَ الانسياح الأوروبيّ الاستعماريّ عامَلَ المستعمِرون في كثيرٍ من الأحيان الشعوبَ الأخرى كما لو لم يكونوا بشَرًا، وارتكبوا نتيجةً لذلك ضدَّ هذه الشعوبِ فظاعاتٍ وحشية)[٩].

في عام ١٤٨٢م أَصدر ملك إنجلترا هنري السابع(*) عهدًا لجون كابوت(**) قبلَ بَدْءِ رحلاته، يُعطيه الحقَّ بأن (يَغزو ويحتلّ تحتَ اسم الملك ورايتِه أيَّ مدينةٍ أو قلعة أو جزيرة أو أرض، في أيِّ مكان يكتشفه، في شرق أو غرب أو شمال البحر من بلدان الحيثيين والكفّار، في أيِّ جُزء من العالم لا يكون حتى ذلك الوقتِ معروفًا للنصارى، ويُعطيه الحقَّ في أن يَغزُوَ ويحتلَّ ويحوزَ كلَّ مكان من هذا النوع شريطةَ أن يدفعَ للملك خُمسَ ما يَكسِبه في كلِّ رحلة).

وكانت هذه البدايةَ للغزو الأنجلو سكسوني لِمَا عُرف فيما بعدُ الولايات المتحدة، ومع المحاربين الغزاةِ وصلتْ إلى هذه الأرضِ جحافلُ من المهاجرين الأنجلو سكسون البروتستانت وصَلَ عدَدُهم في القرنين الثامنَ عشَرَ والتاسعَ عشَرَ سِتّين مليونًا.

وكان هؤلاء الغزاةُ والمهاجرون يَرَوْن أنهم لكي يتمكَّنوا من سكَنِ تلك المنطقةِ من العالم الجديد واستغلالِها لا بدَّ لهم من طَرْدِ السكان الأصليين، الأمرُ الذي أدّى

(*) هنري السابع تيودر (١٤٥٧-١٥٠٩م) ملك إنجلترا ما بين (١٤٨٥-١٥٠٩م) وأول حكام أسرة تيودر.
(**) جون كالوت (١٤٥٠-١٤٩٩م) كان مستكشفًا ورحالًا إيطاليًّا، وقد قام بأول رحلة من إنجلترا إلى أمريكا الشمالية، مكنت إنجلترا عام ١٤٧٩م من وضع يدها على أراضي أمريكا الشمالية.

إلى قيام الحرب بين الفريقَيْن، وانتَهى بإبادةِ السكان الأصليين الذين سُمُّوا الهنودَ الحُمْر، فبعدما كان عددُ الهنودِ الحُمْر في هذه المنطقة قبلَ مجيءِ الأوروبيين عشرينَ مليون إنسان، كان من بَقِي منهم - بعد انتهاء حرب الأوروبيين للهنود الحُمْر بمذبحة ووندني في عام ١٨٩٠م - مائتين وخمسين ألف إنسان.

وظلَّ العنصرُ الغالبُ في السكان الأنجلو سكسون البروتستانت، الذين أُطلق عليهم فيما بعد اصطلاح WASP، وقد جلَبَ هؤلاء معهم ثقافتَهُم إلى أمريكا الشمالية، فسادَتْ قِيَمُها الخيرةُ والشريرةُ الأرضَ وكوَّنتْ الثقافة الأمريكية، وإن كانت قد دخلَتْ هذه الثقافةَ عناصرُ من الجماعات الأخرى القادمةِ لأرض الولايات المتحدة اختيارًا أو اضطرارًا.

وإذ تزامَنَ الغزْوُ الأوروبيّ لأمريكا مع الاستعمار الأوروبيّ لأفريقيا فقد جلَبَ المستعمرون ملايين من الأفارقة، قام بهم نظامُ الرِّقّ في البلاد، وكما استولى البِيضُ على أرض الهنود واستغَلُّوها، فقد استغَلُّوا عمَلَ الرَّقيق، وبُنِيتْ بذلك الولاياتُ المتحدةُ الأمريكية، وارتُكِبت من أجل ذلك وفي ظِلِّه الفظاعاتُ الإنسانيةُ المعروفة في تاريخ الولايات المتحدة ضدَّ الهنودِ الحُمْر، والأفارقةِ السُّود.

لقد أمَرَ أبو الجمهورية الرئيس جورج واشنطن الجنرالَ جون سوليفان بأن (يُحيلَ مساكنَ هنودِ الأوركوا إلى خراب، وألا يُصغِيَ إلى نداءِ السلام حتى تُمحَى قُراهم ومدُنُهم وآثارُهم من وجْهِ الأرض، ووَصَفَ طرْدَ الهنودِ من أوطانهم بقوَّةِ السلاح بأنّه لا يختلِفُ عن طرْدِ الوحوش المفترسةِ من غاباتها).

وحتى توماس جفرسون(*) كاتبُ وثيقةِ الاستقلال كان حكمُه على الهنود الحُمْر الذين يقاوِمون التوسع: (سنُفنيهم، ونمحُو آثارَهم من الأرض؛ إننا مجبَرُون على قتلِ هؤلاء الوحوش أو طردِهم مع وحوش الغابات).

(*) توماس جفرسون (١٧٤٣-١٨٢٦م) أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة والكاتب الرئيس لإعلان الاستقلال عام ١٧٧٦م وثالث رئيس للولايات المتحدة (١٨٠١-١٨٠٩م).

ووصَـف الرئيـس تيودور روزفلـت(*) مذبحةَ سـاند كريك(**) التـي جَرَت بعد ذلـك بأكثرَ من قَـرْن بأنها: (عمَلٌ أخلاقـيّ مفيد، وقال: إنّ إبـادةَ الأعراق المنحَطّة ضرورةٌ حتمية لا مَفرَّ منها).

وذكـر جـون تولاند(***) في كتابه عن (هتلـر) أنّ هتلر كان يُبـدي إعجابَه بنجاحِ الإبـادة الجماعية للهنود الحُمْر، ويَعتبرُها من التجارِب الرائدة التي يُحبِّذها في خططه وبرامجه، وكما قال جيمس بولدن عضْوُ الكونجرس في الثلاثينيات من القرن التاسع عشـر: (قَدَرُ الهنديّ الذي يواجِه الأنجلو سكسوني مثلُ قَدَرِ الكنعانيّ الذي يُواجِه الإسرائيلي، إنه الموت).

كان التوسـعُ يَقتضي باستمرارٍ – وحتى انتهاء حرب الهنود الحمْر – طرْدَ السكان الأصـليين والاستيلاءَ على أراضيهم، وكما يقول سناتور هارت بنتون في خطابه أمامَ مجلس الشـيوخ ١٨٤٦م: (إنّ قَدَرَ أمريكا الأبَدِيّ هو الغزْوُ والتوسّع؛ إنها مثلُ عصا موسـى عليه السلام التي صـارَت أفعى، وابتَلعتْ كلَّ الحبال، هكذا ستغزو أمريكا الأراضـيَ وتضـمُّها إليها أرضًـا بعد أرض، ذلك هو (مصـيرُها الواضح Manifest Destiny)، أعطِها الوقتَ وسـتَجدُها تَبتلعُ كلَّ بِضـع سـنوات مفازاتٍ بوُسـع معظم ممالك أوروبا).

ولقد ظلَّ تصويرُ السكّان الأصليّين بأنهم همَجٌ متوحشون عُدوانيون جِنسٌ مُنحطّ النغمةَ السائدة في الأعمال الأدبية الأمريكية، وفي أفلامِ هوليود، وفي وسائل الدِّعاية والإعلام، وفي الوقت نفسِه يُصوَّرُ الغزاة بما ورد في عبارات سناتور ألبرت بيفرج: (إنّ

(*) تيـودور روزفلـت (١٨٥٨-١٩١٩م) كان نائـب الرئيـس الأمريكـي الخامـس والعشريـن والرئيـس الأمريكـي السـادس والعشريـن خلفًـا للرئيس ويليـام مكينلي الـذي اغتيل، وقـد تولى الرئاسـة في الفترة (١٩٠١-١٩٠٩م).

(**) مجـزرة سـاند كريـك المخجلـة بكولـورادو ضـد المدنيـين الهنود العزل سـنة ١٨٦٤م عكسـت القسـوة المنهجة التي مارسها البيض ضدهم في القرن التاسع عشر.

(***) جون تولاند (١٦٧٠-١٧٢٢م) مفكر إنجليزي ودبلوماسي وعالم إنجيلي.

الله اصطفى الأمّةَ الأمريكيةَ من بين كلِّ الأمم والشعوب، وفضّلَها عليهم، وجعَلَها شعبَهُ المختار؛ وذلك من أجل قيادةِ العالم وتخليصِه من شروره).

لقد تعرَّضتْ ثقافةُ السكّان الأصليّين لحملةِ تشويهٍ لازمَتْ حرْبَ الإبادة، وكانت سلاحًا من أسلحتها. لم يكتَفِ التاريخُ المنتصر بأنْ أَطلَقَ على غزواته اسمَ حربِ الهنود بل إنّه أَسقَط كلَّ فظاعاته الدموية على الهنود!، مثلَ عادةِ سَلْخ الرؤوس، والتمثيلِ بالجثث، مما حَمَل أحدَ السكّان الأصليِّين مارجو ثندر بيرد أن يَكتُب: (ها هُم الآنَ بعد أن أفْنَوا شُعوبَنا يُريدون أن يُشوِّهوا الروحَ الهندية، وأن يُزيلوا أغلى ما نَعتزُّ به، يريدون أن يَمحُوا تاريخنا، ويَعبَثُوا بتقاليدِنا الروحية، يريدون أن يُعيدوا كتابةَ ذلك من جديد، وأن يخلقوه خلقًا آخر)[٩].

وإنما قُصد إبرازُ نموذج: كيف يَرى الغربُ نفسه، ويَرى الآخَر في مجال القِيَم الكونية[٣٨].

إنّ هذه الفظاعاتِ الوحشيةَ التي ارتكبها الأوروبيون ضدَّ السكّان الأصليين التي أشار إليها باترسون هي ما حمل الراهبَ Partolome Dela Casas في النصف الأوّل من القرن السادسَ عشرَ إلى اختراع اصطلاح (الطفل بالطبيعة) Natural Child بدلًا من اصطلاح (العبد بالطبيعة)، وكان ذلك بقصْد الدفاعِ عن شعوب العالم الجديد؛ محتجًّا بأنّ هؤلاء بشر، وهم وإن كانوا متخلِّفين فهم قابلون بالتعليمِ والدعوة للتحضُّر، ولأن يتحوَّلوا إلى مسيحيين، ولكنَّ هذا الاصطلاحَ الأخير Natural Child ساعَدَ على استمرارِ فكرة التفوُّق العنصريّ، وحينما شاع شعارُ المصير الواضح Manifest Destiny في الولايات المتحدة جَرى تحتَ هذا الشعار.

ويُعبِّر المؤلفان M.W.Davies و Z.Sardar في كتابهما Why Do People Hate America عن المعنى السابق بقولهما: (لقد كان المقصودُ من اختراعِ دلا كاساس اصطلاحَ (الطفل بالطبيعة) في حالة الهنود أن يكونوا تحت الحماية، والتعليم، والنقْلِ

إلى المسيحية، وإلى الحضارة، والصعوبةُ في مثل هذه الحالة أنه لا يوجَد في هذا الإطار الاستعماريِّ (اختبارٌ للنجاح)، كما أنه من الصَّعْب افتراضُ أن تتمَّ تربيةُ إنسانٍ من قِبَلِ قاتليه ومضطهديه ومستغلِّيه، إنّ اصطلاح (الطفل بالطبيعة) اصطلاحٌ مؤدَّبٌ مؤسَّس على الاستعلاءِ العنصريّ، حتى لو كان قد صدَر عن رجُلِ دينٍ شَفوقٍ أراد أن يُقاوِمَ به فظاعاتِ الإبادة البشرية التي كان يرتكبُها معاصِرُوه تُجاه السكّان الأصليِّين لأمريكا، إنّ فلسفةَ (الطفل بالطبيعة) في الحقيقة عاشَتْ طويلًا في الوَعْي الأوروبيّ، بل لا تَزالُ معَنا حتى الآن، إنها دائمًا لبُّ المحاضراتِ التي تُلقَى على البلدان الناميةِ – في الموضوعات المتنوِّعة من السياسة الاقتصادية إلى حقوق الإنسان – من قِبَل البلدان المتقدِّمة التي نَمَتْ وأَثْرتْ من الاستعمار، ولا تَزالُ تَجني الأرباحَ المشروعةَ وغيرَ المشروعة من نظامِ الاقتصاد العالميّ غيرِ المتكافئ الذي خلَقَتْه).

وكما يقول توماس.س. باترسون: (تُصُوِّرَ التوسُّع غربًا بأنه تحقيقٌ لمشيئة ربانية على أيدي أبناءِ شعب مختارٍ ومتفوِّقٍ عرقيًّا «المسيحيين البيض الأنجلو سكسون»؛ إذِ اختارهم الله للانتصار على الطبيعة، ونقْلِ الحضارة إلى القبائلِ التابعة المقيمة عند الحدود وفي داخل الأقاليم الهندية، واعتقَد كثيرٌ من المفكِّرين في غرب أوروبا وفي الولايات المتحدة الأمريكية أنّ تقدُّمَ الحضارة نتاجُ العملية الطبيعية للتطوُّر الاجتماعي، ودافع التطوريون الاجتماعيون – من أمثالِ هربرت سبنسر في إنجلترا، ولويس هنري مورجان في الولايات المتحدة الأمريكية – بأنّ كلا العالَمَين الطبيعيّ والبشريّ يخضعان لقوانينِ التطور ذاتها، وهي قوانينُ لا تقبل التغيير، بَيْدَ أنهم اعتقَدوا بأنّ التطوّرَ غيرُ متساوٍ بمعنيين اثنين، فالمجتمعاتُ والسلالات المختلفة تتقدَّمُ بسرعات مختلفة، وأنّ تطوُّرَ مجتمعٍ بذاته يختلِف باختلاف مراحلِ تطوُّره، واستَخدموا هذا الزعمَ لتأسيسِ ودعم زعمٍ آخَرَ أنّ هناك ترتيباتٍ هرميةً اجتماعيةً وثقافيةً وعرقية)، ويقرر باترسون: (حَظِيتْ آراءُ سبنسر بنفوذٍ كبير جدًّا في كلٍّ من الولايات المتحدة وأوروبا، وبدا هنا نوعٌ من المصادَقة العلمية على المعتقدات التي اعتَبَرت الفوارقَ بين

الأفـراد والمجتمعـات والأعراق والأمم على أنّها فوارقُ ضـاربةٌ بجذورِها في الطبيعة، وفَسَّـرت هـذه الأيديولوجيا التي عُرفت باسـم (الداروينيـة الاجتماعية) العالَم في ضـوء (البقاء للأصـلح)، وكان لها نفوذُها الكبير فيما بين ثمانينيات القرنِ التاسـعَ عشرَ والحربِ العالمية الأولى، وأُعيد إحياؤها ثانيةً في سبعينيات القرنِ العشرين تحت اسم (البيولوجيا الطبيعية)، اعتقَد (الداروينيون الاجتماعيون) أنّ جميعَ الموجودات – ابتداءً من الكائنات العضـوية الحيوية حتى المجتمعاتِ البشـرية – تقدَّمتْ طبيعيًّا مـن الأدنى إلى الأرقى، وافتَرضـوا أنواعًا من التراتيبات الهرمية؛ لتصـوير أو تمثيلِ العلاقات التطوُّرية للكائنات العضـوية الحية أو المجتمعات البشـرية، ونجدُ في المنطق الدَّوْريّ لآرائهم أنّ الأشـكال (الأصـلح) تحتلُّ قمّةَ هذه التراتيبات، وجديرٌ بالذكر أنّ سـفيرًا للولايات المتحدة لدى إنجلترا أعلَنَ في مطلع العَقْد الرابع من القرن التاسعَ عشرَ أنّ (العِرْق الأنجلوسكسوني الذي انحدَرْنا منه نحن الأمريكيين لم يَتجاوزْه أحدٌ في تاريخ الوجود).

ويقـول: (اسـتُخدِمت أيدلوجيـا (الداروينية الاجتماعية) لإضـفاءِ مشـروعيةٍ علميـة على البُنيـةِ الطبَقية القائمة، واسـتخدمها الأمريكيـون في الولايات المتحدة لتبريـرِ مزاعـمِ تفوُّق العرق الأنجلـو أمريكيّ ومشـاعرِ معاداةِ الهجرة إلى الشـمال، وكذا لتبريرِ السياسـات العنصـرية في الجنوب، وبَرَّرت أيضًا النداءاتِ من أجْلِ شنِّ حرُوب إمبريالية).

وفيما يتعلَّقُ بالولايات المتحدة الأمريكية خاصـة يَزيدُ باترسـون الفكرةَ إيضـاحًا بقوله: (بعد عام ١٩٤٥م اسـتَخدمت الولاياتُ المتحدة حُججًا ودراسـاتٍ هي رَجْعُ صـدًى لحُجج ودراسات (الداروينيين الاجتماعيين)، وبَدأت الولاياتُ المتحدة تقدِّم نفسَـها باعتبارها المركزَ وقوّةَ الدفع للحضـارة الغربية، واعتقَد كثيرٌ من الرسـميين في حكومة الولايات المتحدة أنّ رسـالتَهُم ليستْ قاصرةً على الحفاظ على الحضارة، بل وأيضًا العمل على نشرِها إلى أبعَدِ أركانِ المعمورة، واستَلزم هذا أن يَتوافر لدى جميع

الأمريكيين تقييمٌ وتقديرٌ عميقانِ للرأي القائل: إنّ مجتمعَهم ليس فقط مجتمعًا استثنائيًّا فريدًا بل وإنّ أبناء هذا المجتمع أيضًا هم (شعبٌ مختار)، اختاره الربُّ لمهمة إنجازِ رسالته سبحانه لنشر الحضارة)، فليس من الغريب أن تَرِد في خطاب السياسيين وكتابةِ الكتّاب عبارةُ (العالم المتحضر) يُشار بها عادةً إلى شعوب أوروبا، وأمريكا الشمالية، وتَعني بدلالة مفهومِ المخالفة أنّ غيرَهم من الشعوب (عالم غيرُ متحضر) [٩].

وفي كتاب اقتناص الفرصة (أو كما يترجم أحيانًا الفرصة السانحة) Seize the Moment أوضح نيكسون(*) الرئيس الامريكي السابق أن: «معظم الأمريكيين ينظرون نظرة موحدة إلى المسلمين على أنهم غير متحضرين، وسخين، برابرة، غير عقلانيين، لا يسترعون انتباهنا إلا لأن الحظ حالف بعض قادتهم، وأصبحوا حكامًا على مناطق تحتوي على ثلثي الاحتياطي العالمي المعروف من النفط»[١٨].

ولعله من المناسب أن نَستحضر هنا مقولةَ صموئيل هنتنجتون(**): «لقد انتصر الغربُ على العالم، ولم يكن ذلك بفَضْل سموّ أفكارِه أو قِيَمِه أو دِينه، ولكن بتمكُّنِه الهائل من تنفيذ العُنف المنظَّم».

«The West won the world not by the superiority of its ideas or values or religion but rather by its superiority in applying organized violence». Samuel P. Huntington[٤٣].

ويلخِّص باترسون تقريره بقوله: (تَبيَّن لنا أنّ مؤيدي وأنصارَ الحضارة الغربية عمَدُوا منذُ بدايةِ القرن السابعَ عشَرَ إلى النظر إلى مجتمعاتهم باعتبارِها أكثرَ

(*) ريتشارد ميلهاوس نيكسون (١٩١٣-١٩٩٤م) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع والثلاثين (١٩٦٩-١٩٧٤م) ونائب الرئيس الأمريكي السادس والثلاثون (١٩٥٣-١٩٦١م).

(**) صموئيل فيليبس هنتنجتون (١٩٢٧-٢٠٠٨م) كان عالمًا سياسيًّا أمريكيًّا وبروفيسور في جامعة هارفارد مدة ٥٨ عامًا ومفكر محافظ.

تقدُّمًا من مجتمعات العالم القديم، والتمَسُوا تحديدَ وتمييزَ القُوَى المحركة المسؤولة عن تطوُّر المجتمع الرأسمالي، وما فَتئت النظريات الرائجةُ الآن عن الحضارة تؤكِّد على قسماتِها الإيجابية - أي التحسُّن المادّي والتقدُّم والحداثة - وعلى الأوضاع التي تدعَمُها، ولكنّ القسماتِ السلبية - مثل تَزايُد الاغتراب الروحيّ، والافتقارِ الاقتصادي لأعدادٍ كبيرة من الناس - فقد صوَّرُوها على أنها ظواهرُ عابرةٌ يمكن القضاءُ عليها، ولكنْ ليس الجميعُ رأَوْا صعودَ الحضارة في ضوءٍ إيجابيّ؛ ذلك أنّ كثيرين من المفكِّرين الغربيين انتَقدوا الحضارةَ والدولة معًا، لقد كشَفوا عن القسمات السّلبية والتناقضات، ومن ثَمّ ازداد شكُّهم باطّرادٍ بشأن منافعِ الحضارة الغربية التي قِيل: إنها جلبَتْها معها منذُ بزوغها).

وأَثَر التمييزِ العنصريّ على الفكر والسياسة والإعلام لا يَزالُ قويًّا وفاعلًا، ولا يَزال صادقًا على هذا الواقع ما قاله أرنولد توينبي(*) قَبْلَ نصفِ قَرْن من أنّ: (الحضارة المعاصرة في حاجةٍ مُلَحّة إلى أن تتعلَّمَ من إنجازِ الإسلامِ في إلغاء التمييز العنصريّ بين البشر)[٩].

* * * * * *

في كتاب (Islam at the Crossroads) (ص٧٢، ٧٣) يقول محمد أسد: (أخلاقيةُ الإسلام ethics في تصوُّرها للسلوك الخُلُقيّ بالنسبة للفرد والمجتمع هي - بلا حدود - أرفعُ وأكثرُ كمالًا من مثيلتها في الحضارة الغربية، الإسلامُ أَلغى الكراهيَةَ الإنسانية، وفَتح الطريقَ للأخوّة والمساواة بين البشر، ولكنّ الحضارةَ الغربية لا تَزال عاجزةً عن أن تَنظُر أبْعدَ من الأفق الضيّق للشقاق العرقيّ والقومي، الإسلامُ لم يعرف قطُّ الطبقيةَ أو حربَ الطبقات، ولكنّ التاريخ الأوروبيَّ منذُ عهد الإغريق والرومان مملوءٌ بالصِّدام الطبقيّ والكراهيَةِ الاجتماعية).

(*) أرنولد جوزيف توينبي (١٨٨٩-١٩٧٥م) أهم أعماله (دراسة للتاريخ) وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

وقد تكررت دعوةُ المفكرين الغربيين إلى أن يستفيد الغربُ من دروس الإسلام في هذا المجال، من ذلك قول: (Toynliee A.) في كتاب (Civilization on Trial) (ص ٢٠٥): (إنّ انعدامَ التمييز العنصريّ بين المسلمين هو أحدُ الإنجازات الرائعة للإسلام، وفي العالم المعاصر - أَعني في العالم المتحضِّر الحديث - توجَدُ حاجةٌ ملحّة (crying need) إلى الدعوة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية).

ويقول (Gibb) في كتابه (Whether Islam) (ص٣٧٩): (الإسلامُ لا يزال قادرًا على أن يَمنحَ خدمةً جليلةً للهدَف الإنسانيّ، لا يوجَد مجتمعٌ آخَرُ كالإسلام كان له مثلُ سجلِّه من النجاح في توحيدِ هذا العدد الكبير والمتنوِّع من الأعراق البشرية في مجال المساواةِ في المركز الاجتماعيّ، والفُرَص في العمل والنجاح).

ويقول (جوستاف لوبون) في كتابه حضارة العرب صفحة ٣٩١: (إنّ العرب (المسلمين) يتّصفُون بروح المساواة المطلقة وَفْقًا لنظمهم السياسية، وإنّ مبدَأَ المساواة الذي أُعلن في أوروبا قولًا لا فعلًا راسخٌ في طباع الشرق (الإسلاميّ) رسوخًا تامًّا، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدَّى وجودُها إلى أعنَفِ الثورات في الغرب[1].

ويقول محمد أسد: (إنّ العصور الوسطى أتْلفَت القُوَى المنتجةَ في أوروبا، حيثُ كانت العلومُ في ركود، وكانت الخرافاتُ سائدة، والحياةُ الاجتماعية فطريةً خشنةً على نحوٍ من الصعب علينا أن نتصوَّره اليوم، في ذلك الحين أخذ النفوذُ الإسلاميُّ في العالم يَقرعُ الأبواب الموصدةَ دون المدنية الغربية، وأمامَ الأبصار المشدوهة - أبصار المفكرين الأوروبيين - ظَهرتْ مدنيةٌ جديدة، مدنيةٌ مهذّبةٌ راقية، خفّاقة بالحياة، ذاتُ كنوز ثقافية، وكان أثرُ هذا النفوذ في أوروبا عظيمًا، لقد بَزغ مع الاحتكاك بالحضارة الإسلامية نورٌ عقليٌّ في سماء الغرب مَلأها بحياةٍ جديدة، وبتعطُّشٍ إلى الرقيّ، إنّ مجاريَ الشباب التي كانت تَنبُع في العالم الإسلاميّ مكّنَت خِيرةَ

العقول في أوروبا من أن تُناضل بعزمٍ جديد ضدَّ تلك السيطرةِ البعيدة التي كانت للكنيسة المسيحية)[٩].

قبلَ أن يُسلم محمد أسد يَذكر في حِوار مع مضيفِه حاكم قرية في أفغانستان: (قال الحاكم: (كان داود صغيرًا لكنّ إيمانَه كان كبيرًا)، فلم أتَمالَكْ نَفسي، وقلتُ باندفاع: (وأنتم كثيرون وإيمانُكم قليل)!، نَظر إليَّ مُضيفي مندهشًا، فخَجِلْتُ مما قلتُ من دون أن أتمالَكَ نفسي، وبدأتُ بسُرعةٍ في توضيح ما قلت، واتَّخذَ تفسيري شكْلَ أسئلةٍ متعاقبةٍ كسَيْلٍ جارف، قلتُ: (كيف حدَث أنكم معشرَ المسلمين فقدتُم الثقةَ بأنفسكم، تلك الثقةَ التي مكّنتْ آباءَكم من نشْرِ عقيدتكم في أقلَّ من قرْنٍ من المحيط الأطلسي إلى أعماقِ الصين؟ لماذا لا تَستجمعون قوَّتَكم وشجاعتَكُم لاستعادةِ إيمانكم الفِعليّ؟ كيف يُصبح رجلٌ تافهٌ منكم يُنكر كلَّ قيمةٍ للإسلام رَمزًا لكم في الإحياءِ والنهوضِ والإصلاح؟ ظلّ مُضيفي صامتًا.. كانَ الثلجُ قد بدأ يتساقَطُ، وشعَرتُ مرةً أُخرى بموجةٍ من الأسى مصحوبةً بتلك السعادة الداخلية التي شعرتُ بها ونحن نقترب من (ده زانجي)، أحسستُ بالعظمة التي كانت عليها تلك الأمة، وبالخِزْي الذي يُغلِّفُ ورَثتَها المعاصرين، أَردفتُ مكمِّلًا أسئلتي: (قل لي: كيف دفَنَ علماؤكم الإيمانَ الذي أتى به نبيُّكم بصفائه ونقائه؟ كيف حدث أنّ نبلاءَكم وأعيانَكم يَغرَقُون في الملذَّات بينما يَغرق أغلبُ المسلمين في الفقْر، مع أنّ نبيَّكم علَّمَكم أنه لا يؤمن أحدُكم إذا شبع وجارُه جائع(*)؟ هل يمكن أن تُفسِّر لي كيف دفعتُم النساءَ إلى هامش الحياة مع أنّ النساءَ في حياةِ النبيّ ﷺ والصحابةِ ساهَمْنَ في شؤون حياة أزواجهنّ؟ كان مضيفي ما زال يُحمْلِقُ فيَّ دون كلمة، وبدأتُ أعتقِدُ أنّ انفجاري ربما سبَّبَ له ضيقًا، في النهاية همس: (ولكنْ

(*) إشارة إلى قوله ﷺ: «**ما آمن بي من بات شبعانًا، وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم**». رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم ١١٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٧٦ رقم ٣١١٧) والطبراني في الكبير (١/ ٢٥٩ رقم ٧٥١) وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٣٤٥ رقم ٢٥٦١)، صحيح لغيره.

أنت مسلم)، ضحكتُ وأجبتُه: (كلا، لستُ مسلمًا، لكنّي رأيتُ الجوانبَ العظيمة في رسالة الإسلام مما يَجعلُني أشعُرُ بالغضب وأنا أراكُم تضيِّعُونه، سامِحْني إن تحدّثتُ بحِدّة، أنا لستُ عدوًّا على أيِّ حال) إلا أنّ مُضيفي هزَّ رأسَه قائلًا: (كلا، أنت كما قلتُ لك: مسلمٌ إلا أنك لا تَعلمُ ذلك، لماذا لا تُعلن الآن: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله، وتُصبحُ مسلمًا بالفعل بدلًا من أن تكون مسلمًا بعقْلِك فقط؟) قلتُ: (لو قلتُها في أيِّ وقت فسأقولُها عندما يَستقرُّ فِكري عليها، ويَستريحُ لها)، قال: (ولكنّك تعرِفُ عن الإسلام أكثرَ مما يعرِفه أيُّ واحدٍ منا)، قلتُ: المسألةُ ليست مسالةَ فهْمٍ بل أن أكون مقتنعًا، أن أَقتنع أنّ القرآن كلمةُ الله، وليس ابتداعًا ذكيًّا لعقليةٍ بشرية عظيمة)، ولم تنمحِ كلماتُ مضيفي الأفغانيّ من ذهني على مدى شهورٍ طويلة)[1].

ويقول: (إنّ أفضلية ثقافةٍ أو حضارةٍ على أُخرى لا تقوم على ما لديها من المعرفة العلمية – ولو أنّ هذا الأمر مرغوبٌ فيه – بل على نشاطِها الأخلاقيّ، وعلى مدى قُدرتها على تفسيرٍ وموازنة مختلِف نواحي الحياة الإنسانية، وفي هذا الاتّجاه فإنّ الإسلام يفُوق كلَّ ثقافة أُخرى، ولا يَحتاج إلا أن نتّبع أحكامَه؛ لكي نحقِّقَ أقصى ما يمكن للبشر تحقيقُه). (لا تَظهر إشارةٌ إلى أنّ البشرية في حالتها الحاضرة تجاوَزَت الإسلام؛ فلم تتمكَّن من إنتاجِ نظامٍ أخلاقيّ خيرٍ مما تضمّنه الإسلام، ولم تتمكَّن من وضع الأخوّة البشرية على أساسٍ عمليٍّ كما فعل الإسلامُ في معنى الأمّة، ولم تتمكَّن من إيجاد بُنيةٍ اجتماعية تتناقَصُ فيها الخلافاتُ والخصومات بين أعضائها إلى الحدِّ الأدنى كما في شريعة الإسلام في تنظيمها المجتمع، ولم تتمكَّن من إعلاءِ كرامة الإنسان، وشعورِه بالأمن ورجاءاتِه الأخرويّة – وأخيرًا وليس آخرًا – سعادته). (لدينا كلُّ الأسباب لنعتَقد أنّ الإسلام قد دلّتْ عليه كلُّ الإنجازات البشرية الصحيحة؛ لأنه قرّرها، وأشار إلى صِحّتها قبل تحقُّقها بزمنٍ طويل، ومساويًا لذلك فقد دلّت عليه أيضًا النواقصُ والأخطاءُ والعقبات التي صاحبَت التطوُّرَ البشريّ؛ لأنه حذَّر

منها بقوَّةٍ ووضـوحٍ قبل أن يتبيَّن البشـرُ هذه الأخطاءَ بزمنٍ طويل، ولو صَـرفنا النظر عـن الاعتقادِ الدينيّ للفرد فإنّ في وِجْهة النظر الفكريةِ حافزًا لاتّباع هداية الإسـلام العملية بكلِّ ثقة)[٤٧].

إنّ رعايةَ حقوق الإنسـان وحمايتَها أهمُّ - أو من أهمِّ - القيم الخُلقية في الحضـارة المعاصرة (على الأقلّ نظريًّا، وبصَرف النظر عن التطبيق الواقعي).

يشهد لذلك أنّه عندما ظهَر إخفاقُ المعيار الاقتصاديّ في تصنيف البلدان والدُّوَل من حيـث التقدُّم والتخلُّف جاءت النظريةُ الحديثة باعتمادِ معيارِ مدى رعايةِ الدولة لحقوق الإنسـان؛ لقياسِ درجتها في سلَّم التقدُّم والحضـارة، ونتيجةً لذلك اعتُبرت البلدانُ الإسكندنافية(*) متقدِّمةً في هذا السلَّم عن البلدان الأوروبية الأخرى[٢٢].

في آخر عام ١٩٧٩م غزت روسـيا أفغانستان، وكان سندُها من القانون الدَّوْلي أنها قامَت بذلك برغبةٍ من الحكومة القائمة، واسـتجابةً لطلبها، وكان شـعارُها أنها قامت بذلك لنشْرِ الديموقراطية الاجتماعية، وتحريرِ المرأة، والقضاءِ على التخلُّف.

وفي آخر عام ٢٠٠١م غزا اتحادٌ دَوليّ من أربعين دولةً بقيادة الولايات المتحدة، ولم يكن لها سـنَدٌ من القانون الدَّوْلي، وكان شـعارُها أنها قامَت بذلك لنشرِ الديموقراطية السياسية، وتحريرِ المرأة، والقضاءِ على التخلف[٥٥].

وجاء في البيان الذي صـدَر عن معهد القِيَـم الأمريكية في فبراير ٢٠٠٢م، ووقَّعه ستون من المثقفين الأمريكيين، وعبَّرُوا فيه عن تأييدهم لحرب التحالُف الدَّوْلي بقيادة الولايات المتحدة ضـدَّ أفغانسـتان: (نعترِفُ أنّ أمّتنا في بعضِ الأحيان قد تصـرَّفَت بالاسـتكبارِ والجهل تُجاهَ مجتمعاتٍ أُخرى، وفي بعض الأحيان مارَسَـت سياسـاتٍ

(*) إسـكندنافيا شـبه جزيرة تقع في شـمال قارة أوروبا، وتتكون من ممالك: الدانمارك والنرويج والسويد، وقد تشمل: فنلندا وأيسلندا وجزر فارو؛ وذلك للتقارب التاريخي والحضاري بالدول الإسكندنافية الأساسية (الدانمارك والنرويج والسويد).

مضـلِّلةً وغيرَ عادلة، ونحن كأمّة فشِلنا في أحيانٍ أكثرَ مما ينبغي في التعايُش مع قيمنا، نعترف مرّةً أُخرى ببُعْد المسافةِ بين مثالياتنا وتصرُّفاتنا)[٩].

وأَظهرت المعلوماتُ التي أَفلَتتْ من الحصـار الإعلاميّ من سلوكياتِ القوات البرية والجوية في التحالُف الدَّوْلي في حرب أفغانستان الجـارية صُورًا من السلوك، لو نُسِبت لغيرِ قوات التحالُف الدَّوْلي المتحضِّر لوُصِفت بأنَّها همجيَّةٌ ووحشيةٌ وجرائمُ حرب.

ولو وُجد إعلامٌ غيرُ متحيِّز لربما صـلَحَتْ صورةُ طالبان لتكون هي الصورةَ المقابلة، وعلـى كلٍّ فإنه حتى الإعـلام المتحيِّز لم يتَّهِـم جيوش طالبان في أوقات انتصـارِها باغتصـاب النساء، أو إحراق أسْـراهم بالديزل، أو إغراقِهم، أو قصْـفِهم إستراتيجيًّا بقاذفـات القنابل، أو تصـيُّدِهم بطائرات الهيلكوبتر، أو العجْنِ الإسـتراتيجيّ لقُرًى بكاملها حيث تختَلِطُ أجسامُ البشَرِ بأجسامِ حيواناتهم وأنقاضِ بيوتهم وأثاثِهم وتُمسَح مِن على الأرض مسحًا.

على أنَّ طالبان لو ارتَكبت مخالفـاتٍ لقواعدِ القـانون الدَّوْلي أو المعاهدات الدَّوْلية لكان من السهل افتراضُ أنّ هذه القواعدَ لم تخطُر لـهـا ببال وربما لم تَسْمع بها.

ولكنّ القـادةَ العسـكريين والمدنيين على السـواء في جيشـ التحالُف الدَّوْلي لا يجهلون هذه القواعد، وربما كان هذا ما أدّى بجرمياه يورك أن يضع هذا السؤال:

The biggest (whopper) is that the vast majority of those who understand what the Geneva Conventions are, and what they say, just don›t care anymore. So who are the barbarians now? Are they those who dont know better, or who do, and choose not to care?

مَـن البرابرةُ الآن، الذين لا يعلمون عن اتفاقيات جنيف(*)؟ أو الذين يعلمون ثم لا يأبهون بانتهاكها؟.

(*) هي أربع اتفاقيات دولية تمت صياغة الأولى منها عام ١٨٦٤م والأخيرة عام ١٩٤٩م تتناول حماية حقوق الإنسان الأساسية في حالة الحرب، أي طريقة الاعتناء بالجرحى والمرضى وأسرى الحرب.

بالطبع لا نتوقَّع من اتفاقيات جنيف أن تَسمح بقصْفِ الأسرى بالمروحيات، أو حرقِهم بالديزل، أو إغراقِهم بالمياه المجمدة، أو رميهم بالرصاص وهم مكتوفُو الأيدي من الخلف، أو وهم يُصَلُّون، أو المعاملاتِ اللاإنسانية الأخرى.

ولكنّ الأسوأَ من ذلك أنّ الأمرَ لم يقتصر على انتهاك أحكامِ الاتفاقيات، بل تعدَّى إلى الجناية على نصوصها؛ إذ لكي يَفِرَّ التحالُف الدَّوْلي من نسبتِه إلى انتهاك الاتفاقيات الدَّوْلية أو نسبته إلى ارتكابِ جرائم الحرب سَمّى المحاربين الذين أُسِروا وهم في حالةِ الدفاع ضدَّ الهجوم في المعركة الحربية والبرية إرهابيِّين ومعتقَلِين، مقرِّرًا سابقةً كان لها أشباهٌ ظلّ العالَم الحرُّ يتّهِم بها الجيشَ النازي لإلغاء الالتزام كليًّا بقواعدِ القانون الدَّوْلي والمعاهداتِ الدَّوْلية عن طريق تغييرِ الاسم والتلاعبِ بالألفاظ[٣].

* * * * * *

يقول محمد أسد: (إن الحضارةَ الغربية لا تستطيعُ حتى الآن أن تُقيم توازُنًا بين حاجاتِ الإنسان الجسمية والاجتماعية وبين أشواقِه الروحية، لقد تخلَّتْ عن آداب دياناتها السابقة دون أن تتمكَّن أن تُخرِجَ من نفسها أيَّ نظامٍ أخلاقيّ آخر – مهْما كان نظريًّا – يُخضِع نفسَهُ للعقل، بالرغم من كلِّ ما حقَّقتْهُ من تقدُّم ثقافيّ، فإنها لم تستطع حتى الآن التغلُّبَ على استعداد الإنسان الأحمقِ للسقوط فريسةً لأيِّ هُتافٍ عِدائيّ أو نِداءٍ للحرب – مهْما كان سخيفًا ظاهرَ البطلان – يخترِعُه الحاذقون من الزُّعماء.

الأممُ الغربية وصلتْ إلى درجةٍ أصبحت معها الإمكانياتُ العلميةُ غيرُ المحدودة تُصاحِب الفوضى العملية، وإذا كان الغربيُّ يفتقر إلى توجيهٍ دينيٍّ حكيم فإنه لا يستطيعُ أن يُفيد أخلاقيًّا من ضياءِ المعرفة الذي تسكُبُه علومُه وهي لا شك عظيمة.

إن الغربيِّين – في عجرَفةٍ وعمى – يعتقدون عن اقتناعٍ أنّ حضارتهم هي التي ستغيِّرُ العالم وتحقِّق السعادة، وأنّ كلّ المشكلات البشرية يمكِنُ حلُّها في المصانع والمعامل، وعلى مكاتبِ المحلِّلين الاقتصاديين والإحصائيين، إنهم بحقٍّ يعبدون الدجّال).

وإنّ المبدأَ الذي يرتكز عليه منهجُ الحضارة الغربية في العلاقات الدَّوْلية لا يختلف عن المبدإِ الذي يحكُم سلوكَ قاطع الطريق، أو عِصابات الجريمة المنظمة، بل سلوكَ الحيوانات في الغابة، يقول جوزيف فرانكل: (الحربُ بين العِصابات تزوِّدُنا بمثَلٍ ذي دلالة، العِصاباتُ شأنُها في هذه الحالة شأن الدُّوَل، تَفتقِرُ إلى وجودِ أنظمةٍ قانونية قابلةٍ للتطبيق)، (بل إنّ هناك ما يُشبِه العلاقاتِ الدَّوْلية في السلوك الاجتماعيّ للحيوانات، إنّ اعتباراتِ البقاء كضمان الطعام وحمايةِ أماكنِ التناسل هي التي تحكُمُ تجمُّعات الحيوانات، وكثيرًا ما تَثورُ نزاعاتٌ ضاريةٌ بين أبناءِ الفصيلة الواحدة حولَ الاستئثار بمنطقةٍ مّا، وإبعادِ الحيوانات الغريبة التي تحاول دخولَها).

ويقول المفكر الأمريكيّ موريس كلارك: (إنّ القوةَ بغير هدفٍ إنسانيّ أصبحَتْ وثنًا يُعبَد، يَقود حضارتَنا إلى حافَةِ الفوضى والدّمار، وإنه لا مَعنى أن نأمُلَ في عالم أسلحةِ الدمار الشامل بقيام عالَم آمن تسودُه الحرية والديمقراطية، وإنه لا بد من تنميةِ قُدراتنا على التفكير السليم والعملِ البنّاء؛ إذ إنّ ذلك هو فرصتُنا الوحيدة للكفاح بالرّغم من سَيْف داموكليز(*) المسلَّطِ على رقابنا)[٩].

ويقول الفيلسوف الفرنسيّ جاك ماريتان: (إنّ روح الوثنية التي تشرَّبتْها حضارتُنا ساقت الإنسانَ إلى أن يجعل هدفَهُ القوّة، والقدرةَ على الكراهية، في حين أنّ المثلَ السياسيَّ الأعلى يجبُ أن يكون العدل)[٣].

وإذا كان سفكُ دماء الأبرياء وتدميرُ مرافق الحياة وإهانةُ الكرامة الإنسانية هو مقياسَ الشرِّ والهمجية والانحطاطِ الأخلاقي للإنسان، فما هو الحكمُ على نتائج الحروب في السنوات الأولى للقرْنِ الحادي والعشرين في أفغانستان والعراق وفلسطين

(*) عبارة (سيف ديموكليز) لها قصة، وهي أن الملك ديونيسيوس الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد في صقلية أراد أن يلقن ديموكليز الذي كان خطيبًا مفوهًا، والذي يود أن يصبح ملكًا، ولو يومًا واحدًا، فوافق الملك وحقق له رغبته، ولكن بشرط أن يضع فوق رأسه سيفًا معلقًا بشعرة حصان واحدة، وهكذا عاش ديموكليز يومه الملكي، وهو في رعب شديد خوفًا من أن تنقطع الشعرة، ويسقط عليه السيف، فيصبح جثة هامدة.

ولبنان، من كَمِّية الدماء المسفوكة للأبرياء من الأطفال والنساء والرجال غيرِ المقاتلين، وحجمِ التدمير الذي أصاب مرافقَ الحياة، وأنواعِ الإهانة للكرامة الإنسانية.

فهل يستطيعُ الإنسان أن يتخلّصَ من خِزْي هذا الحكم بالرغم مما وصل إليه من ذُرًى سامقةٍ في المعرفة والتقنية، واختراع وسائل الرِّفاه، والعلم بظاهر الحياة الدنيا وتنظيمِها، وبالرغم مما يُصِمُّ الآذان من ضجيجٍ عن دعاوَى التمدُّن، والأخلاق الكونية، والتقدُّم، والتنوير، والحداثة؟[١٥].

وإذا استَحضرنا هذه الأمورَ في الذِّهْن أمكَنَنا تقييمُ مدى سلامةِ وتحضُّرِ وإنسانية منهَجِ الحضارة الغربية في العلاقات الدَّوْلية، ومدى صلاحيةِ هذا المنهج لإبعاد شبَحِ الفَناء والدَّمارِ الذي يُهدِّد البشريةَ في ظلِّ التسابُق والتسارُع بين الدُّوَل في إنتاجِ وحيازةِ تقنية الموت[٩].

لو تحوَّلت الدُّوَل الغربية إلى دُوَلٍ متحضِّرةٍ فعلًا لارتضَتِ الالتزامَ بتطبيق القانون ومعاييرِ الأخلاق الإنسانية[٣].

* * * * * *

إنّ الحضارة الغربية بامتلاكها للتقنية العالية ومُنتَجاتها من مَظاهرِ القوة، والمستوى الخُلُقيّ الاجتماعيّ الذي تتمَتّعُ به المجتمعاتُ الغربية، ومظاهرِ ذلك من احترامِ حرّية الإنسانِ وكرامتِه، وتسليمٍ للروح الديمقراطيّ، والمساواةِ أمامَ القانون، وضماناتِ العدالة لأفرادِ المجتمع، ولا سيَّما مع موازنةِ ذلك بالتخلُّفِ الذي يُشكِّل الصفةَ السائدةَ لبُلدان العالم الإسلاميّ، وبالمستوى الخُلُقيّ الهابطِ في مجتمعاته؛ حيثُ يسودُ في كثيرٍ من الحالات القهرُ والتسلُّط، وانتهاكُ حقوق الإنسان، كلُّ ذلك – مع الجهلِ بالإسلام وتشوُّهِ صورتِهِ بالبدَعِ والخُرافات والتفسيرات الخاطئة التي لحقَتْ به على مرِّ العصور – أَوجَد شُعورًا بالنقص بين المسلمين تُجاهَ الغرب والحضارة الغربية، وتعرَّضَ المسلمون بذلك لفتنةٍ ربما لم يتعرَّضُوا لمثلِها في تاريخ الإسلام كلِّه.

وتعَدُّ الحضـارةُ الغربية – لقُدراتها وإغراءاتها ومفاتِنها وتضليلِها – التحدِّيَ الأكبرَ للإسـلام، والفتنةُ بهذه الحضـارة بين المسـلمين تُشبِه ما تصِفُه النصـوصُ عن فتنةِ المسيح الدجّال[٦].

ومع الأسـف، فإنّ الافتراءاتِ وضَوْضـاءَ التشـويهِ التي هي ما يَشـغَلُ به أعداءُ الإسـلام أنفسَـهُم وما يُسـخِّرون به آلةَ الإعلام الدجّالي أثَّرتْ على تصوُّرات بعض المسلمين، فكادوا يصدِّقون دجَلَ الإعلام الغربيّ[١٥].

إلا أنّ ظِـلّ هـذه الفتنة آخذٌ في التقلص؛ بسـبب انكشـاف الحقائقِ عن الغرب والحضـارة الغربيـة للعالم الإسـلاميّ، وظهـورِ فشَـلِها في تحقيقِ وُعودِها بالسـعادة الإنسـانية، ولم يكن انكشـافُ هذه الحقائق راجعًا فقط إلى تكاثُر كتاباتِ المفكرين الغربيين المنذرةِ بالأخطار التي تهدِّدُ الحضـارةَ الغربية سـواءٌ في المجال السياسـيّ أو الاقتصـاديّ أو الاجتماعيّ؛ وذلك لأنّ نسـبةً قليلة من المسلمين يَطَّلعون على هذه الكتابات، ولم يكن ذلك راجعًا إلى تَزايُد احتكاك المسـلمين بالغرب بسـبَب تقدُّم المواصلات والاتصـالات، مع أنّ هذا الاحتكاكَ كان له أثرُه ولا شك، (وفي حالاتٍ معيَّنة من بلدان العالم الإسـلاميّ كان رُوّاد الصـحوة الإسلامية ممن ابتُعثوا للغرب للدراسة أو التدريب)، ولكنّ العاملَ المهمَّ هو تعاملُ الغرب السياسيّ والإعلاميّ مع القضايا الإسلامية، ومع بلدان العالم الإسلاميّ، الذي كان يتميَّزُ في أغلب الأحوال – إن لم يكـن كلّها – باسـتعمالِ مِقياسٍ مزدَوِجٍ للقِيَـم، وأهمُّها قيمةُ العدل. وليس شيءٌ مثلَ الظلم يُثيرُ إحساسَ الإنسان، ويوجِد لديه رُدود فعْلٍ في مواجهة الظالم، إنّ مُداوَلاتِ مجلس الأمن، والطريقةَ المتّبَعة من قِبَل القادة الغربيين في اسـتعمال حقِّ الفيتو، وطريقةَ معالجة القادة السياسيِّين الغربيين لقضايا فلسطين والبوسنة والهرسك والشيشـان وأخيرًا قضـية كوسـوفو، والتميُّزَ الصـارِخَ في المعاملة بـين بلدان العالم الإسـلاميّ نفسِـها في دَعْوى حماية حقوقِ الإنسان ومناصـرةِ الديمقراطية ومواجهةِ الدكتاتورية والاستبدادِ، كلُّ ذلك كان يقدِّمُ شواهدَ واضحةً على الميكافيلية، والنِّفاق،

واستعمالِ مقياس مُزدوِج للعدل، والتعصّب، وكلُّ ذلك يَكشف بوضوحٍ عن نسبية القِيَم في الحضارة الغربية، والأساسِ النفعيّ للفكرة الخُلقية في تلك الحضارة. إنها كائنٌ عُدوانيّ ذو عضلاتٍ هائلةِ القوّة، ولكن لا قلبَ له ولا رُوح.

لقد صار من السهل تعريةُ الحضارة الغربية أمامَ الناس، وإظهارُها على حقيقتها، والكشفُ عن وجوه ضعْفِها وعجْزِها، وأنّ وُعودَها بالسعادة البشرية بعيدةٌ عن التحقيق، هي حضارةٌ تحمل في أحشائِها عواملَ تدميرِها، وتدميرِ الإنسانية، حضارةٌ سِمَتُها الكبرياءُ والغرورُ وإرادةُ العلوِّ والفساد، حضارةٌ ليس فيها مكانٌ واسعٌ لفكرة الله ربِّ العالمين الرّحمنِ الرحيم مالكِ يوم الدين[٦].

* * * * * *

الإسلامُ لديه من الإمكانيات ما يُمكِن أن يُغيِّر حياتَنا، ويصنعَ لنا التقدُّم، المشكلةُ أنّنا غيرُ واعين لهذه الإمكانيات، وهذه الإمكانياتُ ليست فقط لصُنعِ ووجودِ تقدُّمِنا، بل هو تقدُّمُ البشرية[٤٢].

يقول جوستاف: (والإسلامُ من أكثرِ الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم، ومن أعظمِها تهذيبًا للنفوس، وحملًا على العدل والإحسان والتسامح).

وقال: (الحقُّ أنّ الأمم لم تعرِف فاتحين متسامحين مثلَ العرب، ولا دينًا مثلَ دينهم، وما جهِلَهُ المؤرِّخون من حلْمِ العرب الفاتحين وتسامُحِهم كان من الأسباب في سُهولةِ اعتناق كثيرٍ من الأمم لدينهم ونظُمِهم ولُغتهم التي رسخَتْ، وقاومت جميعَ الغارات، وبقيَتْ قائمةً حتى بعد أن تولّى سلطانُ العرب عن مسرَحِ العالم).

وقال: (وكانت أخلاقُ العرب في أدوار الإسلام الأُولى أرقَى كثيرًا من أخلاقِ أُمَم الأرض قاطبة، وكان عدلُهم واعتدالُهم وتسامحُهم نحوَ الأمم المغلوبة ووفاؤُهم بعهودهم ونُبْلُ طبائعِهم مما يَستوقِفُ النظَر، وناقَض سلوكَ الأمم الأخرى)[١].

ولم تكن الأديانُ المجوسية والنصرانية واليهودية هي مبعثَ العُدوانية التي أظهرَها الغزاةُ من أتباع هذه الديانات للمدينة المقدسة على نحوِ ما سبَق، وإنما مَبعثُها الطبيعةُ البشرية التي أخفقَتِ الأديانُ المذكورةُ في ترويضها، في حينَ نَجَح الإسلامُ في ترويض هذه الطبيعة لدى جيشِ عُمَر، وجيشِ صلاح الدين، ولم تكن المجازِرُ التي ارتُكبت ضـدَّ الفِلَسْـطينيين في عـام ١٠٩٩م تختلِـفُ في نوعيَّتِها عن المجـازر التي ارتُكبت ضـدَّهُم في عامـي ١٩٤٧-١٩٤٨م، ولم تكن الأعمالُ الوحشـية التي ارتُكبت في مدينة القدس في القرن الحاديَ عشَـرَ تختلِفُ في الطبيعةِ والباعث عن الأعمالِ التي ارتُكبت في القرن العشـرين في درسدن الألمانية(*)، أو ناجازاكي اليابانية(**)، أو ماي لي الفيتنامية، لم تختلِف عن قصْـفِ المروحيات لأَسْـرى مقيَّدِين أو يُصلُّون في قلعة قانجي الأفغانية.

ولن تكون الثقافةُ قادرةً على ذلك إلا إذا كان التسامحُ والنفورُ من الظلم والعُدوانِ جزءًا من طبيعتها.

وقد لفتت هذه المفارقةُ في السـلوك الحربيّ بين المسـلمين وغيرِهم انتباهَ عددٍ من الكتّاب الغربيين، ومن ذلك:

Arthus Gilman إذ يقول: (بالمقارنة - على سـبيل المثال - بفظاعات الصليبيين حينما سـقَطت القدس في أيديهم عام ١٠٩٩م حيثُ قتَلُوا سبعين ألف مسلم رجالًا ونساءً وأطفالًا، فإنّ انتصارَ محمد كان دائمًا محكومًا بأخلاقيات الدين لا بالانتهازية السياسية).

(*) درسـدن عاصمـة ولاية ساكسـونيا في شرق ألمانيا، وقد قصفتها قوات التحالف في الحرب العالمية الثانية، وقدرت الخسائر البشرية من القوات الألمانية آنذالك بـ ٣٥٠٠٠٠ مدني.

(**) مدينة تقع على السـاحل الغربي لجزيرة كيوشـو اليابانية، وقد ألقت عليها الولايات المتحدة الأمريكية في ٩ أغسطس من عام ١٩٤٥م قنبلة ذرية.

وDermenghem حيث يقول: (لقد نجحوا (المسلمون) لأنهم كانوا فعلًا يستحقُّون النجاح، لقد انتصر الإسلامُ لأنه قدَّمَ رسالةً يحتاجُ إليها العالم الغربي، لقد تحمَّل المسلمون في البداية الاضطهاد دون مقاومة وبعد ذلك حينما قاوَمُوا وانتصروا أبْدَوا من ضروب التسامح ما هو جديرٌ بالاعتبار، لقد مُنح اليهودُ والنصارى بدفْعِهم الجزيةَ الحماية الكاملة، ومُنِحت لهم الحريةُ في ممارسة معتقداتهم، واعتُبروا جزءًا من نسيج المجتمع، لقد فاض القرآنُ والحديثُ بالتوجيهات إلى التسامُح، ولقد طبق الفاتحون المسلمون الأولون هذه التوجيهاتِ بدقّة، عندما دخل عُمَرُ القدسَ أصدَر أمرَه للمسلمين بألا يُسبِّبوا أيَّ إزعاج للمسيحيين أو لكنائسهم، وعندما دعاهُ البطريق للصلاة في كنيسةِ القيامة امتَنع وعلَّل امتناعَهُ بخشيتِه أن يَتّخذ المسلمون صلاتَه في الكنيسة سابقةً، فيَغلِبوا النصارى على الكنيسة، يجبُ أن نعترف بأنّ العكس حصل فعلًا عندما دخل الصليبيُّون القدس، حيث تقدَّموا يخوضون في نهرٍ من الدم، مصمِّمين على أن يقطعوا رقابَ جميع المسلمين، لقد قال روبرتسون (المؤرخ الإنجليزي): (إنّ أتباعَ محمّد هم المتدينون الوحيدون الذين مَزجوا التسامُحَ بالحماس الدينيّ).

وR.V.C.Bodley حيث يقول: (عندما غزا الصليبيون القدس في عام ١٠٩٩م تركوا الموتَ والخراب حيثما مرُّوا، ولكنْ عندما هزَم صلاحُ الدين الصليبيين لم يتّخِذ أيَّ إجراءٍ انتقاميّ، وكذلك لم يدمِّرِ المسلمون البلْدانَ التي غزَوْها كما فعل المحاربون من أصحاب الديانات الأخرى، حيثما مرَّ المسلمون خلَّفُوا شيئًا أفضلَ مما كان في السابق، كانوا مثلَ السحاب المنهمِر أخصَبُوا الأرضَ التي كان الآخَرون خلَّفُوا فيها الجدْبَ والخراب).

وقال Alcsander Powelee: (في انتصارات المسلمين الحربية أظهَروا درجةً من التسامح أخجَلَتْ كثيرًا من الشعوب المسيحية).

وB.Smith حيث يقول: (عندما فُتحت القدس في عهد الخليفة عُمَرَ بعد حصارٍ طويلٍ لم يدَمَّر أيُّ مبنى إلا ما اقتضته طبيعةُ الحصار، ولم يُرَق أيُّ دم إلا في ساحةِ المعركة، ودخل عُمَر المدينةَ في صحبة البطريق، حيث كانت تَجري بينهما محادثةٌ وُدّية عن تاريخ المدينة، وعندما حان وقتُ الصلاة دعاه البطريقُ للصلاة في كنيسةِ القيامة، فامتنع خوفًا من أن يَعتبِرها المسلمون سابقةً فيدَّعُوا الحقَّ في الصلاة في الكنيسة، فيَدْعُو ذلك إلى الإخلالِ بحرية النصارى في العبادة، تلك الحريةُ التي كان يَحرِص على ضمانها، في عام ١٠٩٩م سقطَتِ القدسُ أمامَ جيوش الصليبيِّين بعد حصارٍ قصيرِ المدة، فأُخِذت المدينةُ بعاصفةٍ من الفظاعة، وخلالَ ثلاثةِ أيام كان القتلُ يَتمّ دون تفريقٍ بين رجلٍ أو امرأةٍ أو طفل، ذُبح سبعون ألفًا من المسلمين، منهم عشرةُ آلاف في مسجدِ عُمَرَ نفسِه)[٩].

تُعتبَر المستشرقة الألمانية الراحلة زيجريد هونكه(*) من أوسعِ المستشرقين اطِّلاعًا على تاريخ الإسلام، وقد وَصَفتْ بعباراتٍ مؤثِّرةٍ انتصارَ الصليبيين على المسلمين، واستيلاءَهُم على القدس، فقالت: (عَقِبَ وصول «الصليبيين» إلى هدفِهم المنشود «بيت المقدس» طغَتْ حماسَتُهم، فجرَفتْ أمامَها كلَّ السُّدود، وانطلقوا سيلًا بشِعًا بربريًّا، يأتي على الأخضرِ واليابس، وقد أجَّج ذلك صيامُهم ثلاثين يومًا حماسةً متعصِّبة، ونذرًا للربّ تقرُّبًا، ولقِيَ هذا كلُّه ردَّ فعلٍ لدى سفاكي الدِّماء من فُرسان «الفرنجة»، من فرنسيين ونورمان وجموعِهم التي انحدرَتْ في طرقات بيت المقدس تحصِدُ الأرواحَ حصدًا، لا تقع على إنسانٍ إلا قتلتْه، رجالًا ونساءً وشيوخًا وولدانًا. وتذكُر مصادرُنا الغربيةُ ذاتها أنّ ذلك الحصادَ الوحشيَّ بلغ عشرةَ آلاف ذبيح، ويصف المؤرّخ الأوروبي ميشائيل دارسيرر كيف كان البطريرك نفسُه يَعدُو في زُقاق بيت المقدس وسيفُه يقطُر دمًا! حاصدًا به كلَّ من وَجَد في طريقه، ولم يتوقَّف حتى

(*) زيجريد أو زيكريد هونكه (١٩١٣-١٩٩٩م) مستشرقة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية.

بلغ كنيسةَ القيامة وقبْرَ المسيح، فأَخَذ في غسل يديه تخلُّصًا من الدماء اللاصقة بها، مردِّدًا كلماتِ المزمور التالي: «يفرَحُ الأبرار حين يرَوْن عقابَ الأشرار، ويَغسلون أقدامَهم بدمِهم، فيقول الناس: حقًّا، إنَّ للصديق مكافأة، وإنّ في الأرض إلهًا يَقضي») (المزمور ٥٨: ١٠-١١)[٣].

وبهذه المناسبة، فيمكِنُ للقارئ إعادةُ التأمُّل أيُّ النظامَينِ الثقافيَّين أكثرُ تحضُّرًا وتقدُّمًا، وإنسانيةً وحمايةً لكرامة الإنسان وحريتِه، وأولى بالدعوةِ لتبنِّيه والدفاعِ عنه، وليتذكَّر القارئ أننا نتحدَّثُ عن الأنظمة ونُقارِن بينها، ولا نتحدَّثُ عن التطبيقات التي تحدُث في ظلِّها، هنا أو هناك، وعندما نتحدَّثُ هنا عن الإسلام، فإنما نقصِدُ به جانبَهُ «الدنيوي» أي تنظيمَهُ لطريقة الحياة[٢٥].

لاحظَ المؤرخ الشهير أرنولد تُوينبي أنّ البشرية مرَّت بأكثرَ من عشرين حضارة، كلُّها بادت أو في طريقِ الفَناء، وكان العاملُ في فنائها دائمًا: «الحروب» و «الطبقات»، وقال: (إني لأعجَبُ كيف يُعمَى عن حقيقة أنّ الحضارةَ الغربية ليست أقوى حصانةً من الحضارات البائدة!)[٣].

لو استحضَرْنا بعضَ هذه الحضارات، مثل: الحضارة الهيلينية، والفرعونية، والرومانية، والفارسية، والحديثة المعاصرة، ولو سألَ القارئُ نفسَه:

أيُّ هذه الحضاراتِ هي الحضارةُ المثالية؟

فإن لم يكن أيُّ منها كذلك، فأيها أقربُ إلى المثالية؟

فإن لم تكن، فأيُّها أقربُ إلى التقدُّم والتحضُّر؟

من الصعب أن يحكُمَ قارئٌ على أيِّ حضارة بأيٍّ من هذه الأحكام دون أن يكون لديه «مقياس» Yardstick يُقارِن ويحكُمُ على أساسِه، ولا شكّ أن الناس سوف يَختلِفون في تصوُّر هذا المقياس، ولكن لو افترضنا أننا اختَرْنا المقياسَ الآتي، بمعنى أنّ الحضارةَ المثالية هي التي تتوفر لها المؤهلات الآتية:

أ. أن تكون حضارةً «إنسانية» في مقاصدِها وقِيَمها وتطبيقاتها.

ب. وأن تكون حضـارةً يشترِك في وجودها وتجديدها السوادُ الأعظم من المجتمع، أي أن تكون حضـارةً «شعبية»، وليست حضـارةَ أباطرة، أو فراعنة، أو قُوًى سياسية، أو عسكرية.

ج. وأن يكون المجتمعُ قادرًا على «الاستفادة الكاملة من الإمكانيات المتاحة».

د. وأن يكون متطلِّعًا لـ «خلق إمكانيات جديدة»، و «قادرًا على تحقيق ذلك».

هـ. وأن تتوفَّر للحضارة «القدرة على مقاومة عوامل الفَناء والسقوط»، أي أن تكون حضارةً «مستمرة ومتجددة».

ولو طبَّقنا هذا المقياسَ على الحضـارات المختلفة لربما كان مقياسًا عادلًا في المقارنة بينها وفي الحكم عليها.

ولو أَخَذْنا آخِرَ هذه الحضارات كمثال، فيُمكن القول بأنّ الحضارةَ العالمية المعاصرة (الغربية – الأورو أمريكية) يتوفَّرُ لها مؤهِّلُ الاستفادة الكاملة من الإمكانيات المتاحة، ومؤهِّلُ خَلْـق إمكانيات جديدة، والقدرة على تحقيق ذلك، إلى حدٍّ كبير، وبصـورة نسبية يتوفَّر لها مؤهِّل «أن تكون حضارة يشترك في وجودها وتجديدها السوادُ الأعظم من المجتمع، أي أن تكون حضارةً «شعبية»، ولكنها «غيرُ محصَّنة ضدَّ عوامل الفَناء» كما أشـار أرنولد تُوينبي، كما أنه من الصـعْبِ وصـفُها بـ«الإنسـانية» رغم ما قدَّمَت للإنسـان من تسهيلاتٍ مادّيةٍ في الحياة، ومن إعلانِ شعارات قِيميّة وأخلاقية، مثل: الحرية، والمساواة، وحقوق الإنسان، والبذل التطوُّعي بالمال والنفس.

وبغضِّ النظر عن نسـبية قِيَم هذه الحضـارة الغربية المعاصـرة وأخلاقياتها، فإنها لا شـكّ لم تجعَلِ الحياةَ أَسْـعَد، حتى في بني قومِها؛ فالإنسـانُ المعاصـر المتأثِّرُ بهذه

الحضـارةِ هو أقربُ إلى «المعيشة الضـنك» من «الحياة الطيبة»، وهو أقربُ إلى التوتُّر النفسيّ من الرضا النفسيّ، أو الشعور بالاكتفاء.

إضـافةً إلى ما تسبَّبتْ فيه هذه الحضـارةُ من كوارثَ وفواجِع، وظُلم، وسَفْكٍ لدم الإنسـان، وإفسـادٍ في الأرض؛ لا يَغيب عن البال أنّ هذه الحضـارةَ أشعلَتْ حربَيْن عالميَّتَين في خلال ٢٥ سنة، قُتل فيها سبعون مليونًا من النساءِ والأطفالِ وغيرِ المقاتلين.

وإنّ قتْلَ مائةِ ألف شـخصٍ في ليلة واحدة بدافعِ الحقْدِ والانتقام، ودكَّ مدينةٍ مثل (درسـدن) Dresden الألمانية للهدف نفسِه من الصَعْب أن نصـنِّفَه بأنه نتيجةُ تنويرٍ أو عقلانية، أو تحضُّـرٍ أو إنسانية، أمّا ما استَهلَّ به هذا القرنُ من حروبٍ لهذه الحضارة فلا يَحتاج إلى تذكير.

ولكن ما شـأنُ الحضـارةِ الإسـلامية؟ هل ما يُسـمَّى الحضارةَ الإسـلامية كِيانٌ متحضِّرٌ وُجِد فعلًا وحقيقة؟ أم هو ادعاء؟

لنَفرِض أنه كِيانٌ حقيقيّ وُجِد فعلًا، فهل يمكن أن يقارَن في مجالِ التحضّر والتقدّم بالحضارات الخمس المشارِ اليها آنفًا، بما فيها الحضارة الغربية المعاصرة؟

لنتقـدَّم قليـلًا، هل يَحتمِـل - إذا كان يمكِنُ المقارنة حسَـبَ المقياس أعلاه - أن يكون هذا الكِيان المتحضِّرُ أكثرَ تحضُّرًا وتقدُّمًا من الحضارات الخمس بما فيها الحضارة المعاصرة؟

ولنتقدَّم أيضًـا، هل يمكن أن يكون هذا الكِيان المتحضّـر أقربَ إلى المثالية، طِبْقًا للمقياس المقتَرَح للتحضّر؟

وأخيرًا، ألَا يُمكِنُ أن يكون هذا الكِيان المتحضِّرُ مطابقًا للمقياس المفترَض، وبالتالي يمكن الحكم له بأنه (الحضارةُ المثالية)؟

لا نكاد نجِدُ باحثًا في الحضارة الإسلامية سواءٌ من المسلمين أم من المحايِدين من غيرِ المسلمين إلّا ويتكرَّرُ على أقلامِهم صورٌ منتقاةٌ من تطبيقات الحضارة الإسلامية، تُشير إلى «مؤسسات»: دار الحكمة، أو «شخصيات»: الفارابيّ(*)، والرازيّ(**)، وابن سيناء(***)، وابن رُشْد(****)، أو «منشآت»: الحمراء(*****)، وتاج محلّ(******)، فهل هذه فعلًا «الحضارة الإسلامية» مختزلة؟ وأنّ الباحثِين نقَّبُوا في أكوام التراب، فانكشفَتْ لهم هذه «الجواهر الثمينة» من صُوَر التحضّر والتقدّم؟، بل هل هي أبرَزُ ما في تطبيقاتِ الحضارة الإسلامية؟ بل هل هي فعلًا صوَرٌ بارزةٌ من تطبيقات الحضارة الإسلامية؟

نلاحِظُ أنّ الباحثِين للتاريخ في قراءتهم للحضارة الإسلامية لا يهتَمُّون بصورةٍ كاملةٍ لنظامٍ متكاملٍ ومنسَجِم، فيُردِّدُ الباحثون دائمًا قصّةَ عُمَر بن الخطاب مع العجوز اليهوديّ حينما قال له: «ما أنصفناك عندما أخَذْنا منك الجزيةَ شابًّا قادرًا، ونُضيِّعك في حالة عجزك»، وأمَرَ له.

ولا يُخفون فرَحَهم بهذه القصة دليلًا على «تسامح» الإسلام، ولا يَنتبهون إلى أنّ كُتب التراث حفظَتْ لنا نماذِجَ من عُهود المسلمين لأهل الذمة.

(*) هو أبو نصر محمد الفارابي (٨٧٤-٩٥٠م) فيلسوف مسلم اشتهر بإتقان العلوم الحكمية، وكانت له قوة في صناعة الطب.

(**) هو أبو بكر محمد بن يحيى الرازي (٨٦٤-٩٢٣م) أحد أعظم أطباء الإنسانية على الإطلاق كما وصفته زجريد هونكه.

(***) هو أبو علي الحسين بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م)، اشتهر بالطب والفلسفة، واشتغل بهما.

(****) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ) فيلسوف وطبيب وفقيه وقاضٍ وفلكي وفيزيائي أندلسي.

(*****) هو قصر الحمراء وحصن شيده أبو عبدالله محمد الأول بن الأحمر بين (١٢٣٨-١٢٧٣م) في مملكة غرناطة خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي.

(******) هو ضريح رائع الصنع شيده الملك شاه جهان (١٦٣٠-١٦٤٨م) ليضم رفات زوجته ممتاز محل.

وكتب المؤرخ الروائي الإنجليزي المشهور H. G. Wells في كتابه Outlines of the history (إصدار ١٩٢٠. ص ٣٢٦): (إنّ الإسلام انتشر وسادَ لأنه قدَّم للإنسان أفضلَ نظام سياسيّ واجتماعيّ يمكن أن يمنحَهُ الزمان، هذا النظامُ الذي يمثل أوسعَ وأنقى وأنظفَ فكرةٍ سياسيةٍ أمكن حتى الآنَ أن تُطبَّق عملًا على الأرض).

وكتب بودلي(*) في كتابه The Messenger (إصدار. ١٩٥٤.ص. ١٣٦): (لم يدمِّرِ المسلمون البلْدانَ التي غزَوْها كما فعل المحاربون من أصحاب الديانات الأخرى، حيثما مرَّ المسلمون خلَّفُوا شيئًا أفضلَ مما كان في السابق، كانوا مثلَ السحاب المنهمِر أخصَبُوا الأرضَ التي كان الآخَرون خلَّفُوا فيها الجدْبَ والخراب).

مهْما كانت ثقتُنا في أصحاب هذه النصوص فيما يتعلَّق بمعرفتهم عن الحضارة الإسلامية وحيادِهم في الحكم، فلا يمكن اعتبارُها في ذاتِها أدلةً قاطعةً على مضمونها، إنّ الذي يُعتبر دليلًا قاطعًا رؤيتُنا للواقع التاريخيّ كما هو، فهل نتمكَّن الآن من رؤيةِ الواقع الذي سارت فيه الحضارة؟

الدوافعُ والموجِّهات والغايات:

كما أنّ الحضارة الحديثة في دوافعها تأثَّرتْ بالحضارة الرومانية – حيثُ إنجازاتُ هذه الحضارة المعرفية والجمالية وروحُها التي تجسَّدت في الاستعلاء والتقدُّم المادّي، والثورةِ على الكنيسة، والانتفاعِ بما وصل إليه المسلمون من ثروةٍ معرفية في الفلسفة والاجتماع والعلوم الطبيعية، والرغبةِ الملحّة على تحقيق التقدُّم بأن يقوم الإنسان وحده، وأن توجِدَ كلَّ الإمكانيات الممكنة لتسهيل حياةِ الإنسان ورفاهيته على اعتقادٍ «بتفوُّق الجنس الأبيض الأوروبي» و «الاستعلاء» بذلك – فإنّ الحضارة الإسلامية لها دوافعُها وموجِّهاتها وغاياتها، لا يَظهرُ أنّ أحدًا يُنكر أثرَ الدِّين أو التأثيرَ الإسلاميّ

(*) كولونيل رونالد فيكتور كوريتناي بودلي (١٨٩٢–١٩٧٠م) كان ضابطًا في صفوف الجيش البريطاني وكاتبًا وصحفيًّ ومستشرقًا.

على الحضارة الإسلامية؛ فالقرآنُ هو المحرِّك الأول والرئيسُ والباعث لهذه الحضارة، وهو موجِّهٌ لسلوك المسلمين لاسيّما في العصور الأولى للحضارة الإسلامية، وهو الذي يرسُم الغايةَ من الحياة ومن العمل بها لكلِّ مسلم.

وقد يكون ما هو أكثرُ موجبٍ للحَيرة سرعة تحوُّل الشعوب المفتوحة للإسلام، في الحقيقة أنّ الإسلام انتشر ليس بسبَب الفتح العسكريّ، كما هي الفكرةُ الشائعة، إنما كان الإسلام بقِيَمه هو الذي مكَّن للانتصار السياسيّ أن يتمّ بهذه الصورة التي لم يوجَد لها مثالٌ في التاريخ.

وقد نَتج عن ذلك تميُّزُ الحضارة الإسلامية عن الحضارات الأخرى بثلاثِ صفات رئيسة، بالإضافة إلى مشاركةِ الحضارة الإسلامية بعضَ الحضارات في تحقق صفة: «الانتفاع الأكمل بالإمكانيات المتاحة»، وصفة «الاستشراف لإيجاد إمكانيات جديدة»، هذه الصفاتُ الرئيسة الإضافية هي:

الأولى: أنّ الحضارة الإسلامية - بقيامها على أساس البذل التطوّعي من الأفراد تحت تأثيرِ الإسلام ومعاني «التقوى والعبادة» - كانت «شعبية»، على خلافِ الحضارات الأُخرى التي أنشأَها الفراعنةُ أو الأباطرة، أو النُّخبُ في المجتمع، أو القُوَى السياسية والعسكرية، ومن أبرزِ صوَر البذل التطوّعي الشعبي: «الوقف».

ولقد واجَه نظامُ الوقف - الذي اعتُبرت نيةُ البرّ فيه مكوِّنًا أساسيًّا من مكوناته - كلَّ احتياجات المجتمع المسلم في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان، كوجود المكتبات، والمدارس، والمستشفيات، والطرق والكباري، وكَرْي الأنهار، بل كلَّ تفاصيلِ احتياجات المجتمع، فكسَبَت الحضارةُ الإسلامية وصفًا تميَّزت به عن الحضارات الأُخرى أنها «حضارة شعبية»[٤١].

وفكرةُ الاستدامة البيئية لا تزال في مرحلةِ نشأتها في الثقافة المعاصرة، سواءٌ من ناحية الفكر والتطوُّر المعرِفيّ أم من ناحيةِ الممارسة والتطبيق، ولكنها بالنسبة لنظام

الإسـلام (منذُ عصـوره المبكرة) فكرةٌ ناضـجةٌ ومتقدِّمة ومتطورة من ناحيتي الفكرِ والممارسة، بل هي أساسٌ لقيام الحضارة الإسلامية كلِّها[٤٠].

الثانية: نظرًا لقيام هذه الحضـارة على أسـاس نظام الوقـف الذي إنما يوجَد تحت دافعِ قصد البرّ من الواقف كسَبت الحضارةُ الإسلامية صفةً مميِّزة أُخرى أنها «حضارة إنسانية»، وهاتان الصفتان المميِّزتان أنتجتا في الواقع العمليّ صفةً مميزة ثالثة إضافية.

الثالثة: وهي صفة «التجدُّد والاستمرار» و «الاستعصاء على عوامل الهدْم» التي لم تسـتطع أن تقاوِمَها الحضـاراتُ الأخرى، لقد استمرّت الحضارةُ الإسلامية تؤدِّي دورها قرابةَ أربعةَ عشـرَ قرنًا بالرغم من التقلبات السياسـية والحروب المستأصلة مثل غزو التتار والصليبيين، والكوارثِ الطبيعية، والأوبئةِ والمجاعات.

فهذه الصـفاتُ الثلاث: «شـعبية»، «إنسـانية»، «قادرة على مقاومة عوامل الهدْم والفَناء» صفاتٌ ظاهرةٌ من الواقع، ولا تحتاجُ إلى تدليلٍ منطقيّ أو إخباريّ.

وفيما عدا الحضارةَ الحديثة لا توجَد حضارةٌ شارك أفرادُ المجتمع في بنائها وتسييرها – على سبيل المثال الباذِلون المتطوعون – كالحضارة الإسلامية، فهي «حضارة شعبية» كما أوضـحنا، وهي أيضًا «إنسـانية» تتميَّز بهذه الصـفات عن الحضارات الأخرى، وأثبَتَ الواقع «مَناعتَها وقُدرتها على مقاومة عوامل الهدْم والفَناء»، وحين يُقارِن القارئ بين ما ذكرناه من متطلَّبات نموذج الحضـارة المثالية الذي شـرحناه سوف يُلاحِظ بلا شـكّ مدى قُرب الحضارة الإسلامية من الوفاء بمتطلَّبات ومؤهِّلات النموذج المثاليّ، فإن لم يقتنع القارئُ بذلك فعلى الأقلّ من المتوقَّع أن يقتنع بأنّ الحضـارة الإسـلامية أكبرُ من أن تُختزَل في مثال دارِ الحكمة، أو الشخصيات الباحثة في الفلسفة وبحوث الطبيعة، أو في الحمراء وتاج محَلّ[٤١].

٣ـ الإرهاب:

إنّ عجْـزَ الثقافـة الأمريكية عـن كَبْح الميل البشـريّ الغريزيّ للعُـدوان ظهَر في الإسراف في إنتاجِ وتخزِين أدواتِ القتل والتدمير.

قبلَ عُقود شـيَّعَت الولاياتُ المتحدة عشـرين قبرًا من الخرسـانة المسلحة تحتوي على فائضٍ من الغازات السـامّة، لكي تُودَع أعماقَ المحيط، بعد أن اكتَشف الجيش الأمريكيّ أنّ هذه الكَمِّيات تزيدُ عن حاجته، ولكنّ الجيش استمرّ في تطويرِ الأسلحة الكيماويـة والبيولوجية كمًّـا ونوعًا، وتملك الولاياتُ المتحـدة حاليًّا ثلاثين ألف طنّ من الأسـلحة الكيماوية،كما تملك أعظمَ مخزونٍ في العالم وأدقَّه تقنيةً من الأسـلحة البيولوجية مثل الجُدَري وحُمّى الجمرة الخبيثة.

وفي نهايـة عام ٢٠٠٤م بلغ إنفاقُها العسـكريّ قَدْرَ مـا تنفقُه دولُ العالم مجتمعة، كما يُظهِر ذلك تقريرُ المعهد الدَّوْليّ لأبحاث السلام الصادر في ٢٠٠٥/٦/٧م.

ويخزِّن الجيشُ الأمريكي ٨٠٠٠ رأس نوويّ، يبلغُ معـدَّلُ القوةِ التدميرية لكلِّ رأسٍ عشـرين ضعْف قنبلةِ هيروشـيما(*)، كلُّ هذه الرؤوس نشِـطةٌ وجاهزةٌ للتشغيل وضعت ٢٠٠٠ منها على قائمةِ إنذارٍ دقيق دقّةَ الشعرة، جاهزةٌ للإطلاق خلالَ خمسَ عشرةَ دقيقة.

ويزيـدُ في خطورة الأمر الإمكاناتُ المتاحة والاحتمالاتُ القريبة لاسـتخدام هذه القـوة المدمِّرة وقتلِ الأبرياء، لقد اسـتُخدمت فعلًا في عام ١٩٤٥م، وأظهَرتِ الوثائقُ المفرَجُ عنها أنها كانتْ على حافَةِ الاستعمال خلالَ الحرب الباردةِ في مناسبتين.

ويصـوِّر روبرت مكنمارا(**) – وزير الدفاع الأمريكيّ السابق – إمكانيةَ استخدام هذه القوة بقوله: (كيف ستُستخدم هذه الأسلحة؟ لم تُصادِق الولايات المتحدة قطُّ

(*) هيروشيما مدينـة في اليابان، تقع في جزيرة (هونشـو) وقد اشـتهرت عالميًّا لأنها كانـت أول مدينة في العالم تلقى عليها قنبلة ذرية.

(**) روبرت مكنمارا (١٩١٦-٢٠٠٩م) شغل منصب وزير الدفاع من حكم الرئيس الأمريكي جون كينيدي عام ١٩٦١م حتى حكم ليندون جونسون عام ١٩٦٨م.

على سياسة عدم الاستخدام أوّلًا، ليس أثناءَ السنوات السبع التي قضيتُها بصفتي وزيرًا للدفاع، ولا بعْدَ ذلك الوقت، لقد كُنّا وما زلنا مستعدِّين للبدء باستخدام الأسلحة النووية وبقرارٍ من شخصٍ واحد ضدَّ عدوٍّ نوويّ أو غيرِ نوويّ، في أيِّ وقت نعتقدُ فيه أنّ من مصلحتنا القيامَ بذلك، إنّ الأخطاءَ تكلِّفُ أرواحًا، لكن لو كانت الأخطاءُ ستؤثِّر على الأخطارِ المتعلقة باستخدام الأسلحة النووية فلن يكون هناك مُنحنًى بيانيٌّ لها، فستكون النتيجةُ دمارَ أُمَم، إنّ المزيجَ غيرَ التامّ للخطأ البشريّ والأسلحةِ النووية يَحمل خطرًا جِدِّيًّا جِدًّا بفاجعة نووية)[٩].

* * * * * *

في العَقْد الأخير من القرن المنصرم كانت بدايةُ الميلاد لما سُمِّيَ فيما بعدُ بـ (الحرب على الإرهاب)، وتَلحَقُ كلمةَ الإرهاب صفةُ الإسلاميّ صراحةً في بعض الأحيان، وفي أحيانٍ أُخرى تكونُ هذه الصفةُ معروفةً ضمنًا.

ويُبرِّرُ الغربُ هذه الحربَ بحوادِثَ إرهابيّةٍ نُسبَ ارتكابُها إلى أفرادٍ مسلمين، ويُظهِرُ الأمرُ وكأنّ الإرهابَ أَمرٌ طارئٌ على الحياة الغربية ومفاجئٌ لها، وأنّ الغربَ لم يَعرِفْ مِن داخلِه النشاطاتِ الإرهابيةَ من قبلُ إلا بمستوَى حوادِثَ عَرَضِيّةٍ لم تكن تَقتضِي إعلانَ الحرب عليه.

إنّ اصطلاح (Terrorism) في اللغات الغربية اصطلاحٌ حديثٌ نسبيًّا، وإذا عرَّفناهُ بأنه: (السّعْيُ للقتلِ والتدميرِ بقصْدِ إثارة الرُّعبِ العامّ، بحيثُ لا يكون الضحايا فيه هدفًا لذاتهم – وإن تُعُمِّد قتلُهم – وإنما يكونُ هدفُه تحقيقَ مقاصدَ سياسية أو أيدلوجية)، إذا عرَّفناه بذلك فإنّ مُحتواهُ أيضًا يُعتَبر حديثًا.

ويَبدُو أنّ هذا الاصطلاحَ بدأ دخولُه في اللُّغات الأوروبية وَصفًا لأعمالِ العُنف التي كانت تَتِمُّ في عهد روبسبير في أعقابِ الثورة الفرنسية.

على أنه ربما كان أقدمُ نشـاط إرهابي بمعنى «terrorism» سـجله التاريخ هو نشاطَ المذهب اليهوديّ Secarii بين عام ٦٦ وعام ٧٣ بعد الميلاد، وكان هذا النشـاط يوجَّه للرومان وللمتعاونين معهم من اليهود.

وقد ظلّ الغربُ بعد ذلك ساحةً للإرهاب بالمعنى المشارِ إليه، وفي النصف الثاني من القرنِ المنصرم عانتْ أوروبا من إرهابٍ طويلِ النّفَسِ أحيانًا، مثل عمليات الجيش الأيرلندي في بريطانيا، والباسك في أسبانيا.

أما في الولايات المتحدة فإنّ النشـاطاتِ الإرهابيـةَ التي كانت تتمُّ أثناءَ النزاعاتِ حولَ الرقِّ والتمييزِ العُنصـريّ أسفرَتْ عن ظُهور العِصابات الإرهابية المشهورة مثل K.K.K&LARD (*)، ويوجَدُ الآنَ على أرض الولايات المتحدة الأمريكية – كما يقال – أكثرُ من أربَعمائة مَليشيا مسلحة.

وكانـت تفجـيراتُ أوكلاهومـا – في ١٩ أبريل مـن عام ١٩٩٥م التي اشـتَهرتْ إعلاميًّا بسـببِ أنها نُسـبت في البداية إلى الإرهاب الإسلاميّ – من تنفيذِ شخصٍ يَنتسب إلى إحدى تلك المليشيات.

وخِلالَ الحرب الباردةِ بين المعسكر الشيوعيّ والرأسماليّ ظلَّتْ روسيا والولاياتُ المتحـدةُ تتبادَلانِ التنديـدَ بما يُوجِدُه كلٌّ منهمـا، أو ما يدعَمُه من حـركاتٍ إرهابية ضـدَّ الحكوماتِ المؤيدة للطرَف الآخَر، وبخاصّـة في الشرقِ الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية[٩].

فالإرهـابُ – مثلما نرى – ليسَ غريبًا علـى أوروبا، وليس غريبًا على أمريكا، ومن عهد روبسبير كانت أمريكا وأوروبا تنامُ في السريرِ مع الإرهاب![١٢].

* * * * * *

(*) كوكلوكـس كلان (بالإنجليزية: Ku klux klan) اسـم يطلـق على عدد من المنظمات في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعمد هذه المنظمات إلى استخدام العنف والإرهاب وممارسات التعذيب والحرق على الصليب لاضطهاد من يكرهونهم.

لم يكُن في اللغة العربية اصطلاحٌ يدُلُّ على الإرهاب بمعنى (Terrorism)، وقد شاعتْ كلمةُ إرهاب في اللغة العربية ترجمةً لكلمة (Terrorism) وصْفًا للعملياتِ التي كانت تقومُ بها في فِلَسْطِينَ العِصاباتُ الصهيونية التي كانت عناصرُها قدِمتْ إلى فِلَسْطِينَ من الغرب، وقد نَشِطتْ هذه العِصاباتُ بخاصّةٍ بعدَ انتهاءِ الحرب العالمية الثانية، وكان تفجيرُها لفندق داود في القدس في ٢٢ يونيو ١٩٤٦م أولَ عمليةٍ إرهابية من نوعِها تتمُّ في الشرق الأوسط، وكانت هذه العِصاباتُ تعمِدُ إلى ارتكاب المجازِر – وتتعمَّدُ أحيانًا قتْلَ الأطفالِ والنّساء وكبارِ السنّ، مثل مجزرة دَيْر ياسين التي ارتُكبت في ١٠ إبريل ١٩٤٨م – وذلك بقصْدِ إثارة الرُّعب العامّ لدَى الفِلَسْطِينيِّين؛ لحمْلِهم على الفِرارِ وتركِ أراضِيهم، ليحتَلَّها الغُزاةُ اليهودُ القادمون من شتّى أقطارِ الأرض، وقبلَ ذلك لم تكن ساحةُ العالم الإسلاميّ تعرِفُ هذا النوعَ من العُنف، وإن ظلَّت كغيرِها من أقطار العالم – وطَوالَ العُصور – تشْهَدُ أنواعًا أُخرى من العُنف كالحرُوب، واغتيالِ الزُّعَماء، واغتِصابِ الأراضي والتعذيب.

فالإرهابُ بمعنى (Terrorism) إنما استورَدَهُ حديثًا العالَم الإسلاميُّ من الغرب اصطلاحًا لُغويًّا، وممارَسةً عملية).

وقد شهِدَت ساحةُ العالم الإسلاميّ منذُ النصفِ الثاني من القرن المنصرم الإرهابَ بمختلِف صُوَرِه، وأهدافِه الأيدولوجية والسياسية، ومصادِرِه سواءٌ كانت حكوماتٍ أم منظَّمات.

وفي العقود الأخيرة وَقعَت عملياتٌ إرهابية داخلَ العالم الإسلاميّ وخارجَه، نُسبت إلى منظّماتٍ إسلامية، أو أفرادٍ مسلمين، وسواءٌ كان منفِّذوها مسلمين متشدِّدين أو عِلمانيين أو غيرَ مسلمين فقد ظلَّ الغربُ يربِط دائمًا بينها وبين الإسلام.

ولما وقَع في مستهلّ هذا القرن الحادثُ الإرهابيّ في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م – بالهجوم على بُرجَي التجارة الدَّوْلية في نيويورك، ومبنى البنتاجون في واشنطن – اعتُبر هذا الحدثُ الإجراميُّ الغامضُ نقطةَ تحوُّلٍ في قضية الإرهاب بين الإسلام والغرب[٩].

فالإرهابُ – الذي يُعتبر الآنَ مرادفًا لِلَفظ «مسلم» في لغة الغرب – كان ضمْنَ هدايا الغرب للعالَم الإسلاميّ، ألا نتذكَّرُ أنّ أوّلَ مبنى عامّ تم تفجيرُه على سكّانه في الشرق الأوسط – وهو فندق ديفيد في القدس– وأنّ أوّلَ طائرة مدنية أُسقطت في الشرق الأوسط – وهي طائرة الخطوط الليبية – كلاهُما نفِّذا بأيدي أناسٍ ينتمون لعالَم الغرب المتحضِّر[٣].

* * * * * *

فيما يتعلَّق بالتقييم الأخلاقيّ للإرهاب، فإنّ الغرب في الغالب من حيثُ المبدأ يُميِّز في هذا المجال بين أنواعِ الإرهاب من حيثُ هدفه؛ فإذا كان هدفُه مشروعًا فلا يَعُدّه إرهابًا، أو على الأقلّ لا يَدِينُه أخلاقيًّا، ويمثِّل لهذا النوع عادةً في الأدبيات الغربية بالعمليات التي كانت تقومُ بها المقاومة الفرنسية – أثناءَ احتلال ألمانيا لفرنسا في الحرب العالمية الثانية – ضدَّ الجيش الألمانيّ أو ضدّ الحكومة الفرنسية التي أقامها جيشُ الاحتلال، فلم يكن أحدٌ في الغرب في ذلك الوقت – سوى الحكومة النازية – يَعتبر تلك العملياتِ غيرَ مبرَّرةٍ أخلاقيًّا، بل كانت تَحظَى بالتمجيد والاحترام، وبعد سُقوط الحكومة النازية لم يَعُد حتى الألمان يَعُدّون المقاومةَ الفرنسية حركةَ إرهاب إجراميّ[٩].

يُقارَن هذا بمَثَلٍ حديثِ العهد، هو معاملةُ قوات التحالُف الدَّوْلي لأَسْرى الحرب في أفغانستان، بالطبع لا نتوقَّع من اتفاقيات جنيف أن تَسمح بقصْفِ الأسرى بالمروحيات، أو حرقِهم بالديزل، أو إغراقِهم بالمياه المجمدة، أو رميِهم بالرصاص وهم مكتوفُو الأيدي من الخلف، أو وهم يُصَلُّون، أو المعاملاتِ اللاإنسانية الأخرى.

ولكي يَفِرَّ التحالُف الدَّوْلي من نسبتِه إلى انتهاك الاتفاقيات الدَّوْلية أو نسبته إلى ارتكابِ جرائم الحرب سَمّى المحاربين الذين أُسِروا وهم في حالةِ الدفاع ضدَّ الهجوم في المعركة الحربية والبرية إرهابيِّين ومعتقَلِين، مقرِّرًا سابقةً كان لها أشباهٌ ظلّ العالَم

الحرُّ يتّهِم بها الجيشَ النازي لإلغاء الالتزامِ كليًّا بقواعدِ القانون الدَّوْلي والمعاهداتِ الدَّوْلية عن طريق تغييرِ الاسم والتلاعبِ بالألفاظ[٣].

ومنذُ عهد مكيافيلي والحكوماتُ - ولاسيّما في العصور الحديثة - تَستخدم أسلوب (الحرب القذرة)، ولكنها تتخِذُ كلَّ الاحتياطات لضمان عدمِ انكشاف الفضيحة الأخلاقية الناشئة عن استخدام هذا الأسلوب.

ولأول مرّة في التاريخ يصرِّح علنًا رئيسُ دولة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أنّ حكومتَهُ سوف تَستخدم أسلوبَ الحرب القذرة في حربها القادمة[٩].

وقد كَتب إليوت كوهين عضو مجلس السياسة الدفاعية لبوش في مقالٍ نُشر في الوول ستريت جنرال(*) في صفحة التحرير: (إنّ عدوَّ الولايات المتحدة ليس الإرهابَ، وإنما الإسلامُ المحارِب)[٣٨].

إنّ الأمثلةَ لاستعمال آخَرين في عملياتٍ إرهابية هي من مجالات «الحرب القذرة» المعروفة لدَى السياسين في الغرب منذُ عهد ميكافيلي[٢].

ومن نماذجِ التكتيكات التي استخدَمها الغرب ضدَّ الشيوعية في الحرب الباردة نشاطُ منظمة «جلاديو»(**) Gladio التي أنشأتها المخابراتُ الأمريكية والإنجليزية، حيث كانت تقوم بتفجيراتٍ في فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وتنسُبُها لليساريين؛ بقصْدِ سحْبِ تعاطُف الناس مع الأحزاب اليسارية؛ حتى لا تَصِل إلى الحكم، ومن أفظعِ هذه النشاطات تفجيرُ غرفة انتظارِ الدرجة الثانية في محطّة قطار روما في عام ١٩٨٠م، حيث قُتل ٨٥ شخصًا وجُرح كثيرون، ونُسب التفجيرُ في ذلك الوقت إلى المنظمة اليسارية «الألوية الحمراء»(***)، وكانت النتيجةُ عدَمَ وصول الحزب اليساريّ للحكم،

(*) وول ستريت جورنال جريدة دولية يومية باللغة الإنجليزية تنشرها شركة نشر الأمور الاقتصادية داو جونز في مدينة نيويورك مع طبعات آسيوية وأوروبية.

(**) جلاديو هي منظمة سرية أنشأها حلف الناتو في إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية ضد الشيوعيين.

(***) الألوية الحمراء منظمة إرهابية سرية متطرفة في إيطاليا أُسِّست عام ١٩٧٠م في ميلانو.

ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة صـدَرَ تقريرُ برلمان روما يَكشِـفُ أنّ العملية تمتْ بيد المخابرات الأمريكية بالتعاون مع عناصرَ من المخابرات الإيطالية[٤٣].

وقبل شهر من الحدث (أي حدث ١١ سبتمبر) صدَر في الولايات المتحدة كتاب: James Bamford المعنـون «Body of Secrets» وقد تحدَّثَ فيه مؤلِّفُه بناءً على وثائقَ تحـتَ يدِه عـن عمليـة «North woods»، وكان الجيشُ الأمريكيُّ بعد فشَـلِ عملية «خليـجِ الخنازيـر»(*) متلهِّفًـا للهجوم علـى كوبـا، وكان في حاجةٍ لمبرِّرٍ كافٍ لكَسْـرِ معارضـةِ الرأي المحليّ والـدَّوْلي لمثل هذا الهجوم، وتضـمَّنت الوثائـق: «أنّ الرأيَ العامّ العالميّ والأممَ المتحدة ينبغي أن يتأثَّرا إيجابيًّا بتطوير الصـورة الدَّوْلية للحكومة الكوبية، بوصْـفِها متهوِّرةً ولا تَشـعُر بالمسـؤولية، وتُمثِّل خطرًا مُخيفًا، ولا يمكن التنبُّؤُ به على السّـلام في نصف الكُرة الغربيّ». وشـملتْ خُطَط الجيش لهذا الغرَض عِدّةَ بدائل، منها: قصـفُ سـفينةٍ حربية في جوانتنامو(**)، ونسـبةُ هذا العملِ لكوبا، كما تضـمَّنتْ خُدعةً معقَّدة، بأن تُطلى طائرةٌ في قاعدة Elgin الجوية، وتُعطَى رقمًا مطابقًا لرقم طائرةٍ مدنية مسـجّلة لمؤسَّسة أمريكية، وتحُلُّ الطائرة المطابقةُ الأصلِ غيرُ المأهولة التي يمكن السيطرةُ عليها من بُعْدٍ محَلَّ الطائرةِ الأصلية في وقتٍ محدَّد، وبعد إجراءِ ترتيباتٍ معيَّنة تُواصِل الطائرةُ غيرُ المأهولة التحليقَ وَفْقًا لخُطّة الطيران، وعندما تُصبح فوق كوبا تُرسِـل الطائرةُ غيرُ المأهولة إشارةَ استغاثةٍ لاسـلكية دَوْلية تَذكُر أنّ الطائرةَ تتعرَّضُ لهجـوم طائرات «ميـج»، ويُقطَعُ الإرسـالُ بتدمير الطائرة بتفجيرِها بإشـارةٍ لاسـلكية، ويُمكِّنُ هذا محطّاتِ اللاسـلكي لمنظَّمة الطيران المدنيّ الدَّوْلية في نصف الكرة الغربيّ من إبلاغ الولاياتِ المتحدة بما حدَث للطائرة، بدلًا من مُحاولة الولايات المتحدة نفسِـها تسويقَ الحادث. على أنّ أخطَرَ البدائل كان تفجيرَ مركبةِ «غلين» أول

(*) غزو خليج الخنازير كان محاولة فاشـلة من جانب القوات التي دربتها وكالة المخابرات الأمريكية المركزية من الكوبيين المنفيين لغزو جنوب كوبا وقلب النظام على فيدل كاسترو.

(**) مقاطعـة جوانتنامو إحدى مقاطعات كوبا الشرقية التي أخذت شـهرتها بسـبب وجود قاعدة جوانتنامو التابعة للبحرية الأمريكية في خليج جوانتنامو.

رائد أمريكيّ يُطلَق إلى مدار حول الكرة الأرضية، «فإذا انفجر الصاروخُ وقُتل «غلين» يكون الهدفُ تزويدَ برهانٍ لا يُدحَضُ بأنّ المسؤولين هم الشيوعيون وكوبا»، «وأنّ هذا يمكن أن يُنجَز باختلاقِ أدلّةٍ مُختلفة تُثبت التدخُّلَ من جانب الكوبيين»[٩].

ويتردَّدُ دائمًا وبصورةٍ ملفتةٍ للنظر على ألسنة السياسيِّين والإستراتيجيين والمحلِّلين الأمريكان والأوروبيين: «رَبِحْنا الحرب الباردةَ ضدَّ الشيوعية، فعلَيْنا أن نَستعمل الإستراتيجية نفسَها والتكتيكاتِ نفسَها في الحرب ضدّ الإسلام».

ويرى ديفيد ستارتمان David Stratman أنّ قادةَ الغرب يَعتقدون أنّ الإسلام هو المانعُ الحقيقيّ لهم في السيطرة على أرض الإسلام، حيث يقول: «الإسلامُ السياسيّ يُناسب تمامًا احتياج قادةِ أمريكا لعدوٍّ، إنّ البقاع التي يملِكُها المسلمون – في الشرق الأوسط وفي آسيا الوسطى – هي المناطقُ الأكثر إستراتيجية في العالم، إنّ الولايات المتحدة الأمريكية لا يُمكنها قطُّ تبريرُ غزْوِ هذه المناطق قبل إقناع الشعب الأمريكيّ ابتداءً، بأنّ المسلمين في حاجةٍ لمثل هذا الغزو، إما لأنهم متطرِّفون خطرون، أو لغرض جلْبِ الحرية لهم».

Political Islam perfectly suits the needs of America's rulers for an enemy. The US could never justify attacking these nations without first convincing Americans that Muslims need either to be attacked because they are dangerous terrorists or liberated.

ومثلَ ذلك تمامًا استخدَم الغرب الوسائلَ نفسَها في حربه الباردةِ ضدَّ الإسلام، على سبيل المثال:

أحصى تقرير الـ «يوروبول»[*] Europol annual report الصادر عام ٢٠٠٧م – بعنوان بـ EU Terrorism Situation and Trend Report – أحصى الهجوماتِ الإرهابيةَ ضدَّ دُول الاتحاد الأوروبي في عام ٢٠٠٦م فبلغت (٤٩٨)، منها واحدةٌ

(*) يوروبول هي وكالة تطبيق القانون الأوروبية، وظيفتها حفظ الأمن في أوروبا عن طريق تقديم الدعم للدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي في مجالات مكافحة الجرائم الدولية الكبيرة والإرهاب.

فقط نُسبَت للمسلمين، حين اتُّهم شابّان لبنانيان بمحاولة تفجير قطاراتٍ في ألمانيا، و٤٢٤ نُسبَت للانفصاليين، و٥٥ لليساريين، والباقي لليمينيين، وقد حُوكم الشابان وحُكِم عليهما بالسجن، ولكن لفَتَ النظرَ أنّ أحدَهُما لم ينفَّذْ في حقِّه الحكمُ، وتبيّن فيما بعدُ أنه عميلٌ للمخابرات الألمانية، وأنه هو الذي ورَّط الشابَّ الآخَر، مما أوجَب إعادةَ المحاكمة.

ومثلُ ذلك عمَلُ المخابرات الأمريكية، حين أَغْرت الشابّ الصومالي محمد عثمان محمد (١٩ عامًا) عام ٢٠٠٨م بمحاولة التفجير في مكان عامّ، فوفَّرتْ له السكن، وأَعطتْهُ المالَ والمتفجرات؛ لكي تُظهِر أنّ شابًّا مسلمًا حاول القيامَ بعمليةٍ إرهابية.

ومثلُ عمَلِ المخابرات الأمريكية في عام ٢٠١١م حيث هيَّأت الظروفَ لشابٍّ باكستاني (رضوان فردوس) Rezwan Ferdaus وأعطتْهُ التمويل الماليّ، وهيّأت له متفجراتٍ وطائرةَ (هواة) ذاتَ تحكُّم عن بُعْد، وتسهيلاتٍ زائفة؛ بقصْدِ إظهار أنّ مسلمًا حاول القيامَ بعمليةٍ إرهابية[٤٣].

وقد نَشرت وكالاتُ الأنباء والصحافةُ الغربية ذاتُها تفاصيلَ هذه القضايا فيما يخُصّ علاقةَ المخابرات الغربية بتهيئتها، وتمويلها، وتسهيلِ تنفيذها[٢].

وفي قصصٍ متعدِّدة بعضُها افتُضِح وبعضُها بقِيَ في طيّ الكتمان - وكما في كلّ العمليات الإرهابية التي تقوم بها الحكوماتُ، وتسمِّيها الموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica بـ«Establishment Terrorism» - فإنّ الغرب في حربِه الباردة ضدّ الشيوعية أو بعْدَ ذلك ضدّ الإسلام كان لا يأبَهُ أن يكون من بين ضحاياه في عمليّاته الإرهابية أبرياءُ لم يكونوا أهدافًا بالذات، بل كان لا يأبَهُ أن يكون مثلُ هؤلاء الضحايا من مواطنيه.

ولعله من المناسب أن نَستحضر هنا مقولةَ صموئيل هنتنجتون: «لقد انتصر الغربُ على العالم، ولم يكن ذلك بفَضْل سموّ أفكارِه أو قِيَمِه أو دِينه، ولكن بتمكُّنِه الهائل من تنفيذ العُنف المنظَّم».

The West won the world not by the superiority of its ideas or values or religion but rather by its superiority in applying organized violence. - Samuel P. Huntington.

بَعد هـذا كلِّه غريبٌ أن يظَلَّ كثـيرون من بينِنا يردِّدُون ببلاهةٍ مصـطلح «الحرب العالمية ضـدَّ الإرهاب» أو «الحرب ضدّ الإرهاب العالميّ»!، وهو اصطلاحٌ يعني الربطَ بين الإسلام والإرهاب[٤٣].

وعلى إثْر الهجوم الإجراميّ الفظيع على بُرجي التجارة في نيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م قُدِّم تفسيرٌ واحدٌ لهذا الحدَث المروِّع، وقد بُني هذا التفسيرُ على أدلّةٍ هشّة، وعلى معلوماتٍ متضـارِبةِ المصـادر، وعلـى معلوماتٍ تَظهر خروقُهـا، فتُرقَّع بمعلوماتٍ أُخرى كما تُسـتُر الكذبةُ بالكذبة، وبالرغم من أنّ كلَّ هذه الأمور تصـلُحُ أدلةً للنفي أكثرَ من صـلاحِيَتِها أدلةً للإثبات، فقد فُرِض على العالم قَبولُ هذا التفسير، ورُتِّبت عليـه تداعياتٌ خطيرة كان من بينِها ما كان التخطيطُ لـه معلومًا قبلَ الحادث، وكان مـن بين هذه التداعيات الغارَةُ بالقول والفعل على المؤسَّسـات الخيرية الإسـلامية، واتّهامُها بالإرهاب[٢٩].

وفي النسـخة العربية من (لوموند دبلوماتيك)[*] التي تنشُـرها صـحيفةُ الرياض في ١٤ سـبتمبر ٢٠٠٧م وَرد مقـالٌ بعنوان: (أسـاطير أمـوال الإرهاب)، وقـد استُلّ من كتاب لـ I.Wratde الباحثِ في معهد «فليتشـر» للقانون والدبلوماسـية في جامعة توفتس[**] USA، صدَر عن دار أرغون (مرسيليا) بعنوان: (الدعاية الإمبريالية والحرب المالية ضـدّ الارهاب)، وجاء في هذا المقال ما يأتي: (الذي كشَـف مدى مصـداقية الإدارة الأمريكية ليس فقط الأكاذيبَ حوْلَ «أسـلحة الدمار الشـامل العراقية»، بل

(*) لوموند دبلوماتيك جريدة فرنسية شهرية مهتمة بتحليل الآراء السياسية والثقافة والشؤون المعاصرة.

(**) جامعـة توفتـس جامعـة خاصـة في مدينتـي مدفـورد وسـومرفيل قريبة من مدينـة بوسـطن في ولاية ما ماساتشوستس في الولايات المتحدة.

أكثر من ذلك الأكاذيب حوْلَ تمويل الإرهاب، وفي الحالين كان التلاعُبُ دون حدود مع قصص مختلَقةٍ سخيفة، لدرجةِ أنه يمكِنُ أن نتخيَّل أنها تأتي من بعض قصصِ الأطفال، ولكنّ اختلاقاتِ واشنطن حولَ أموال الإرهاب مكَّنتْها في الحقيقة من السيطرةِ بشكْلٍ أفضلَ على تحرُّكات الرساميل العالمية).

وجاء في المقال: (برز مباشرةً بعد ١١ سبتمبر تفاهُمٌ حولَ موضوع تمويل الاعتداءات، وباتت لائحةُ مبيِّضي الأموال مألوفةً إلى حدٍّ أننا رُحنا نكرِّرُها دون تفكير، الشركات الواجهة، المنظمات الخيرية الإسلامية، السعوديون أصحاب المليارات، ... من الصَّحافة الشعبية إلى التقاريرِ الجِدِّية الصادرة عن «خِزانات الأفكار»، لكنّ لائحةَ المشتبه فيهم لا تتغيَّر كثيرًا، بات الاجترارُ بمثابة التأكيد، ابتداءً من ٢٠٠٤م جرى جمعُ الكثير من المعلومات الجديدة من طريقِ الحرب المالية على الإرهاب، لكن لم يكن لها تأثيرٌ كبيرٌ على النظرة أو على السياسات المتَّبَعة، فقامت شخصياتٌ من الصفِّ الأول - أمثال وزير الخِزانة الأمريكيّ السابق بول أونيل، ومايكل شوور(*) الذي ترأَّس الخليةَ الافتراضية المختصة بابن لادن(**) في وكالة الاستخبارات المركزية - بتكذيبِ أغلبِ المعتقدات الشائعة حولَ الحرب العالمية (للإرهاب)، وكذلك أتاحَ نشرُ تقرير لجنة ١١ سبتمبر في أغسطس عام ٢٠٠٤م فهْمًا أكثرَ وضوحًا لواقع تمويلِ الإرهاب، وقد ارتَكَز هذا التقريرُ على دراسةٍ شاملة للوثائق الحكومية - حوْلَ تمويل الإرهاب - الواردةِ بصفة خاصّةٍ من أجهزة الشرطة، والمخابرات، والدوائر السياسية المعنيّة)[٥٣].

وربما لم يحدُث في التاريخ من قبلُ أنّ كذبةً بلغت من الشيوع والانتشار في وقتٍ قصير - إلى درجةِ أن يصدِّق بها المظلومون بها، وأن يُشيعَها أبلغُ مَن تضرَّر

(*) مايكل إف شوور (١٩٥٢-) ضابط أمريكي سابق في وكالة الاستخبارات المركزية ومؤرخ ومؤلف وناقد للسياسة الخارجية الأمريكية ومحلل سياسي.

(**) هو أسامة بن لادن (١٩٥٧-٢٠١١م) نجل الملياردير محمد بن عوض بن لادن وترتيب أسامة بين إخوته وأخواته هو ١٧ من أصل ٥٢ أخًا وأختًا.

بهـا في جوانب حياتِهم الدينيـة والوطنية، وإلى درجةِ أن بُنيـت عليها قراراتٌ دَوْلية وقومية، ونالت أضرارُها المدمِّرةُ مئاتِ الألوف من الأبرياء - مثلُ كذبة أنّ المؤسَّساتِ الخيريةَ الإسلاميةَ وبخاصةٍ السعودية دَعمتْ في شكلٍ أو آخَرَ عن قَصْدٍ أو غيرِ قصْدٍ أنشطةً إرهابية[٥٣].

obeikandl.com

٤ـ الأصوليّة:

مصطلحُ الأصولية وُجد نسبةً إلى الكتيِّبات التي ظهَرت في الولايات المتحدة الأمريكية، في العَقْد الثاني من القرن المنصرم، تحت عنوان Fundamentals، ونشأت أصلًا من الحركة الألفية في القرن التاسعَ عشَرَ، وكانت تمثِّلُ ردَّ فعل عنيفٍ للنقد العلميّ الذي وُجّه لـ (Bible)، وترى هذه الأصوليةُ تفسيرَ نصوص الكتاب المقدس حسَبَ ظاهرِها، وأنّ كلَّ ما تضمّنتْهُ هو عينُ الحقيقة، ولو خالَفَ الحقائقَ العلميّةَ المكتَشفة، أو المنطقَ العقليّ، وكلُّ ما تضمَّنتْه هو كلمةُ الله.

إنّ مصطلَح الأصولية نشأ في بيئةٍ خاصّة في ظلّ ظروفٍ معيَّنة، ولذلك فإنّ نقْلَ هذا الاصطلاحِ إلى نظامٍ يعيش في بيئةٍ مختلفة تحكُمُها ظروفٌ مختلفةٌ خليقٌ بأن يؤدِّي إلى تشويش، واضطرابٍ في الرؤية، بل إلى تضليل.

في الماضي أُثيرت شكوكٌ حولَ موثوقية القرآن من قِبَلِ المستشرقين، ولكنْ كلَّما تقدَّم الزمنُ تضاءَلَت هذه الشكوك، وصار المستشرقون أقربَ إلى التسليم بموثوقية القرآن.

وفي الماضي اتُّهمت بعضُ الجماعات في العالم الإسلاميّ بأن لديهم أفكارًا أو أقوالًا تَمَسُّ بموثوقية القرآن، ولكنْ في العصر الحاضر، فإنه لا أحدَ من المسلمين يَجرؤ على قول: إنّ في القرآن نقصًا أو زيادةً أو تعديلًا عما كان عليه عند موت الرسول ﷺ، وحتى الشيعة الآن يُنكرون اتّهامَهم بذلك.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لم يوجَد حتى الآن كشفٌ علميٌّ يُناقض نصًّا في القرآن[1].

وقبل أكثرَ من ثلاثين سنة كان الطبيبُ الفرنسيّ موريس بوكاي Dr. Maurice Bucaille يُقارِن بين (Bible) والقرآن والعلم الحديث، فدَهِش؛ لأنه بقدْرِ ما رأى

في (Bible) من مناقَضاتٍ للعقل المطلَق، ومنافاةٍ للواقع، وأوهامٍ عن الكون والحياة كانت سائدةً في الماضي، ومخالَفات للكشوف العلمية الحديثة، لم يجِدْ في القرآن شيئًا من ذلك، بالرغم من أنّ القرآن تعرَّضَ في جُزءٍ كبير منه لموضوعاتٍ من علم الطبيعة وعلم الحياة، بل إنه كان عندما يتعرَّضُ للموضوعات التي تعرَّض لها (Bible) والتي لابَستْها الأوهامُ والخرافات يَتفادَى بصورةٍ ظاهرة وجوهَ النقد التي وُجّهت للـ (Bible) في الموضوع[٣٩].

بعبارةٍ أُخرى لا يوجَدُ شخصٌ يدَّعي أو يُدَّعَى له أنه مُسلم وفي الوقت نفسِه يصرِّحُ بشكّه في موثوقية القرآن.

والأمرُ مختلف بالنسبة لـ (Bible)؛ إنه يمكِن بالنسبة لـ (Bible) أن يدّعِيَ شخصٌ أنه مسيحيّ أو يهوديّ وفي الوقت نفسِه يصرِّحُ بأنّ جُزءًا من الكتاب المقدّس (Bible) من عمَلِ البشر، أو أنّ الأنبياءَ المذكورين - بما فيهم إبراهيمُ وموسى - ليسوا شخصياتٍ تاريخية.

فإمّا أن يكون المسلمون كلُّهم أصوليين بالمعنى القاموسيّ للاصطلاح (Fundamentals)، أو ألا يكون الإسلامُ أصوليًّا!.

* * * * * *

قُرنت الأصوليةُ في كثيرٍ من الأحيان بالتعصُّب والعُدوانية والاستعدادِ لاستعمال العنف، فأصبح هذا الاصطلاحُ يُعطِي كلَّ هذه الإيحاءات، ولذلك فإنّنا نرفُض تسميةَ الإسلام بالإسلام الأصوليّ، لاسيَّما وأننا حينما نُقارِن بين من يَصفون الإسلام بالأصوليّ نراهم لا يَتفقون في هذا الوصف على مفهومٍ واحد، بل يَعنِي كلٌّ منهم لونًا في طيفٍ عريض من الألوان والتفسيرات المختلفة، بل المناقضة للإسلام، لا نُنكر أنه يوجَد بين المسلمين متطرِّفون أو متشدِّدون - كما هو الشأنُ في

جميع الديانات – ولكنَّ التطرّفَ والغلوَّ مناقِضٌ لسمة الإسلام الأساسية: (الوسطية والاعتدال)[١].

وفَوْرَ غيابِ «الشيوعية» عدوّ الرأسمالية «الأحمر»، رشَّح الغربُ «الإسلام» عدوًّا بديلًا وسماه «العدوَّ الأخضر»، (كان أولُ تصريحٍ مُعلَنٍ بذلك الترشيحِ قد صدر عن الأمين العامّ لحِلْفِ الأطلسي)، ومنذُ ذلك الوقتِ بدأتِ التهيئةُ لحربٍ باردةٍ بديلة، «الرأسماليةُ الغربية» في مواجهة «الإسلام»، وبرَزَ من وقتٍ مبكِّرٍ من مظاهر هذه الحربِ قرنُ الإسلام بـ«الأصولية» و«العنف»؛ ففي النصف الأوّل من العَقْدِ الأخير للقرن المنصرم كانت أوروبا كلُّها تشاهدُ فيلم «الإرهاب في سبيل الله»، وكانت أمريكا تشاهدُ الفيلم الوثائقي «الجهاد في أمريكا»[٢].

يقول محمد أسد: (إنّ كثيرًا من خِبرات الحضارة الغربية التاريخية موسومٌ بعِداء عميقٍ للإسلام، وإلى حدٍّ مّا فإنّ ذلك موروثٌ من التراث الأوروبيّ[١١].

ولكنْ لماذا يتَخِذ الغربُ الإسلامَ عدوًّا له؟ لا أحَدَ يمكِن أن يقول: إنّ العالَم الإسلاميّ الذي وصَفه وزيرُ الخارجية الهنديُّ بأنه: (لا حول له ولا قوة) يمكِنُ أن يشكِّل في الحاضر أو المستقبل أيَّ تهديدٍ للغرب؛ إنّ العامل الأهمَّ في هذه العداوةِ عاملٌ ثقافيّ[٢٩].

الغربيون يعتقدون أنّ تفوُّقَهم العرقيَّ حقيقةٌ واقعة، وكان احتقارُهم لغيرِ الأوروبيين أحدَ المظاهر البارزة للحضارة الغربية، وهذا وحْدَه على كلِّ حالٍ ليس كافيًا لبيان شعورِهم تجاهَ الإسلام.

فهنا – وهنا فقط – يَظهرُ أنّ الموقف الغربيَّ تجاهَ الإسلام ليس مجرَّدَ كُرهٍ أو عدمِ اهتمام – كما هو الحالُ بالنسبة للأديان والثقافات الأخرى – بل هو في الغالب كُرهٌ عميقٌ في الجذور، يصدُر عن تعصُّب شديد، وهو ليس فكريًّا فحسب بل هو يحمِلُ صبغةً عاطفية حادّة، قد لا يقبَلُ الغرب تعاليمَ بُوذا أو الفلسفةَ الهندوسية،

لكنــه يُحافظ دائمًا على موقف عقليّ متَّزِن تجاهَ هذيــن النظامين، ولكنْ حالما يَلتفتُ للإسلام، فإنّ التوازن يضطربُ، ويتسَلّلُ محَلَّهُ التحيُّز الطائفيّ[١١].

وردُّ فعل الغرب تُجاهَه لا يكون عادة عقلانيًّا، وإنما يكون دائمًا عاطفةً سَلبية عارِمة، وهذا يُفسِّر سرعةَ تقبُّل الرأي العامّ في الغرب لفكرةِ ربط الإسلام بالعُنف والعُدوانية والإرهاب، ويُفسِّــر كيف أنّ بلدًا مثل الســويد استَحقَّت بأن تَعُدَّها تقارير U.E.M.C الصادرةُ بعد ثمانية أشهرٍ من حادث ١١ سبتمبر ضمْنَ أربعِ دولٍ أوروبية كانت الأبرزَ دورًا في موجة العُنف التي تعرضــت لها الأقلياتُ الإســلامية، مع أنّ السويد تصنَّف عــادةً بأنها أكثرُ بلدان الغرب تقدُّمًــا فيما يتعلّقُ بحقوق الإنســان واحترامِ الحريات العامة، وأكثرُها تسامحًا تُجاهَ الأقليات والأجانب.

ويزيــدُ هذا الشــعورَ حِدّةً عــدَمُ ثقة الغرب بأنه يملِكُ أســبابَ النصــر في معرَكته الثقافية ضدَّ الإسلام، وتجارِبُه التاريخيةُ لا تُشجِّعُه على مثل هذه الثقة[٢٩].

يقول محمد أســد: (كانت الحملاتُ الصــليبية ضــدَّ العالم الإســلاميّ أنتجَتْ أعمقَ وأدْومَ الانطباعاتِ على النفس العامة الأوروبية.

الشــرُّ الذي أحدثتْهُ الحملاتُ الصليبية كان أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ شرًّا ثقافيًّا، وقد نشأ تسمُّمُ العقل الأوروبيّ ضدَّ العالم الإسلامي عامّةً من خلال تضليلٍ متعمَّد من الكنيسة ضدَّ تعاليم الإسلام.

مع أنّ الشــعورَ الدينيَّ الــذي كان من جذورِ العِداء الأوروبيّ للإســلام قد تَركَ مكانَــهُ - بوجهــةِ نظرٍ أكثرَ ماديةً للحياة - فإنّ هذا العِداء القديم لا يزال باقيًا بصــفته عاملًا لا شــعوريًّا في عقل الرجل الغربــيّ، وبالطبع فإنّ درجةَ هذا العِداء تختلفُ من فردٍ إلى فرد، ولكنّ وجودَهُ لا يمكن إنكارُه.

وروحُ الحملات الصــليبية بشــكْلٍ مصغَّرٍ - على كلّ حال - لا تزال تتسكَّعُ فوقَ الغرب، وتؤثِّرُ في نظرته إلى العالم المسلم وكلّ ما يتعلق بالإسلام)[١١].

أما بخُصوص أمريكا فيُوجَد دافعٌ مستمَدّ من الإيمان بنصوصٍ دينية، يُصوِّرُه الرئيس الأمريكيّ الأسبق جيمي كارتر(*) - بعد أن أشار إلى معتقداتِ الفكر الدينيّ المتطرِّف والمتنامي في أمريكا - بقوله: «وانتَقل تأثيرُ معتقدات هذه الطائفة إلى سياساتِ الإدارة الأمريكية بصورةٍ تدعو للقلق»، وذكر بأنّ: «تحقيق هذه المعتقدات يُعتبر مسؤوليةً شخصية لدى المؤمنين بها لا بد لهم من الوفاء بها»، وأضاف بأن: «من أبرز أجندة المؤمنين بهذه المعتقدات الدعوة للحرب في الشرق الأوسط ضدّ الإسلام، والدعوة ليأخذ اليهودُ جميعَ الأرض المقدسة، ويَطرُدوا غيرَهم»(٤٣).

ولم يكن غريبًا في ظلِّ هذه الثقافة أن تُولَد الحركةُ المحافظة التي سُمّيت فيما بعدُ بالأصولية Fundamentalism، هذه الحركةُ التي توجَدُ جذورُها في الحركة الألفية التي ظهرت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسعَ عشر، وقد أَكَّد نموَّ الحركة الأصولية مواجهتُها للتحدِّيات الناشئة عن المدّ المتنامي للمهاجرين الكاثوليك، وشُيوعُ أفكارِ النقد الليبرالي للكتاب المقدَّس في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسعَ عشر، وبَعد الحربِ العالمية الثانية عزَّزَ التحدِّي الشيوعيُّ هذه الحركة، ولكنْ حتى بعد انهيارِ الاتحاد السوفييتي ظلَّت الحركةُ تنمو وتزيد حتى قيل: إنّ المذهب الديني الذي يُسنِدها هو الأسرعُ انتشارًا في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أظهرت دراسةٌ أُجرِيت في عام ١٩٧٩م على سبعين من أَلمعِ الكتَّاب الأمريكيين المعاصرين أنّ حوالي ٢٥٪ منهم من المحافظين الجُدُد.

ويتجاوز تأثيرُ هؤلاء على الرأي العام نسبتَهم نظرًا لتميُّزِهم بالحماس لنشر أفكارهم.

(*) جيمس إيرل (جيمي) كارتر الابن (١٩٢٤-) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية التاسع والثلاثون، وذلك في المدة من ١٩٧٧ إلى ١٩٨١م من الحزب الديمقراطي.

ويلخِّص Clarke و Halper الخطوطَ الرئيسة لتفكير المحافظين الجدُد في ثلاثة أمور:

١/ الاعتقاد المبنيّ على أساسٍ ديني، «أنّ المقياس الصحيح للخلُق السياسيّ هو مدى الرغبة والعزم في مكافحة الخير (الذي يمثلونه) للشرّ».

٢/ التأكيد على أنّ ما يجب أن تَعتمد عليه العلاقاتُ بين الدول هو القوةُ العسكرية والعزيمةُ على استعمالها.

٣/ التركيز في البداية على الشرق الأوسط، والإسلام العالميّ كتهديدٍ أساسيّ لمصالح أمريكا في الخارج.

ولم يكن غريبًا - في ظلِّ ثقافة الواسب (البروتستانتي الأبيض) التي ظلَّتْ رافدًا مهمًّا للثقافة الأمريكية بوجهٍ عام - أن تظلَّ الولاياتُ المتحدة بعدَ انتهاء حروب التوسُّع في الداخل عاجزةً عن مقاومة الدافع للحركات العُدوانية ضدَّ الدول الأخرى.

إنّ مفكِّري النهضة الأوروبية ومفكِّري الثورة الفرنسية قد نجحوا في خلْقِ شعاراتٍ أصبحت تردِّدها شعوبُ أوروبا وأمريكا عن حرية الإنسان، وحقوقِه، والمساواةِ بين الناس أمامَ القانون، وقد طُبِّقت هذه الشعاراتُ عمليًّا في داخل المجتمعات الأوروبية والأمريكية، وأصبحت من أساسياتِ التربية، لكنّ هذه الشعاراتِ أخفقَتْ في أن تَفرِضَ نفسَها في علاقة الغرب مع الغير[٩].

وقبل وفاة Grace Halsell عام (٢٠٠٠م) كَتبتْ كتابَها Forcing God's Hand، كان هذا الكتابُ الوثائقيّ عن الأصولية النامية بسرعةٍ في الولايات المتحدة الأمريكية، وجاء في هذا الكتاب: «أنّ جامعة أكرون أَجْرت في عام ١٩٩٦م مَسحًا عن الدين والسياسة، أظهر هذا المسحُ أنّ ٣١ ٪ من سكّان الولايات المتحدة الأمريكية

المسيحيين يؤمنون أو يؤمنون بقوّةٍ بحرب أرمجدون(*)، وهذه الحربُ حسَب النبوءات ستقع في الشرق الأوسط، حيث يُقتَل فيها مائتا مليون من الكفّار، ويَرتفع فيها سيْلُ الدماء حتى يبلغَ أَعِنّةَ الخيل، لمسافةٍ تمتدّ من القدس إلى ٢٠٠ ميل».

وقد توقّع الرئيسُ الأمريكي ريجان(**) أن تكون الحربُ في الجيل الذي يعيش فيه، وعبَّر عن تشوُّفِه بأن تكون في فترةِ رئاسته. (حديثه في عام ١٩٨٠ إلى جيم باركر، وفي عام ١٩٨٣م إلى Tom Dine أحدِ أعضاء لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية).

وانظر أيضًا في خطاب الرئيس كلنتون(***) - أكتوبر ١٩٩٥م - أمامَ الكنيست في إسرائيل، حيث قال: (إنّ إرادة الله قضَتْ بأن تكون إسرائيلُ - كما هي في العهد القديم - من النيل إلى الفرات لشعب إسرائيل إلى الأبد، وإنّ إرادةَ الله يجبُ أن تكون إرادتَنا).

أما الرئيس بوش(****) فقد كرَّر التصريحَ بأنه قَبْلَ إصدار قراراتِه يستشيرُ أباه الذي في السماء[1].

والنتيجةُ الحتمية لهذه الأصولية أنّه يوجَدُ الآن وعلى مدّة عقود سابقةٍ ملايينُ من البشر يُسمَّوْن (اللاجئين الفلسطينيين) طُردوا من أرضِهم وبلادهم بالإرهاب

(*) أرمجدون أو هرمجدون، وهي عند المسلمين أنه ستقع في آخر الزمان معركة كبرى دون الإشارة إلى أيٍّ من الاسمين (أرمجدون أو هرمجدون) وينتهي الأمر بانتصار المسلمين على اليهود.

(**) رونالد ويلسون ريجان (١٩١١-٢٠٠٤م) الرئيس الأربعون للولايات المتحدة الأمريكية من عام ١٩٨١ إلى ١٩٨٩م.

(***) ويليام جيفرسون كلنتون (١٩٤٦-) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الثاني والأربعون، انتخب مدتين رئاسيتين متتاليتين بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠١م.

(****) جورج هربرت واكر بوش الأب (١٩٢٤-) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الواحد والأربعون من عام ١٩٨٩ إلى عام ١٩٩٣م، وابنه جورج والكر (دبليو) بوش (١٩٤٦-) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الثالث والأربعون من ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٩م.

الـذي ظلَّتْ تُمارِسُـه عِصـابات تُسـمَّى هاجانا وشـيترن وإرجـون وكاخ(*)... إلخ؛ لغرَضِ أن يَحُلَّ محَلَّهم أشـتاتٌ من البشَـر قدِمُوا من بلدانٍ مختلفة، كانوا في أغلَبِها يتمتَّعون بالحرية والغنى والنفـوذ، وكان الدافعُ الوحيدُ لاختيارهم هذه الأرضَ دافعًا من الأصولية الدينية، اعتقادَهُم أنّ ربهم قبل ثلاثة آلاف سنة وعَدَهم بأن تكون لهم الأرضُ أرضَ الميعاد، وأن تقوم عليها دولتُهم، وهؤلاء وعِصـاباتُهم الإرهابية والدُّوَلُ التي تُواصِل الدعمَ لهم، وتَعتبرُهم نقطةَ الحضارة والتقدُّم في محيطِ البربريّة والتخلُّفِ كلُّهم نِتاجُ الثقافة الغربية والأمريكية(٣٨).

* * * * * *

الغلوُّ في مقابل الاعتدال:

هُنـاك بعضُ الحقائق ربما يكونُ من المناسـب التذكيرُ بهـا، وإلا ما دام أنها حقائقُ فهي معروفة للجميع.

الحقيقة الأولى: أنه عندنا مصـدرٌ رسميّ لمعرفة التصـوُّر السليم لهذا، ومعرفةِ الطريق السليم للعلاج، هذا المصدرُ هو القرآن الكريم، القرآنُ الكريم قد أوجد مساحة كبيرة لهذا الموضـوع، تناوله في زهاء ٧٠ موضـعًا، وعبَّر عنه بتعبيراتٍ مختلفة أحيانًا الغلوّ، وأحيانًا الإسراف، وأحيانًا الاعتداء، وأحيانًا الطغيان، ولكنها كلَّها تصُبُّ في مَعنًى واحد.

الحقيقة الثانية: أنّ الغلوَّ هو ظاهرةٌ إنسـانية، في كثيرٍ من الأحيان يكون لها أكثرُ من سبب، وفي كثيرٍ من الأحيان يكون سبُبه غلوًّا من الجانب المخالِف، ولكنّ الخطر في أن يكـون نتيجةُ الغلو غلوًّا من الجانب المخالِف؛ لأنّ هذا يوجِدُ الدخول في دائرة الحلْقة المغلَقة؛ لأنه سـيُنمِّي الغلوُّ بعضـه بعضًا، فلا بدّ من الانتباه لهذه الحقيقة لبحث هذا الموضوع.

(*) كاخ حزب أو منظمة إسرائيلية صهيونية يمينية متطرفة، أنشأها الحاخام مائير كاهانا عام ١٩٧١م.

الحقيقة الثالثة: أنّ الغلوَّ بحكْم الطبيعة البشرية يوجَدُ في تكوين الإنسان بحكْم طبيعته مَيْلٌ إليه، وهذا هو ما يشكِّل خطورته، ويَزيد هذه الخطورةَ أن يُصاحِب الميلَ أو يكونَ أحيانًا نتيجتَهُ أو العاملَ فيه ميلٌ آخَرُ هو العُدوان، وقد نبّهَنا القرآنُ لهذا في غير موضع، فالطبيعةُ البشرية تميلُ أو تندفعُ في كثيرٍ من الأحيان إلى الإسرافِ في جانبٍ معيَّن؛ لأنّ قليلًا من الناس يَنظر النظرةَ الشمولية، فمهْما صلَحَت النيةُ ومهما صلَحَ القصْدُ فإنه من الناحية العقلية تكونُ الطبيعة البشرية من النادِرِ أن تمكِّنَ الإنسانَ من النظر إلى الحقيقةِ نظرةً شاملة، فللبحث في هذا الموضوع لا بدّ من ملاحظة هذا الأمر، وربما لأجْلِ هذا الأمر ظهَرتْ خطورةُ هذه الظاهرة، وهذه الظاهرةُ في خطورتها لم توجَدْ ولم تَظهر خطورتُها كما ظهَرت في العصر الحاضر، فهذا العصرُ بالرغم من أنّ الإنسانَ – لغُرورِه أحيانًا – يَعتقد أنه هو عصرُ النُّضْج الفكريّ والنُّضْجِ الخُلُقيّ، لكنْ مع الأسف الشديد عند بحث هذه الظاهرةِ نَرى أنها لم تبلُغْ من الخطورة في عصرٍ من العصور مثْلَ ما بلغَتْ في هذا العصر!.

لقد عانى القرنُ الماضي ٧٠ سنة من الغلوِّ في الأيديولوجية الشيوعية، ويواجِهُ الآنَ غلوًّا آخَرَ لا يَقِلّ خطورة؛ إنّ الدولةَ التي تَحوز أكبرَ مخزونٍ وأشرسَهُ وأحدثَهُ من أدوات الدمار نسبةٌ كبيرةٌ من سكّانها يعتقدون أنّ خلاصَهُم في فَناء العالَم.

وهذا ليس اعتقادَ عددٍ من المهوَّسين أو فئةٍ مهوسة؛ ففي مسْحٍ للدِّين والسياسة أَجْرته جامعةُ أكرون في عام ١٩٩٦م أظهَر أنّ ٣١٪ من البالغين المسيحيين في الولايات المتحدة يَعتقدون في معركة أرمجدون التي سيُفنَى فيها العالَم ما عدا مَن يُكتَب لهم الخلاص، والخلاصُ – كما يعتقدون – مشروطٌ بعَودةِ المسيح، وعودةُ المسيح مشروطةٌ بوجود هذه الحربِ الكونية.

هذا يمثِّل لنا خطورةَ هذه الظاهرة، وتتمثَّل طبيعةُ الخطر في الغلوّ والتطرّف، وأنه مهْما

تقدَّم الإنسانُ من الناحية الفكرية أو من الناحية العلمية أو من الناحية الثقافية يبقَى لديه الميلُ إلى التطرُّف، بل ربما يزيد: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧][٤٦].

إنّ الأصوليةَ خطَرٌ على الحرية والسلام في العالم، كلَّما ادَّعَتْ أنها بقتْلِها الآلافَ من الأبرياء كانت تنفِّذُ إرادةَ الله، سواءٌ ظهَرتْ هذه الأصوليةُ تحت اسم رئيس القاعدة(*)، أو اسم رئيس دَولةٍ تَملك من أسلحةِ الدمار الشامل ما يَكفِي لتدمير سبعةَ عشَرَ كوكبًا مثلَ كوكَبِنا الأرضيّ.

وإذا افتَرضْنا أنّ الثقافةَ السعودية السائدة «أصولية» فهي «أصوليةٌ دَرْداء» أي دون أَسْنان، فلا تُقارَن بأصوليةٍ أسنانُها «الرؤوسُ النووية» و«صواريخُ توما هوك»[١٨].

(*) القاعدة أو تنظيم القاعدة أو قاعدة الجهاد هي منظمة وحركة متعددة الجنسيات أُسست ما بين أغسطس ١٩٨٨ وأواخر ١٩٨٩ وأوائل ١٩٩٠م، وقد كان رئيس هيئة عمليات القاعدة أسامة بن لادن، وخلفه أيمن الظواهري.

openkandl.com

٥ـ الحرية:

الإسلامُ في حمايته لحرية الإنسان وحقوقِه هو أرقَى وأكثرُ إنسانيةً وأبلغُ حمايةً من أيِّ نظام ثقافيٍّ آخَر، دينيّ أو علمانيّ[٢٥].

ويُعلَم بالاستقراء من أحكامِ الشرع أنّ حريةَ الإنسان وكرامتَهُ وحقَّهُ في الاختيار ليست أخفَّ في ميزان الشرع من مالِه الذي اعتَبر العلماءُ أنّ حفظَهُ وحمايتَهُ من المقاصد الأساسية والضروريةِ للأحكام[٢٦].

إنّ أيَّ حقٍّ قرّرتْهُ الشريعةُ الغراءُ من الحقوق الباقية الدائمة، لا يملِكُ القانونُ إلغاءَها أو سَلْبَها الحماية[٨].

يقول M.N.Roy: (الإسلامُ ناصَر الحريّةَ والمساواةَ التي كانت في الحقيقة قد نُسِيتْ على أرض الحضارات التي تَغَلَّبَ عليها، مع أنّ كثيرًا من الديانات والمذاهب الأخلاقية دَعتْ إلى المساواة بين البشر، فإنّ الإسلام وحدَهُ فيما يبدو وحتى الآن هو الذي نجَح في غرس هذا التصوُّر في تفكيرِ وسلوك المؤمنين به الواعِين لحقيقته)[٩].

إنّ انتهاك حرية الدين في صورته البارزة يعني أن تَمنع شخصًا من أن يؤدِّيَ فعلًا يعتقدُ أنّ دينه يُوجبه عليه، أو أن تَفرِض على شخصٍ أن يؤدِّيَ فعلًا يعتقدُ أنّ دينه يحرِّمه عليه، وقد جرى العملُ في العالم الإسلاميّ – منذُ عهد النبوة وحتى العهد الحاضر، وفي مختلِف أقطار العالم الإسلاميّ – على إعطاء الأقليات الدينية تحت حكْم المسلمين الحريةَ الكاملة للعبادة ووجودِ المعابد، ومُنحوا سلطةَ أن يكون لهم قوانينُهم الخاصة التي تحكُم أفرادَ الأقلية، وأن يكون لهم قضاؤهم الخاصُّ فيما يتعلَّق بما يكون بين هؤلاء الأفراد، وأن يُستثنَوْا من القانون الجِنائيّ العام، بمعيارِ أنّ أيَّ فعْل مباح في ديانة الأقلية، فلا يُعتبر ارتكابُه من أحدِ أفرادها جريمةً ولو كان القانونُ الجنائيُّ العامّ يَعتبِره جريمةً كشُرب الخمر مثلًا.

ومن الصعْب أن يوجَد في أيِّ نظامٍ آخَر مساحةٌ من الحرية الدينية تُعطيها السلطةُ الحاكمةُ للأقليات الدينية تُقارِب هذه المساحة.

هذا يَعني أنّ التسامح في الإسلام تُجاهَ الديانات الأُخرى قاعدةٌ عامة[٣٨].

يقول توماس أرنولد: (إنّ معاملةَ السلاطين العثمانيين لرعاياهم المسيحيين - على الأقلِّ على مدى قرنَيْن بعدَ استيلائهم على اليونان - تمثَّلت بقدْرٍ من التسامح لم تشهَدْ مثلَهُ بقيةُ أوروبا في ذلك الوقت - أتباع كالفن في هنغاريا[*] وترانسفاليا - والموحدون في القطر الأخير فضَّلُوا طويلًا أن يكونوا تحت سلطان الأتراك من أن يقعوا تحت التعصُّب المقيت لبَيْت هابسبرج، وظلَّ بروتستانت سيلسيا ينظُرون بعيون الشَّوْق إلى الأتراك، ويُفضِّلون بسرورٍ أن يَشتَرُوا حريَّتَهم الدينية بخُضوعهم للحكم الإسلاميّ، وإلى تركيا لجأت أعدادٌ كبيرة من اليهود الأسبان فرارًا من الاضطهادِ في نهاية القرن الخامسَ عشر، وفي القرن السابعَ عشَر كان مكاريوس بطريقُ إنطاكية على حقٍّ في تهنئةِ نفسِه عندما رأى الفظائعَ المرعبة للاضطهاد الذي وقع على الروس أتباعِ الكنيسة الأرثوذكسية على يد الكاثوليك، وعلى حقٍّ في أن يقول: «الله يُدِيم الإمبراطوريةَ العثمانية إلى الأبد؛ إذ يَكتفُون بأخذ الضريبة، ولا يَتدخَّلون بأيِّ صورة في أديان رعاياهم، سواءٌ كانوا مسيحيين أو نازارين أو يهودًا أو سامرة، في حينِ أنّ هؤلاء الكاثوليك الملعونين لم يَكتفُوا بأخْذِ الضريبة من إخوانهم في المسيح بالرغم من رغبتهم في خدمتهم، بل سلَّطوا عليهم أعداءَ المسيحِ اليهودَ البُغاة، الذين لم يَسمَحوا لهم قطُّ ببناء الكنائس، أو يَتركوا لهم قسِّيسًا يَعرِف أسرار الديانة»، وحتى في إيطاليا وُجد أشخاصٌ يتمنَّوْن أن يكونوا تحت سلطان الأتراك؛ ليتمتَّعُوا بالحرية والتسامح اللَّذَين حُرموا منهما تحت سلطان الحكومة المسيحية)[٩].

(*) المجر أو هنغاريا دولة أوروبية محصورة تقع في حوض الكاربات في وسط أوروبا.

يُقارَنُ هذا بما صـدَر في الماضـي القريب من قوانينَ في فرنسـا وألمانيا متعلِّقًا بتقييدِ حرية المرأة المسلمة (مواطنة أو مقيمة) في ارتداء الحجاب.

وكتب الرئيس الأمريكيّ الأسـبق «كارتر» في كتابه (قِيَمُنا المعرَّضـة للخطَر) ص ١٣٣ (الترجمة العربية): (بعد هجَمات ١١ سبتمبر بالغَت حكومةُ الولايات المتحدة الأمريكية بردِّ الفعْل، بقيامها باحتجازِ أكثر من ١٢٠٠ شخْص بريء، لم يَسبِق لأحدٍ منهم مطلقًا أن أُدِين بأيِّ جريمةٍ لها علاقة بالإرهاب، واسـتُبقِيتْ هُوِياتُهم سـرِّية، ولم يُعطَوا أبدًا الحقَّ في سماع التُّهَم الموجَّهةِ إليهم، أو تلقِّيهم المشورةَ القانونية، كلُّهم تقريبًا كانوا مسلمين، ولتقْنينِ مثل هذه الإساءات للحرِّيات المدنية صدَر قانون (الوطني).

وفي العَقْد الأخير من القرن المنصرم طُبِّقت إجراءات: «الجريمة بالارتباط» و«الأدلة السـرية» على المسلمين، والاستثناءُ النادر كان مثْلَ حالةِ كينية مسيحية ولكنْ زوجةُ مسلم[٣٨].

* * * * * *

الغربُ يُسـرف في التمدُّح بالتحضُّـر ورعايةِ القيم الإنسانية وادِّعاءِ تميُّزِه في ذلك عن بقية الشعوب، ويَصِمُ الآخَر بالتخلُّفِ والهمَجية، وغيابِ أو قصورِ الحرية والعدل والمساواة وحقوقِ الإنسان في المجتمعات الأخرى.

ولقد امتَزج في ثقافة «الواسـب» (البروتسـتانتي الأبيض) الميولُ الدينية بشـعورِ التفوّق الثقافيّ والعِرْقي، وامتَزج الإيمانُ بالديمقراطية والحرية والعدل والصدق بالإرثِ الرُّوماني وما يُعبِّر عنه من النظْرةِ الدُّونية للشـعوب الأخرى، وترسَّـخت عقيدةُ الحقّ في التوسـع والغلبة، وشـاعت في هذه الثقافة بعضُ الشـعارات، مثل شـعار «المصير الواضح» Manifest Destiny حتى صار لها وزنٌ عقَديّ.

ولم يكن غريبًا - في ظلِّ ثقافة الواسب التي ظلَّتْ رافدًا مهمًّا للثقافة الأمريكية بوجهٍ عام - أن تظلَّ الولاياتُ المتحدة بعدَ انتهاء حروب التوسُّع في الداخل عاجزةً عن مقاومة الدافع للحركات العُدوانية ضدَّ الدول الأخرى[٩].

كتب ألبرت أينشتاين في سنواته الأخيرة: (لقد رَبحنا الحربَ ولكنّا خسِرْنا السلام، لقد وُعِد العالَم بالتحرر من الخوف، ولكنّ الخوف زاد في الواقع، لقد وُعد العالم بالحرية والعدل، ولكنّنا لا نزال نَرى قُوى «الحرية» تصُبُّ النار، وتَقصف بالقنابل شُعوبا - لا لشيءٍ إلا أنها تُطالِب بالحرية والعدل والاستقلال - وتَدعَمُ بقوّة السلاح الأحزابَ والأفرادَ الذين يُحقِّقون المصالح الأنانية لتلك القُوى)[٣].

لقد كشَف واقعُ الحياة حدودَ إيمان هؤلاء الأعداء وممارستِهم للقِيَم الإنسانية الكونية: العدل والحرية والمساواة والرحمة والتعامل الإنساني[٤٧].

وما الذي يدفَعُ الغربَ إلى السلوك الهمَجيّ المناقض للأخلاق والقيم الإنسانية؟ ما الذي يحمِلُه على الضغوط على بُلدان الخليج لتمنَعَ أبناءها من ممارسةِ حريةٍ شخصية وحقٍّ إنسانيّ في العمل الصالح الخالص النافع، تلك الحريةِ التي يمارس مثلَها أيُّ شخص في العالم، ولا تُحجَبُ عن أي مواطنٍ في دولة ديموقراطية أو ديكتاتورية؟ لا شيء إلّا مواجَهة «غزْو» الإسلام للقلوب والعقول. والغربُ بغُروره واستعلائه يَعمَى في هذا عن الحقيقة البسيطة أنّ غزْو العقول والقلوب - في عصر الاتصالات التي أَسقطت كثيرًا من الحواجز - قوةٌ لا تَعتمد على أسلحةِ الدمار الشامل، وإنما على ما هو أقوى «قوة الأفكار العظيمة».

أليس من حقِّنا عند تقييم الحرب الدعائية الغربية ضدَّ البذل التطوّعيّ الإسلاميّ أن نصِفَه بأنه ليس مجرّدَ انتهاكٍ لحرية شخصية للإنسان بل انتهاكًا لحقٍّ من حقوقه الأساسية، ولحريته في العبادة.

والإدارةُ الأمريكية – وهي تَكشِف دورها في هذا الموقف المشين مغتبطةً به – لم تُبالِ بالتناقُض الصارخ بين هذا الموقف وبين ما يَرتفع به ضجيجُها عن: الحرية، والعدل، ودولة القانون، وحقوق الإنسان، كما لم تُبالِ بخِزْي الهزيمة الأخلاقية التي تُجلِّلُها وهي تدمِّرُ – ظلمًا وعدوانًا – بناءً إنسانيًّا خيريًّا عالميًّا بنَتْه المؤسّساتُ الخيرية الإسلامية.

إنّ البذل التطوعيّ في سبيل النفع العامّ في جانب الإنسان المسلم ليس فقط وسيلةً للإرضاء النفسيّ، ومِن ثَمّ تلبيةً لحاجة طبيعية للإنسان السويّ، بل هو عبادةٌ وشَوقٌ إلى رضى الله، وتلبيةٌ لنداءٍ مُلحٍّ من الضمير والوجدان.

وهذا يَعني أنّ أيَّ تحديدٍ لفُرصة الإنسان المسلم في ممارسة البذل التطوعيّ للنفع العام لن يكون فقط مجرَّدَ انتهاك للحرية الشخصية والمدنية بل انتهاكًا لحقٍّ الإنسان في حرية العبادة، وحرية الضمير[٢].

* * * * * *

نلاحظ أنّ حرية التعبير – ككُلّ الحريات – قابلةٌ للنسبية والغموض، وعندما نحكِّمُ العقل والعدل، أو بعبارة أخرى التفكير العقلانيّ والأساس الأخلاقيّ: هل القولُ بحرية التعبير كقيمةٍ كونية وحقٍّ من حقوق الإنسان يَعني أنها حريةٌ «مطلَقة» لا قيدَ عليها؟، هل وُجد مِن قَبْلُ في أيِّ زمان وفي أيِّ مكان مَن يَعتبر حريةَ التعبير قيمةً كونية «لا قيود» عليها؟، هل يَعتبرُها كذلك، ويَنحازُ إليها حتى ولو ظهَرت في صفةِ عُدوان على الآخَرين وحرياتهم وقِيَمهم؟، هل يَعتبرُها كذلك لو ظهَرت في إعلان البائع عن سلعةٍ يسوِّقها إعلانُه بالكذب والخداع والغشّ وتضليلِ المستهلِكين؟، هل نتوقَّع أن تُعتبَر كذلك قيمةً مطلقة عندما كانت المناداةُ بالحرية والمساواة والإخاء في ذَروتها بعد الثورة الفرنسية حتى عندما كانت مدام «رولان»[*] تُخاطِب الحرية وهي

(*) ماري جان رولان ده لا بلاتيير (١٧٥٤–١٧٩٤م) تعرف باسم مدام رولان، قد كانت تعمل مستشارًا سياسيًّا لجماعة الجيروندين في أثناء الثورة الفرنسية، وكانت نهايتها بالمقصلة في أثناء عهد الرعب.

في طريقِها إلى المقصلة بقولها: «أيتها الحرية، كم من الجرائم تُرتكَب باسمك»؟، هل إنّ تقييدَ حرية التعبير بـ«عدم المساس بالمقدَّسات، أو الجهر بما يوجِب الحكْمَ بالردة في الشرع» انتهاكٌ لحقٍّ من حقوق الإنسان؟، هل يمكن أن نجِدَ الإجابةَ فيما هو واقع؟.

لو افتُرض أنّ القارئ وصَل إلى الاقتناع بما سبَق، لكان من الطبيعيّ أن يَثُور لديه سؤالان:

الأول: إلى أيّ مدًى يمكن عقلًا وعدلًا وواقعًا تقييدُ حرية التعبير؟

والثاني: مَن له سلطةُ هذا التقييد؟

للإجابة عن السؤال الأول، فمن المناسب أن نُلاحظ أوّلًا أنّ حريةَ التعبير ككُلّ الحريات قابلةٌ للنسبية والغموض، وقد يُساعد على جِلائها مفهومُ الاصطلاح المقابل: «الطاعة»، فالحريةُ والطاعةُ وجهان لعملةٍ واحدة؛ فحيثُ تحكُم الطاعة لا توجَد الحرية، وربما يتّضِح ذلك أكثرَ في إجابة السؤال الثاني.

وفيما يتعلَّق بالسؤال الثاني: مَن له الحقُّ في تقييد حرية التعبير؟ بالطبع، فإنّ الإجابة عن هذا السؤال بشُمولٍ ليست ممكِنةً في هذا المجال إن كانت ممكنةً في مجال آخَر، ولكنْ لنستحضِر في الذهن الأنظمةَ الديموقراطية، ففي هذه الأنظمةِ تكون الجهةُ التشريعية (البرلمان) لها سلطةٌ عُليا في الأمر والنهي، ومن أفراد هذه السلطة: سلطة «تقييد الحريات» التي تنُصّ عليها وثيقةُ حقوق الإنسان، بما فيها حرية التعبير، وقد تُبالِغ الأنظمةُ الديموقراطية في وصْفِ هذه السلطةِ العليا، كما في المَثَل الإنجليزيّ المشهور «الملِكُ مع البرلمان يَستطيعون أن يَعملوا أيَّ شيء سوى أن يحوِّلُوا الرجلَ إلى امرأةٍ أو المرأةَ إلى رجل».

لكنَّ هذه السلطةَ في الحقيقة ليست على إطلاقِها؛ فقد يُعتَرض على بعض التشريعات بأنها مخالفةٌ للدستور، وإذًا فالحكْمُ الأخيرُ - أو السلطةُ الحقيقية في

«التقييد» – للدستور (الذي وافقَت عليه الأمةُ بأغلبيَّتِها عند الاستفتاء العام عليه)، وهي طاعةٌ «مُطْلقة» له.

ولا يوجَد في العالم من يدّعِي أنّ من حقه أن: «يقول ما في نفسه، وأن يعبِّر عما في رُوحه، ويكتُبَ ويتحدَّثَ ويرفعَ صوته عاليًا بما يريدُه» دون قيد، أو أنّ هذا من حقوقه التي تضمَّنتْها وثيقةُ الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان(*)، ولو وُجِد مَن يدّعِي ذلك لما قَبِلَه منه أحد، وأنه لم يوجَد في واقع الحياة تطبيقٌ لمثل هذه الدّعوى.

ويتضِحُ هذا المعنى أكثرَ عند المقارنة بالنظام الإسلاميّ، فالنظامُ الإسلاميّ – ككُلّ الأنظمة – يَفرِضُ في حالاتٍ معيّنة طاعةَ المخلوق للمخلوق، مثل: طاعة الزوجة لزوجها، والولدِ لوالدَيْه، والرعيةِ لولِيِّ الأمر، ولكنَّ كلَّ هؤلاء طاعتُهم «غير مطلَقة»؛ لأنّ الطاعةَ المطلقةَ في الإسلام من خصائص الألوهية، فدعواها لغير الله «شركٌ» في الطاعة، يَعني أنّ طاعةَ المخلوق في الإسلام دائمًا «مقيَّدة» وليست «مطلقة»، على عكْس ما رأَيْنا بالنسبة للدستور في مواجَهة الخاضعين له في النظُم الديموقراطية، ففي الإسلام طاعةُ المخلوق المفروضةُ – سواءٌ الولد لوالديه، أو الرعية للحاكم – طاعةٌ «مقيَّدة» في «المعروف»، وهذا المعيارُ استُعمل في القرآن في تسعةٍ وثلاثين موضعًا، مما يَعني أنه معيارٌ «مرِن» ولكنّه «منضبط»، قال تعالى في مخاطبة الرسول ﷺ في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، علّق المفسِّر المشهور ابن زيد(**) (توفي عام ١٨٢هـ) على هذا الجزءِ من الآية الكريمة بقوله: محمدٌ ﷺ نبيٌّ

(*) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هووثيقة حقوق دولية تمثل الإعلان الذي تبنته الأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م في قصر شابو في باريس.

(**) إذا أطلق (ابن زيد) في كتب التفسير فالمقصود به عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوي المتوفى سنة ١٨٢هـ، وهو من أتباع التابعين، روى عن أبيه المفسر زيد بن أسلم، وقد روى عن عبدالرحمن عدد من المفسرين، مثل عبدالرزاق بن همام الصنعاني صاحب التفسير وعبدالله بن وهب، وأورد له الطبري ١٨٠٠ رواية في التفسير.

الله وخِيرتُــه من خلْقِه ومع ذلك فلم يقُلِ الله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾ ويترك حتى قال: ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾، فكيــف لغيرِه ﷺ أن يدَّعِي أنه يُطاع في غيرِ المعروف (راجع الطبري(*) في تفســير هذه الآية)، وفي الآيةِ الكريمة الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فالآيــةُ الكريمة تَفترِضُ إمكانيةَ المنازعة بين وليِّ الأمر ومَن يَحْكُمه، في شــأنِ أمْرٍ أَمَرَ به، ويشــمَلُ ذلك التنازعَ في اتّصاف الأمر بصفة المعروف، والمنازعةُ هنــا – والله أعلــم – إنما تكونُ بعد المراجعة، مما يَعني قابليةَ كلِّ أمْرٍ من أوامر وليِّ الأمر للمراجعة – كما اختار ذلك ابنُ عاشــور(**) في تفســيره لهذه الآية – تحت شرط «في المعروف»، وتَهدي الآيةُ الكريمة إلى طريقةِ العلاج، وهو تحكيمُ القرآن والســنة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

وبهذه المناســبة، فيُمكن للقارئ إعادةُ التأمُّل: أيُّ النظامَيْن الثقافيَّين أكثرُ تحضُّرًا وتقدُّمًا، وإنسانيةً وحماية لكرامة الإنسان وحريته، وأولى بالدعوة لتبنِّيه والدفاع عنه؟، وليتذكَّــرِ القارئُ أننا نتحدَّثُ عن الأنظمة، ونُقــارِن بينها، ولا نتحدَّثُ عن التطبيقات التــي تحدُث في ظلِّها، هنا أو هناك، وعندما نتحدَّثُ هنا عن الإســلام، فإنما نقصِــدُ به جانبَه «الدنيوي» أيْ تنظيمَه لطريقة الحياة.

وعندمــا تَســتعيد الذاكرة أنّ المســلمين يؤمنون بــأنّ الله وحده المســتحقُّ منهم لغاية الخضــوع والاستســلام، وغايــةِ الحبّ والتعلُّق، وأنه ســبحانه وحــدَهُ الذي إن ذكــرَهُ المؤمــن وَجِلَ قلبُــه وتملَّكهُ الشــعورُ بما يجب له مــن توقيرٍ وإجــلال، وأنهم لا يكونون مؤمنين إلا إذا كان الرســولُ ﷺ أحبَّ إلى أحدِهم من نفســه وولَدِه ووالده والناســ أجمعين، وأنه أُرســل رحمةً لنــا، وكان عزيزًا عليه ما يُعنِتُنــا، حريصٌ علينا،

(*) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الشــهير بالإمام أبو جعفر الطبري (٢٢٤–٣١٥هـ) إمام من أئمة المســلمين من أهل السنة والجماعة ومؤرخ ومفسر.

(**) محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦–١٣٩٣هـ) عالم وفقيه تونسي، أسرته منحدرة من الأندلس.

رؤوفٌ رحيمٌ بنا، وأنّ الذين يؤذون الله ورسولَهُ لهم عذابٌ أليم في الدنيا والآخرة، ويَعْرِفون أنّ القرآن كلامُ الله لاريبَ فيه، ولا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وأنه لو أُنزِل على جبلٍ لرأيته خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، لكان هذا القرآن.

فالاعترافُ بحقوقهم وحرياتهم يمنَعُ التسامحَ مع أيِّ تعاملٍ مع هذه الذوات المقدّسة بما يخالِفُ الأدبَ الواجبَ لها والوقار.

ومن الطبيعيّ أن يشعُر المسلمون بأنهم يُؤذَون نفسيًّا بالعُدوان في التعامل السَّلبيّ مع الثوابت والمقدَّسات أكثرَ مما يتأذَّوْن جسمانيًّا أو ماليًّا بالعُدوان على الجسم والمال، ويَعتقدون أنّ حقَّهم في عدم التسامح مع أيِّ انتهاكٍ لما ذُكر لا يَقِلُّ عن حقِّهم في عدم التسامح مع أي انتهاكٍ لحقوقهم أو حرياتهم الأُخرى المقرّرة في الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان.

والحقيقةُ التي يَغفُلُ عنها الكثيرُ أنّ الله قد حَظَرَ على المسلم الاستماعَ باختيارٍ ورضًى لمن يَخوضون في آيات الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، والمقصود بـ«الخوض في آيات الله» هنا معنًى واسعٌ يشمَل: «الوقوع في النبي ﷺ، والقرآنِ، وسبِّه والاستهزاءِ به».

وإذا كان المسلمُ - بالتعرُّض لهذا الوعيد والإنذار الذي تَرتعِدُ منه القلوبُ، وتمتلئ من الخشية والفَرَق - لا يملِكُ إلا الانصياعَ لحكم الله - فلا يَقعُدُ دون إنكارٍ بقلبه ولسانه في مجلسٍ «حقيقيّ أو افتراضيّ» يُخاض فيه في آيات الله، وتُقال فيه قَولةُ الكفر، ولا يتردَّدُ بعضُ حاضريه من الجهر بما يُحكَم عليه بالردة - أفلا يكون من باب أولى أن يُحظَر على المسلمين أن يتسامحوا في سلطانهم بالاستماع اختيارًا إلى مَن

يجهر بقولة الكفر، وما يوجِب الردة والكفرَ بعد الإسلام؟.

لا أحدَ يقول بأنّ سلوك قاطع الطريق يمكِنُ أن يُبرَّر بأنه ممارسةٌ للحرية الشخصية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ الآية [المائدة: ٣٣]، فمَن أحقُّ بهذه الصفة «محاربة الله» و«السعي للإفساد في الأرض»؟ قاطعُ الطريق الذي ضررُه على المجتمع محدودٌ بالزمان والمكان والأشخاصِ المتضرِّرين؟ أم مَن يَرمي بنواتجه في بُحيرةِ المجتمع الهادئة التي يُرفرِف عليها السلام، فيُثيرُ في المجتمع عواملَ البغضاء والكراهيَة والنزاع؟، مِثلُ مَن يُحارِب الله، ويَسعى في الأرض الفساد بالتعاملِ السلبيّ مع الثوابت والمقدَّسات على نحوِ ما وُصف.

كم مرّة رأينا الوفود من السياسيِّين والاجتماعيِّين والتربويِّين وغيرِهم يأتون للمملكة ليُقنِعوها بعدم العقاب على الرِّدّة بحجة «حرية الرأي والتعبير والضمير والمعتقد»، ونَرى إخوانَنا من الخاصّة وليس العامة تَرتجف الأرضُ تحت أقدامِهم، وتَرتعش أفئدتُهم، ويَتصبَّبُ العرَق من جباهِهم شاعِرين بالحرَج ألا يتمكَّنوا من مواجهة هذا الهجوم، لم يُدرك هؤلاء الإخوةُ أنّ هجومَ عدوِّهم لا تَدعمُه قوة حجةٍ وبرهان؛ إذ لا يَستند إلى قاعدةٍ قانونية معترَفٍ بها، أو إلى محاكَمةٍ منطقية سليمة، أو إلى أساسٍ خُلُقي.

فبأيِّ عقلٍ أو عدْلٍ يُطلَبُ من مجتمَعٍ مسلم كلُّ أفرادِه مسلمون بأن يتسامحوا مع طارئٍ من بني جلدتهم أو غيرهم - ممن حُرِم فضيلةَ التواضع الفكريّ وخلا صدرُه إلا مِن «كِبْرٍ ما هو بِبالغِه» - بإنكارِ حقوقهم؛ اتِّكاءً على حقّ حرية التعبير[٢٥].